

اعترافات مُضيفة جوّية

نهى ماضي

دار دوِّن

اعترافات مضيفة جوية

«مكتبة ♔ النخبة»

نهــى مــاضــي

نهى مـاضي: اعترافات مضيفة جوية، اعترافات

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٢٨٠٠/٢٠١٧ - الترقيم الدولي: 978-977-806-085-0

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com



إهــداء

إهداء لكل الأرواح الجميلة التي صادفتها بين السحب.

إهداء للأستاذ الصحفي: أحمد مرزوق الذي دعمني كي أحمل قلمًا وأسطر ذكرياتي واعترافاتي.

إهداء لأمي منبع العطاء وإخوتي مصدر بهجتي.

وأخيرًا إهداء خاص لروح أخي الذي رحل ومعه قطعة من روحي.

مقدمة

رجاء ربط الأحزمة

وجدتها أمامي، حيث كنت جالسة في مقهى هادئ على البحر، ملامحها تدل على أنها في بداية العقد الثالث من عمرها.. لكن هناك شيئًا ما في عينيها ونظرتها جعلها تبدو لي أكبر من ذلك، وجودها وحدها جعلني أرتاح نوعًا ما فهي تشاطرني الوحدة.

شعرت بالفضول لمعرفة أسرارها التي تخفيها خلف تلك الابتسامة الهادئة، نظرت لأناملها وتأكدت من أنها لا ترتدي هذا الخاتم الذي تحلم به كل فتاة، وقتها بدأت أقرأها بصورة أوضح، لعلها تعمل في مكان ما وعصفت بها الأيام ولم تجد حلمها، لعلها قابلت الكثير ممن استمتعوا معها بلحظات حب صادقة أو مزيفة ولكن من الواضح أنها انتهت بتركها وحيدة.

عيونها تحمل حزنًا استشعرته عن بعد، وددت أن أقترب منها وأن أشاركها جلستها ولكن... الوحدة علمتني ألا أنساق لكل ما أريد، تُرى كيف كانت أوراق حياتها، هل كانت مليئة بالقصص والتجارب المفرحة والموجعة مثلنا جميعًا !! هل عاشت قصة حب كالتي نشاهدها في الأفلام وانتهت نهاية مفجعة أم هي مثل الكثير لم تعرف ما هو الحب ولكن شاهدته في عيون المحبين فقط.

طريقة جلستها وملابسها تدل على بساطتها وأناقتها، تعجبني المرأة غير المتكلفة، فمن الممكن أن يكون جمالها في بساطتها، حقيبتها الصغيرة تدل على أنها شخصية عملية، لا تعبأ بأحدث الصيحات، نظرت لي بهدوء ثم

وقفت نظرت لها وإبتسمت ثم هممتُ على الوقوف فوجئت بها تنهض هي الأخرى معلنة الرحيل.

يا إلهي إنها أنا.

يا إلهي إنها انعكاس صورتي في المرآة... جلستُ مكاني وتساءلت كم مر عليَّ من سنين لأتحول من طفلة بريئة لها أحلام وآمال إلى ما أنا عليه الآن، كم من التجارب التي عشتها شكلتني وطوعت شخصيتي.

نظرتُ للسماء محراب دعواتي اليومية وتأملاتي، كم أعشق شكل السحب، مرت طائرة مخلفة خيطًا أبيض طويلًا، يا إلهي كم مضى على هبوطي للأرض تاركة السحب موطن أحلامي وذكرياتي، لمحتُ نفسي بداخل تلك الطائرة أنظر من نافذتها وأتفحص ذلك المكان الذي سيصبح موطني لسنوات عدة، يا لها من ذكرى، كانت أول مرة أركب طائرة حينها كنت ذاهبة لتحقيق حلمي الذي طالما تمنيته..

* * *

(١)

«نرجو من حضراتكم ربط أحزمة المقاعد نحن على وشك الإقلاع والتحليق بين السحاب».

انطفأت إشارة ربط أحزمة المقاعد، ووجدت نفسي هائمة في مدى جمال تلك السحب التي تحملنا بكل رشاقة ومرونة بين أحضانها، ما كل هذا الجمال! رأيت وجه أُمي الصبوح، أو هكذا خُيِّل لي، فسقطت مني دمعة حائرة لا أعلم هل هي دمعة اشتياق مسبق أم خوف من القادم.

نعم لقد قررت أن أخوض تجربتي بنفسي، وأحقق حلمًا راودني كثيرًا منذ الصغر، عندما كان يسألني أحدهم عن طموحي عندما أكبر، وكانت الإجابة حاضرة دون تردد: «عاوزة أشتغل مضيفة».

كان من بين أحلام طفولتي الكثيرة حلم أن أصبح مضيفة وأن أسافر بلدان العالم وأن أعشق طيارًا ولكني أبدًا لم أسعَ لتحقيق حلمي فرضت طبيعة حياتي على تفكري حدودًا لم أكن أعتقد أنني سأتمكن من كسرها وتخطيها في يوم ما، حيث نشأت في أسرة صغيرة في إحدى قرى مصر والتي تحصر دور الفتاة في الزواج والخلفة، وما هو غير ذلك فلا قيمة له،

والدي رحمه الله كان متفتح الوعي قليلًا عن المحيط، اهتم بدراستنا وتعليمنا لم يبخل علينا في الاستمتاع بطفولتنا لكن أيضا كانت تحكمه بعض العادات والتقاليد التي تطوق أرواحنا بأسوار حديدية خانقة، كنت أشاهد الأفلام وأتخيلني بطلة من البطلات وأنني أنعم بتلك الحرية والحياة المرفهة،

كانت الأفلام ملجأي وظلت أحلامي تكبر وتزهر عن تمرد على كل شيء ولكن مازالت العقبة الكبرى هي وجودي في تلك المدينة القروية مما جعلني أتناسى حلمي في الانطلاق بعيدًا، إلى أن فاجأتني أختي ذات يوم وهي تخبرني أنها طالعت إعلانًا في إحدى الصحف عن وظيفة مضيفة، وبادرت بمراسلة الشركة وتقديم أوراقي دون حتى علمي،، أتذكر حين رفعت السماعة تحدثت معي سيدة بلكنة بريطانية، فهمت منها أنني على موعد لخوض اختبار المضيفات في أحد فنادق القاهرة، سعدت جدًا رغم عدم تشجيع والدي لي والذي لم يتوقع أن أنجح في الاختبارات لذلك لم يناقشني كثيرًا وقتها ولكني آثرت أن أخوض التجربة حتى النهاية.

بدأت أستعد للمقابلة التي لم تكُن سهلة بالمرة، حاولت النوم ولكني لم أستطِع، أسئلة وأفكار كثيرة تعصف بذهني، في الصباح الباكر، كنت أول من استيقظ في المنزل، كدت أصرخ لأوقظ الجميع معلنة أنه يوم الاختبار، استيقظوا جميعًا وادعوا لي، أعدت أمي كوب الشاي بالحليب لي واضعة معه في الصحن ساندويتش جبنة بيضاء، كان هذا إفطاري المعتاد منذ فترة طويلة.

اليوم يجب أن أتجنب أي شيء من الممكن أن يحرجني، التهمت لقيمات صغيرة من الخبز واحتسيت الشاي بالحليب على عجل، ثم استسلمت لشلال المياه الساخنة التي غمرتني بشدة، تاركة إياها تزيل عن رأسي أفكاري التشاؤمية، ارتديت ملابسي المكونة من جيب على الركبة زرقاء اللون وجاكيت من نفس اللون يكشف عن بلوزة بيضاء حريرية، كنت أحب هذا الطقم جدًا، لقبته بطقم المقابلات، لما له من طلة تليق بالمقابلات الرسمية، مر

عليَّ خالي كي يوصلني للفندق كما وعدني، كنت قد تهيأت ووضعت القليل من الحمرة فأنا لست من محبي الميك آب وأجد نفسي أجمل بدونه، نظرت في المرآة وتفحصتني بدقة.. لأول مرة ألاحظ وجود شامة على خدي الأيمن، كثيرًا ما شبهوني بالفنانة نعيمة عاكف وكنت لا أرى أي تشابه بيننا ولكني في تلك اللحظة لاحظت مدى التشابه، كنت طويلة مثلها ممشوقة الجسد، شعري بني غامق وعيوني أيضا بنية، ينعتوني بالجميلة رغم أنني لا أرى نفسي من الجميلات ولكن في تلك اللحظة شعرت أنني مليحة أو أردت أن أصدق هذا لأشجع نفسي على الذهاب بثقة رغم شعوري بالارتباك.

عند مدخل الفندق تركت خالي مبتسمًا يدعو لي بالتوفيق، سألني موظف الاستقبال مستفسرًا، هل أنت هنا لمقابلات الضيافة، أجبته بإماءة من رأسي، رسم ابتسامة على وجهه وأشار بيده ليرشدني إلى القاعة المنشودة، بداخل القاعة تواجد المئات مثلي منتشرين هنا وهناك، على شكل مجموعات أشبه بطبقات المجتمع المختلفة، وجدت المنفتحين سواء بملابسهم أو بطريقة تعاملهم؛ حيث الضحك والتدخين والتعالي في الحديث، والتباهي بأكاذيب وحقائق في محاولة لإثبات أنهم الأفضل هكذا صوَّرهم مخرجو الأفلام، ومن جهة أخرى وجدت المحافظين وقد بدت عليهم مظاهر الثقافة؛ حيث كان النقاش عن أفضل شركات الطيران وعن شروط العمل بالخليج، وعن قانون الكفالة وغيرها، لم أكُن بعد ملمة بمجريات الأمور في الخليج؛ كي أتوغل في قوانين العمل هناك، وجدت البسطاء الساعين لأجل تحقيق حلم راودهم رغم تواضع حالهم مثلي، كنت أنا معهم بسيطة من البسطاء.

بدأت الاختبارات التحريرية المتعارف عليها لتحديد مستوى المتقدمين لغويًا، تبعها الوقوف أمام اللجنة لتقييم المظهر وقياس الطول والوزن، نعم الطول والوزن مهم جدًا قبل أن تلتحق بالعمل، ولكن مَن سافر يجد مضيفات بأحجام ضخمة في الطائرة، أليس هذا يحدث في كل شيء؟! حتى في الزواج نجد الزوجة والزوج في فترة الخطوبة (الاختبار) في أحسن حال، وما إن تقع الفأس في الرأس تجد الزوجة وقد تكنزت، وأصبحت كما يطلق عليهن الآن «كيرفي»، مصطلح يخفف من حجم المعاناة، وتجد الزوج وكأنه ابتلع كرة قدم، حيث انتفخ الكرش وسقط الشعر، إنه التحول الذي يحدث من مرحلة السعي للشيء إلى التمكن منه.

بعد قياس الطول والوزن تم تقسيمنا إلى مجموعات، ثم بدأنا التنافس في مسابقات مختلفة الهدف منها معرفة المهارات الشخصية للمتقدمين سواء في التعامل مع الآخر أو في طريقة عرض الأفكار والقدرة على العمل كفريق والمشاركة الفعالة وبناء عليه تم اختيار بعض منا لاستكمال الاختبارات وطلب من الباقين الرحيل لعدم قدرتهم على إظهار الكفاءة المطلوبة

أنهينا الاختبار بمقابلات شخصية مع سيدة بريطانية بدت لطيفة، حيث قامت بطرح أسئلة عامة لمعرفة الحالة النفسية للمتقدم، كانت تلك المقابلة هي الأطول، جلست نصف ساعة مع تلك السيدة التي أنهت مقابلتي بابتسامة ثم سلمتني بعض الأوراق قائلة:

- مبروك عزيزتي لقد اجتزتِ الاختبار.

طِرتُ من الفرحة، ليس فقط لاجتيازي الاختبار، ولكن لأني استطعت أن أنفذ ما أردته، في معظم مجتمعاتنا العربية نظل نحن الفتيات نعاني من كم الممنوعات والمحظورات والقوانين التي فرضها علينا المجتمع، فنحن الفتيات نعاني من ضغط العائلة والشارع والفكر المجتمعي المريض ونحاول بجسارة أن نتخطى كل ذلك ونثبت أننا قادرات على تحقيق أحلامنا مهما عظمت العوائق.

فكرت في رد فعل أبي وأمي هل لو قُدر لي السفر سيباركون لي اختياري أم سيصبون عليَّ لعناتهم ويزيدون من خنقة السوار حول رقبتي، لكنني لم أفكر كثيرًا، قررت أن أقاوم لآخر نفس وأن أحارب كل تلك العادات والأفكار التي تتمثل في العيب وكلام الناس، نعم مجتمعنا يرفض فكرة سفر الفتاة وحدها ما بالكم بالسفر لبلد آخر والعيش وحدي ولكني كنت من هؤلاء الفتيات المحاربات، لم يكن سهلًا إقناع والدي بسفري والعمل بالضيافة وحدي، ولكني استخدمت كل الطرق لإقناعه، تناقشنا كثيرًا وطلبت من أقاربنا أن يقنعوه ومن والدتي أن تدعمني، كما أن بكائي وإصراري كانوا من أهم أسلحتي التي ساعدتني على عدم التنازل عن حقي في الاختيار، حتى وإن بدا اختياري خطأ سأتحمل عواقبه وأنا سعيدة.

* * *

انتبهت للمضيفة وهي تسألني عن مشروبي، لم أسمع اللهجة المغاربية من قبل، لهجة بدت لي قاسية نوعًا ما، ينطقون الحروف بقوة، قد نبدو نحن «المصاروة» كما يطلقون علينا في الخليج رقيقين جدًا بلهجتنا...

كانت مليحة الوجه مثل الكثيرات من المغرب، لم أكن أعلم أن أقرب صديقاتي ستكون من تلك البلدة، طلبت عصير تفاح، أعطتني إياه ومعه كيس من البسكويت الصغير جدا تناولتهما معا، بجواري كانت «نغم» و«رانيا»، نحن الثلاثة تم اختيارنا لننضم لطاقم الطيران، نغم كانت بسيطة وهادئة جدًا، قاهرية من أسرة صغيرة كانت هي الوحيدة لأبويها، لطالما تعجبت كيف تركاها تسافر، أعلم جيدًا كيف يكون الآباء محاصرين ومقيدين لطفلهم الوحيد، لكني كنت سعيدة بمعرفتها، فلقد أتممنا كشوفنا الطبية معا وتعرفت على والدتها التي أوصتني مرارًا على نغم، أحببت والدتها فطيبتها واهتمامها شملني أيضًا، أما رانيا فكانت من الإسكندرية، من الصعب قراءتها لكن من السهل تحديد أنها تتمتع بخبث كبير.

سمعت الكابتن يرحب بنا عبر السماعات، ويخبرنا ببعض المعلومات عن الرحلة، حينها ارتجف قلبي وتساءلت: ترى هل سأحب طيارًا كما يحدث في الأفلام؟ هل سأكون مديحة كامل في فيلم (بريق عينيك) وسأقع في غرام نور الشريف.

«نرجو من حضراتكم العودة إلى مقاعدكم مع ربط أحزمة المقاعد استعدادًا للهبوط»

عند الإعلان عن الهبوط مرت علينا المضيفات للتأكد من ربط الأحزمة ووضع الحقائب في أماكنها، وجدت كثيرًا من الركاب يمتنعون عن وضع الحقائب في أماكنها المخصصة، حقيقة شيء مزعج أن تظل المضيفة تشرح للركاب كل على حدة عن أهمية السلامة العامة وتطبيق الإرشادات.

جلست المضيفة في كرسي مقابل لي، وقد بدا عليها التعب والإرهاق، ورغم ذلك رسمت تلك الابتسامة الصفراء على وجهها، لماذا اختاروا اللون الأصفر للتعبير عن الابتسامة القاحلة رغم أنه مبهج؟ لماذا لم يقولوا الابتسامة البُني؟ مثلًا فيها من القتامة ما يدل على التصنع.. كم أشفق عليها وعلى نفسي، فأنا لست أجيد التصنع في أي شيء حتى في وضع الميك آب أداة التصنع الأسهل.

(٢) أول يوم

وصلنا إلى الدوحة؛ حيث استقبلتنا في المطار «ماريا».. سيدة اسكتلندية بابتسامة باردة، اصطحبتنا إلى مول صغير لنتبضع ولإجراء اتصالات هاتفية بذوينا لطمأنتهم، لم يكن معنا الموبايل وقتها.. حيث لم يكن يقتنيه إلا المرفهون جدًا، هل لكم أن تتخيلوا الحياة بدون هذا الجهاز الصغير حجمه العظيمة منافعه؟

في المول اقترب منا زوجان لم يرزقهما رب العالمين بأطفال، علمت ذلك لاحقًا، بادرا بالحديث معنا وانتهى الحديث بدعوة لتناول العشاء، وبالفعل كانت أول خطوة لبناء علاقة أبوية جميلة بيننا، ومن حسن الحظ أن منزلهما مجاور لسكن المضيفات الخاص بنا، هما في حاجة لنا على قدر حاجتنا لهما، أعتقد عندما نعيش محنة ما يُرسل لنا رب العالمين مَن يخفف عنا ويساعدنا على اجتيازها، لذلك أعتقد أن وجودهما هناك لم يكن صدفة.

عند عودتنا قررنا نقل أَسّرة الفتيات إلي غرفتي بما أنها الأكبر، والنوم فيها معًا؛ للتغلب على شعور الخوف الذي تملكنا جميعًا، خاصة أنها الليلة الأولى بعيدًا عن الحضن الآمن ودفء الأسرة، كانت تلك فكرتي وقد دفعت ثمنها لاحقًا، كم كنت ساذجة في الوثوق بالناس بهذه السرعة، لكن أعتقد أنه القدر الذي جمعني بهم، فلقد كُتب علينا معاشرة أُناس جدد نتعلم منهم ونتعلم فيهم أيضًا، كيف لنا أن نقرأ الأشخاص ونفهم معادنهم سوى بالعِشرة!

لا أعلم هل نحن مخيرون؟! لم أُخيَّر في تكوين شخصيتي ولا خُيِّرت في المجيء للدنيا من عدمه ولا حتى خُيرت فيمن يهواهُ قلبي ولا من أُشفق عليه من قسوتي، هل خُير الشيطان في التوبة؟! هل كان مقدرًا لي السفر أم أنه اختياري؟ هل اخترت تلك الفتيات لأسكن معهن وأعاشرهن أم أنه قدر مكتوب؟

أرى الدنيا وتجاربنا فيها كأنها عمل فني ونحن نؤدي أدوارنا فيها و كل منا بطل قصته، لم يكن البطل متحكمًا في قصة الفيلم، فالسيناريو معد سابقًا وموقع التصوير محدد، حتى الكومبارس تم اختيارهم قبل بدء التصوير.

«الدنيا مسرح كبير، وكل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون على هذا المسرح».**وليم شكسبير**

يقول البعض إننا نصنع أقدارنا بأنفسنا، علينا فقط أن نتفاعل ونفكر دائمًا في أسباب النجاح، لذلك سأحرص دائمًا على أن تكون مشاعري إيجابية، لعلها تجلب المزيد من الأشياء الجيدة لحياتي، وبناء عليه قررت أن أستمتع بكل لحظة مقدرة لي حتى وإن بدت صعبة.

قليل من النوم وكثير من الأفكار، هكذا بدأت يومي.

تُرى كيف ستكون حياتي هنا؟

* * *

(٣) «لقد أرجلت يا أمي»

البدايات دائمًا هي الأجمل، مشوقة وممتعة ومثيرة، كما أنها تظل راسخة في ذاكرتنا ما حيينا بتفاصيلها الدقيقة، مثل قصص الحب الجميلة وبدايتها المحفورة في قلوبنا، وتلك الابتسامة التي تحتل شفاهنا ونحن نسترجع لحظات الحب الأولى بحلاوتها ونغماتها.

بداية شروق الشمس حين ترسل أشعتها تغازل هذا الكون فتبعث فينا حب الحياة، الحياة التي تدب في رحم الأم فتشعر بهذا النهر العذب يتدفق داخلها.. إنها البهجة الخالصة.

بدأت يومي بالصلاة وإعداد فطور بسيط لي ولزميلات السكن، تناولنا ساندويتشات الجبن الرومي التي من الضروري أن تجدها في كل بيت مصري، أتذكر عندما كنت أضعها في رغيف عيش بلدي وأتركها تذوب على نار هادئة وأتلذذ بتناولها مع كوب شاي بالنعناع؛ لذلك قررت أن نبدأ يومنا بنكهة محببة لي.

كان بانتظارنا الباص الخاص بالشركة الذي مر على عدة مبانٍ تقطن بها مضيفات جدد مثلنا، انضم لنا ثلاث فتيات سوريات جميلات (صبا ولينا وبشرى)، كانت بداية تعارفنا.

كنت أعتقد أن المصريين فقط يتمتعون بخفة الدم كما نردد نحن المصريين، ولكني اكتشفت أنها أكذوبة مثل كثير من الأكاذيب التي يروجها إعلامنا ويصدقها الكثير، تحدثنا عن مصر وسوريا، حينها ساقنا الحنين للوطن، وبدأنا

بغناء «حلوة يا بلدي» لطالما عشقت تلك الأغنية، رغم أن بلدي فقدت جمالها من زمان.

دلفنا إلى برج كبير حيث أرشدتنا ماريا التي كانت بانتظارنا، ووجهتنا لإحدى الغرف وطلبت منا الانتظار فيها، بالداخل كان هناك ٨ فتيات من الهند يرتدين الساري الجميل، بادرت بالسلام عليهن، وكانت تلك بداية ممارستي للغة الإنجليزية على مدار اليوم.

قد يبدو صعبًا أن نتحدث لغة أجنبية طيلة الوقت، وفعلًا كنت أجد نفسي أركز بشدة لاختيار الكلمات المناسبة للتحدث معهن، ولكن مع مرور الوقت أصبحت عفوية، تمامًا مثل علاقتنا بأي شيء جديد، في البداية نهتم به كثيرًا، وبعد التعود عليه نجد أنفسنا قد فقدنا ذلك الشغف والاهتمام به.

بعد أن دلفنا إلى الغرفة بلحظات دخل شاب وسيم يشبه نجوم الأفلام الهندية، عرفنا بنفسه :

- أنا ساليا من سيريلانكا وسأكون مدربكم لمدة شهر، ستكون هناك اختبارات عدة، ومن لم يقُم باجتيازها سيعود لبلدته.

أوليس اختبار الغربة والوحدة بكافٍ؟!.. يا لها من بداية مشجعة!!

بعد التعارف وأثناء الاستراحة اعترفت للفتيات الهنديات بإعجابي بالأفلام الهندية التي شاهدتها مؤخرًا، حتى الفتيات السوريات أبدين إعجابهن بتلك الأفلام وبدأنا جميعًا بدندنة إحدى الأغنيات الهندية المعروفة التي تقول «أوه ميري محبوبة، محبوبة، محبوبة»، والابتسامة مرسومة على وجوهنا

جميعًا وكانت هذه هي الطريقة المثلى لإذابة الجليد وبداية صداقة من نوع فريد.

قام ساليا بتوزيع جدول التدريب علينا وتقسيمنا لمجموعتين؛ مجموعة تبدأ بالتدريب على الأمن والسلامة وأخرى على خدمة متميزة للعملاء (الركاب)، حمدت الله أنه تم وضعي أنا ولينا في نفس المجموعة، لا أعلم لماذا، ولكن إنه شعور الارتياح غير المبرر لأشخاص بعينهم.

بعد مرور إسبوعين وفي أخر يوم تدريب على الضيافة أصرت لينا على أن تعد لنا طبقًا من المطبخ السوري، صراحة كنت في شوق لتجربة شيء جديد، ولتقوية صداقتي بها، توجهنا جميعًا لسكنهن، بادرت بشرى بإعداد التبولة، وقامت لينا بإعداد «كفتة حلبي»، كنت شغوفة بتعلم كيفية صنع الكفتة والتبولة؛ حيث إنني وقتها كانت أقصى إنجازاتي هي ساندويتشات برجر بالجبنة.

بعد أن انتهينا من الغذاء الذي استمتعت به، شممت رائحة شيء يحترق وبدأت في السعال، ناولتني بشرى منديلًا معطرًا قائلة: من هلا وبتكحي، طيب كيف راح تأرجلي؟

كانت بدايتي مع الشيشة، لم أكن من هواة التدخين ولكن الفضول دفعني لتجربة الأرجيلة، ما أطيب رائحتها ولكني ما إن سحبت ذلك النفس حتى شعرت أنني في النزع الأخير، لم أستطِع البقاء جالسة، سقطت على الأرض من كثرة السعال والضحك في نفس الوقت، لم أستطِع أن أواجه والدتي

بفعلتي تلك ولكني أتخيل ردة فعلها الآن بعد أن تعلم.. نعم.. لقد أرجلت يا أمي.

انتهى اليوم بإحساس جميل يداعب قلوبنا المتلهفة على بناء صداقات تقينا من مر الوحدة، يوم واحد كسر الرهبة في قلبي، كانت بداية مبهجة ومشوقة.. هناك من يقول إن البدايات هي عبارة عن نهايات مستمرة، وآخرون قالوا إن البدايات لا تظهر الحقائق إنها فقط القشور.

و أقول أنا : ليت حياتنا كلها بدايات.

(٤) لو كان الخوفُ رجلًا.. لقتلته

قضينا شهرًا في التدريب على إجراءات الأمن والسلامة والإسعافات الأولية وبعد أن أتتمنا كل التدريبات أخبرنا مدربنا بأن علينا السفر لدبي لاجتياز الاختبار والحصول على رخصة الطيران الدولية، أثناء حديثه التفت وأشار إلى لوحة مُعلقة خلفه وهو مبتسم ابتسامة شيطانية..

اللوحة مرسوم بها طائرة تغرق وسمك القرش بالأسفل في انتظار الضحايا، وكأنه يتنبأُ لنا بهذه النهاية، كان من الأشخاص الذين يمتصون منك طاقتك الإيجابية ويبث في روحك الشعور بالضيق والاختناق.

كم كرهت محاولاته لزرع الخوف داخلنا من فكرة الفشل والعودة لبلادنا، ومن فكرة السقوط في المحيط ومواجهة أسوأ مخاوفنا التي كنت أستشعرها كلما نظرت لتلك اللوحة التي ذكرتني بفيلم (open water) إنه الكابوس اللعين الذي ظل يراودني طوال سنين عملي وأسوأ مخاوفي.

ينصحُ الكثير من أطباء علم النفس بأن نواجه مخاوفنا ومعالجة أنفسنا من الرهاب من أشياء قد تكون غير حقيقية.

عن الخوف كتب أرسطو: "الخوفُ ألمٌ نابعٌ من توقعِ الشر".

في الظلام أيضا أشعر باختناقٍ شديد يملأ صدري وكأن هناك مَنْ يسحب مني شريان الحياة وينزعه مني نزعًا، إنه الخوف من الظلام، الخوف بشتى أشكاله الذي يتملكنا جميعًا، الخوف من المجهول ومن أن نبدأ حياة جديدة، الخوف

من الفقد، الخوف من أن ننهي علاقة فاشلة ومن الدخول في علاقة جديدة، الخوف على الرزق والحبيب والأهل والوطن، الخوف من المرض والشيخوخة وظلمة القبر.. الخوف من اللّٰه.

الخوف الذي جعلني أعتاد النوم تاركةً باب غرفتي مفتوحًا في محاولة للشعور بالأنس والذي كان سببًا في كشف رفيقة سكني على حقيقتها عندما لمحتها في إحدى الليالي وهي تعيد كارت البنك الخاص بي في درج الكوميدينو بجوار سريري حيث كنت أحفظه هناك ومعه الرقم السري، بعدها ذهبت لأتفقد حسابي وتأكدت أنها سحبت منه ١٠٠٠ ﷼، لم أواجهها وقررت أن أعطيها فرصة أو يجوز لأني لأول مرة أقع في موقف كهذا فآثرت تجاهله.. عدم الخبرة يجعلنا نُخطئ في حق أنفسنا أحيانًا. ، للأسف ثقتي كانت بغير محلها، والدرس الأول لي في الغربة "ألا أثق بأحد".

كنت أعالج نفسي الخائفة بتشتيت أفكاري سواء بالحديث مع لينا عن خطيبها المولع حبًا بها أو بدندنة بعض الأغاني المحببة لقلبي، كم كنت أحسد لينا على تلك العلاقة الجميلة التي كنت أشاهدها في الأفلام فقط، كم من مرة ذكرت لها ذلك وكانت تستقبل كلامي بابتسامة جميلة وبدعوة لي أن أعيش تلك الحالة من الهُيام.

هي الأخرى كانت دائمًا خائفة من أن تفقد حب خطيبها لها بسبب البعد ومرددةً: "البعيد عن العين بعيد عن القلب"، البعد قادر على أن يقتل إحساس الحب والشوق، كم من قصص حب انتهت بسبب البعد، كان الخوف من خسارة حبيبها يدفعها لمحادثته يوميًا صباحًا ومساءً، وكانت متعتي الاستماع لحوارهما الجميل باللكنة السورية الرقيقة.

في طريقنا لدبي وبعد صعودنا الطائرة، التفت لنا مدربنا قائلًا: أريد منكن ملاحظة طاقم الضيافة وهن يقمن بتأمين الطائرة وتقديم الوجبات، أريد منكن تقييمهن.

طاقم الضيافة كان مهتمًا جدًا بنا وبتقديم شتى الخدمات، ولكني لاحظت تلك الابتسامة الصفراء على وجوههن ونظرة مرتعشة في عيونهن، إنه الخوف، الخوف من مدربنا الذي يشكل لهن مصدر تهديد، فهو يراقبهن مثلما يراقب الصقر ضحيته، وكأنه يتلهف للانقضاض عليهن، للأسف تمتلئ الشركات والمؤسسات بتلك الشخصيات القاتلة للروح، التي تسحب منك كل طاقتك الإيجابية وتحولك لكائن ميت تقوم بكل شيء دون متعة، شخص تعيس خائف من فقدان مصدر الرزق.

وصلنا لمبنى الطيران وبدأنا الاختبار بركوب طائرة "سيميليتور" مثل ألعاب ٣D، حيث ظهر فجأة دخان كثيف والكل صرخ من الخوف وقف المدرب وبدأ في توضيح كيفية التحرك في وجود دخان والتنفس من خلال ملابسنا وكيفية فتح الباب في حالة الطوارئ وإخراج الركاب ومحاولة إنقاذهم جميعًا.

شعرت بالاختناق الشديد وخُيّل لي أني سمعت دقات قلبي، تملكني الخوف بشدة، كانت حركة الطائرة كأنها حقيقية والأفكار كلها في عقلي تدور حول ماذا لو حدث هذا بالفعل!

بالتأكيد لن أستطيع التحرك من مكاني، لن أتذكر كل تلك التعليمات ولن أهتم حتى بتذكرها، عندما يكون الخوف هو سيد الموقف لا تسألني ماذا سأفعل،

الخوف يشلّ تفكيرنا ونتصرف دون وعي في محاولة للبقاء حتى لو على حساب الآخرين، "ومن الخوف ما قتل".

بعد عودتنا للمنزل فاجأتني "نغم" بقرار عودتها إلى مصر، لم تستطع نغم التغلب على شعور الوحشة والوحدة، خوفها من البعد والوحدة أثر على حالتها النفسية، لم تكن سعيدة ولم تشاطرنا لحظات جنوننا، كانت منزوية دائمًا وكنت أخشى أن أُثقل عليها باقتحامي خلوتها، لكن من الواضح أنها كانت تحت تأثير الخوف الذي جعلها تدرك أن الحياة أقصر من أن نعيشها بعيدين عن أحبائنا، آثرت العودة للحضن الآمن الذي يقيها من الشعور بالخوف من الغد ومن المجهول.

خلال شهر كانت نغم قد رحلت ووصلت رفيقةُ السكن الجديدة "حفصة" من المغرب، كنت متشوقة لمقابلتها، لم تكن الغربة أثرت في بعد، ولكن الوحدة ملأت صدري فأيقنت أنه من الصعب الشعور بذلك الدفء الأسري مرة أخرى، ولكن ممكن أن نتعايش في وجود أرواح نتآلف معها.

أتذكر بداية تعلمها اللهجة المصرية وكيف كانت تصمت لبرهة أثناء حديثنا حتى تستطيع تكوين جملة كاملة باللهجة المصرية، كانت تفهم نكاتي وتضحك عليها وكنت أحاول جاهدة فهم لهجتها المغربية، حتى أصبحت أجيد الهدرة المغربية.

وأتذكر أيضا يوم أن أخذتني معها لمقهى الإنترنت وعلمتني كيفية إنشاء حساب إلكتروني، نعم كانت هي معلمتي التي لن أنسى فضلها علي، تجربة جميلة محفورة في قلبي وذاكرتي بمواقف كثيرة مررنا بها، عادة تنتهي

بضحك هستيري وتناول قطعة من الكنافة النابلسي تلك الحلوى الشامية التي أهواها، كم أشتهيها الآن مع "كاسة" شاي وجلسة من جلساتنا الممتعة.

لم أجد صعوبة في بناء علاقة صداقة قوية معها أعتز بها حتى الآن، كانت أرواحنا متشابهة، فالعيب عندنا واحد والمسموح معروف حدوده، نحب الموسيقى ونتعبد خاشعين في بيت اللّه، هي سبب حبي للمطبخ المغربي.

كانت حفصة مختلفة عن الفتيات المغربيات حتى في أحلامها، فمعظمهن يأتين للخليج على أمل اصطياد عريس يغمرها بماله، ولكن حفصة كان هدفها الهجرة لكندا واستكمال دراستها هناك وكان عليها توفير مبلغ كبير من المال حتى يتسنى لها الحصول على التأشيرة.

كانت رحلة التدريب الأولى إلى لاهور، والتي تعد ثاني أكبر المدن في باكستان، المسافرون من تلك البلدة عادة مسالمون ومهذبون، معظمهم من طبقة العمال الكادحة التي تظهر في قسمات وجوههم الطيبة والسماحة، والفقر..أكثر ما أثّر في سلبا هي نظرة بعض الزملاء لهم، كانت نظرة تعالٍ ودونية تلك النظرة التي لا أطيقها، وطريقة وضع الطعام أمام الراكب دون خيارات وكأنه مجبر على قبول أي شيء يوضع أمامه، بالإضافة إلى النكات السخيفة عن رائحتهم وطريقة أكلهم،تحدثت مع مشرفة الرحلة عن عدم تقبلي لتلك الطريقة، أجابتني مبتسمة، بأنها رحلتي الأولى، وأنه مع الوقت وكثرة الرحلات والتجارب ستختلف نظرتي لاحقا وقد أفعل مثلهم، هي مسألة وقت فقط.. تمنيت ألا تختلف نظرتي قط.

في الرحلة الأولى يُسمح لنا بالجلوس في كابينة القيادة، احتفاء بنا على متن الطائرة، وكانت من أروع التجارب، دلفت داخل الكابينة، استقبلني الكابتن بكوب صغير من المكسرات التي يتم تقديمها لهم بين حين وآخر، روحه الجميلة جعلت تجربتي الأولى في الطيران لا تنسى.

أقلعت الطائرة، وبدأ قلبي ينبض بسرعة، إنها رهبة التجربة الأولى، وجدت نفسي أحلّق بين السحب، حاولت أسترق السمع لعلي أسمع دعوات الآملين والتائبين، ولكنني سمعتُ لحنًا جميلًا عزفته دقات قلبي فرحًا ورهبةً في آن واحد... هنا ترتفع الأدعية، وهنا حلقت ولامست أحد أحلامي.

هل سأشعر بنفس الرهبة مرة أخرى أم للتجربة الأولى سحرها!.

* * *

(٥) ملكة جمال

استعددت للرحلة الثانية والأخيرة في جدول التدريب، تلك الرحلات مهمة جدًا للتطبيق العملي، فما علينا سوى الملاحظة وتدوين ملاحظات للاستفسار عما لا نعلمه، كانت وجهتي لمدينة بيشاور الباكستانية، كنت أتطلع للذهاب لمكان مختلف، ولكن هكذا شاء مدربنا.

مشرف الرحلة "لوك" من باكستان، بدا لطيفًا، ولكن لم أشعر بالراحة تجاهه، كان يضع وجه "الجوكر" حيث لا تستطيع قراءة روحه.. خلال الرحلة وجدت منه أسلوبًا غليظًا، استغل عدم خبرتي وأرغمني على القيام بمهمات ليست من واجباتي، متعمدًا اضطهادي ووضعي تحت ضغط نفسي شديد، لم يثُقل على أحد غيري كنت أنا المستضعفة، كم أكره هذا الشعور.

عند عودتي بكيت بمرارة وقررت ألا أسمح لأحد أن يضعني تحت ضغط يقتل فيه روحي مرة أخرى، كنت محتارة هل المواجهة هي الحل أم الهروب بعيدًا عن تلك الأنفس المريضة في محاولة للحفاظ على نقاء أرواحنا! ولكن هل سنهرب عند كل محنة نصادفها؟!

كان توفيق الحكيم يقول : "العالم مكان خطر للعيش فيه ليس لوجود الأشرار، بل لأن الآخرين لا يفعلون شيئًا حول ذلك"

لن أترك الآخرين يمارسون أمراضهم النفسية بحرية.. تقدمت بشكوى ضد "لوك"، شعرت بالرضا حين دعاني مدير قسم الإدارة لمكتبه ووجدت هناك "لوك" منكسرًا، يعتذر لي عما بدر منه، وكأنه عصفور مسكين لا يقوى على

حمل جناحه، إنه فن التمثيل الذي يتقنه الكثيرون، لم أقبل اعتذاره ولم أستطِع حتى أن أتظاهر بذلك، لا أملك تلك الموهبة التي مكنّت الكثير من الوصول لأهدافهم.

كلما نظرتُ حولي وجدتُ الكثير من الفشل المتوج بنجاح ظاهري، أعتقد السبب هو الأنفس المريضة التي آثرت أن تمثل السعادة بدلًا من أن تعيشها، مثل زيجات كثيرة بائسة حتى النخاع، بدأت بصفقة وانتهت بخيبة واستمرارية للبؤس المبرر.

أصبحت إجادة التمثيل فنًا يُجنّبك مواقف صعبة مثل اتخاذ قرارات مصيرية وإنهاء علاقات بائسة خوفًا من البقاء وحيدًا، ومن أن تظهر فاشلًا أمام الآخرين، أعتقد سبب عنوستي ووحدتي هو عدم قدرتي على التصنع أو على التنازل، لم أتعلم الانحناء عند مرور العاصفة رُغم أنه من الذكاء تفاديها، ولكنني من الأغبياء الذين يسعون للحب الصادق والسعادة الحقيقية والأرواح النقية ومواجهة العاصفة.

انتقلت حفصة للسكن مع فتيات مغربيات من بلدتها بعد مشاكل عدة مع رفيقتنا السارقة، ولكن صداقتنا صمدت، فلم يمر يوم من دون أن ألقاها ونتحدث في كل شيء وأي شيء… وبعدها بفترة قصيرة رحلت تلك السارقة حاملة معها أمراضها لتمارسها على مثيلاتها، حمدت الله كثيرًا وشعرت بأن السكن أصبح بيتي وحدي.

في غضون أيام قليلة انتقلت للإقامة معي فتاة تدعى "آبي".. كانت ملكة جمال الفلبين سابقًا، وكانت جميلة قلبًا وقالبًا، رغم التباعد الجغرافي فإننا

تآلفنا سريعًا، كنت سعيدة بصداقتها ولم أبالِ بنظرات العرب الذين يرون الآسيويات كخادمات فقط، خاصة عندما كنا نخطط للتنزه سويا في المول أو تناول الغذاء في مطعم ما، كنت ألاحظ نظرات التعجب وأتجاهلها، البشر في العموم متعصبون لجذورهم التي لم يسعوا للحصول عليها ولم تكن أبدًا شيئًا يدعو للافتخار، يجب أن يفخر الشخص بشيء أنجزه وليس بشيء خلق ووجده مثل الجنس والبلد والتاريخ الذي لم يصنعه.

كانت "آبي" حزينة وتعيسة بسبب حبيبها الذي لم يتوانَ عن خيانتها طيلة الوقت، كانت تذهب في إجازة قصيرة لتجده بين أحضان غيرها وتعود منكسرة، ثم يلح عليها أن تسامحه ويعدها بعدم تكرار خيانتها وللأسف كانت تصدقه.

إنها النفس وما تهوى، كان يتفنن في إيذاء مشاعرها ويستأسد عليها وكانت ضعيفة واهنة، شعرت بالغضب من أجلها، كانت في حاجة لمن يساندها للتخلص من سموم حبيبها التي انتشرت في عروقها فساندتها وشجعتها على تركه، عندما تمكنت من الإقلاع عن حبه، حينها بدأ هو في مطاردتها، إنها النفس التي لا تعرف قيمة الأشياء إلا عند خسارتها.

تعرفت "آبي" على عسكري أميركي يعمل في القاعدة الأميركية (حلم كل فتاة فلبينية)، ولكن لم يكن حلمها.. تزوجته بعد فترة قصيرة من تعارفهما ثم رحلت معه إلى بلاد العم سام، أعتقد أنها كانت تهرب من تلك الآلام التي تعتصر قلبها بأحجار الألماس التي كان يُمطرها بها زوجها.

النفسُ البشرية معقدةٌ أكثر من تعقيد الأسلاك في محطة كهرباء؛ لذلك مهما تخيلنا أننا نفهم شخصًا ما، لا بد أنه سيبهرنا بما لا نعرفه يومًا ما مهما طالت السنين.

أحيانًا كثيرة نشعر بعدم ارتياح، ولكن لا نملك سببًا واضحًا فنتجاهل شعورنا رُغم أنه في أغلب الوقت يكون صادقًا، الأهم من اكتشاف بواطن الأمور هو كيفية التعامل معها، وعدم الانزلاق في طريق نستنزف فيه طاقتنا ومشاعرنا، وأن نكون قادرين على تحصين أنفُسنا من السقوط في بؤرة فقدان الثقة، التي أعتقد أنني عالقة بها.

عندما انتهيت من كتابة السطور السابقة التي تحدثت فيها عن "آبي"، تفحصت صفحتي على الفيسبوك، وإذا بي أجدُ طلب صداقة، صورة لفتاة تبدو آسيوية، ضغطت على الصورة وتوالت الذكريات تمر أمام عيني، إنها آبي، يا إلهي ما هذا الهاتف الروحي الذي كان يتراقص فوق كلماتي، وحمل لها محبتي؛ مما جعلها تبحث عني وتجدني وتطلب الوصال، أو لعلها بادرت في البحث عني، وشعرت روحي بذلك فحثتني بالكتابة عنها....

كما توقعت وجدتها تركت زوجها الأمريكي ووقعت في غرام رجل آخر ورزقت بطفلين وأصبحت تمتلك عيادة طبية للتجميل، طبيعي ملكة جمال تفتح مركز تجميل، سعدت لها كثيرًا ووعدتها بزيارتها يومًا ما، وظللت أفكر في كيفية تواصل الأرواح.

كم من مرة نختلي بأنفسنا لنتذكر لحظات من عمر فات مع أشخاص كانوا في حياتنا يومًا ما، وإذ فجأة نجد منهم رسالة، هي رسالة من الله أيضًا؛ كي

نتيقن أننا لم ولن نعرف خبايا الروح وقدرتها على التواصل، لن ندرك السر الخفي الذي يتحكم في مشاعرنا وذكرياتنا وأرواحنا، اليقين الوحيد هو أن للأرواح أسرارًا تخترق البحار وتعبر القارات وتسري في أعماق قلوبنا؛ لتجعلها تنبض بحنين لتلك الذكريات.

(٧) شبح الموت

عقارب الساعة هي عدوي اللدود، أراها تتحرك بانتظام معلنة انقضاء سويعات عمري التي لا أستطيع بأي طريقة أن أجعلها تسكن للحظات وأظل في حيرة من أمري، هل حققت ما كنت أتمناه أم ما زالت لدي أحلام أسعى لتحقيقها؟

إنها الرحلة الأولى لي رسميًا بعد انتهاء التدريب تمنيت أن تصبح تلك الرحلة تجربة شيقة تثمر في ذاكرتي برائحة السعادة، لتطغى على العطب الذي أصابني سابقًا.

في المبنى الفني يوجد مسؤولو قسم التبرج والتزين؛ حيث يتم فحص مظهرنا الخارجي وتحديد هل نحن لائقون بالصعود على الطائرة أم لا وكثيرًا ما يتم استبعاد بعض الزملاء بسبب وجود جرح بسيط أو خدش ملحوظ، ويتم إعطاؤهم فرصة لتعديل شكل الجرح الذي يتم إخفاؤه تمامًا بمساحيق التجميل، أصبحت مساحيق التجميل تمنحنا فرص النجاح.

يبدو أن الأهم من خبراتنا العملية أن تكون لدينا الخبرة في التجمل فرصنا في النجاح أصبحت تكمن في مدى قدرتنا على التجمل وإخفاء حقيقتنا وقوتنا تكمن في سحر جمالنا المصطنع وليس أرواحنا النقية.. أتذكر أحمد زكي في أحد أفلامه، عندما قام بدور ابن "التربي" عندما اكتشفت حبيبته حقيقة والده وبرر لها ذلك قائلًا: "أنا لا أكذب ولكني أتجمل".

كان فريق العمل يشعون جمالًا حقيقيًا لمسته في ابتسامة آمال مشرفة الطاقم المغربية، وفي لمعة عين محمد الباكستاني زميلي في الدرجة السياحية، ومع اندماج الكابتن ومساعده معنا حين قررت آمال أن نحتسي كوب شاي قبل صعود الركاب، كانت فرصة مثلى للتعارف...

أخبرنا الكابتن عن مدى جمال الأردن، وددت أن أزورها يومًا، ولكن للأسف الرحلات القصيرة لا تعطينا فرصة استكشاف كثير من البلاد..

استعددنا لاستقبال الركاب الذين كان أغلبهم عربًا وقليل من سيريلانكا، وجدوا فرصًا للحياة بعيدًا عن أوطانهم.

وما الحياة سوى بحر فرص علينا أن نبحث عنها ونقتنصها.

بعد الإقلاع وبعد انتهائنا من تقديم وجبة الغذاء كنت على وشك الخروج من مطبخ الطائرة الخلفي حاملة براد الشاي، حينها بدأت يدي في الارتعاش وفي لحظات شعرت كما لو أني في لعبة قطار الموت الذي يسقط فجأة من أعلى ويسقط معه قلبي، مرت اللحظة بطيئة وكأنها لقطة من فيلم يعرض بالتصوير البطيء وسريعة في سرعة دقات الساعة المنتظمة، وجدت يد محمد تجذبني للمطبخ بقوة كي أجلس وأربط الحزام، ما زلت مذهولة لا أعلم ماذا يحدث حولي وصوت "آمال" عبر السماعات وهي تقول:

نرجو من الركاب العودة فورًا لمقاعدهم وربط الأحزمة..

لم أعد قادرة على تحمل صوت نبضات قلبي المزعجة التي أسمعها تتصارع مع صوت صراخ الناس حولي، بدأت الطائرة بالتخبط والهبوط فجأة...

لطالما تساءلت هل أنا مستعدة لملاقاة الرحمن؟! كيف سيلقاني ملك الموت وكيف سأستقبله؟ كيف سيكون شعوري حينها أم أن الإحساس ينعدم في حضرة الموت.. وقتها رجوت الرحمن أن يُمهلني فرصة ثانية، لم أكتفِ بعد من الدنيا، لم أعمل لذلك اليوم واللحظة، ولكن كيف لي أن أطلب فرصة أخرى وقد بدا شبح الموت أقرب لي من الحياة، ظللت أردد الشهادة ودموعي تنهمر لا أعلم هل كنت أبكي عمرًا انقضى أم فرصة في الحياة أتمناها.

في تلك اللحظات مر أمام عيني شريط حياتي القصير، شعرت باللوعة لعدم احتضاني أمي لفترة أطول ولعدم تقبيل يد أبي بما يكفي وعلى ضعف صلتي بالرحمن مهما حاولت الوصل، تحسرت على شبابي الذي لم أستمتع به وعلى قصة حب لم أعشها وذنوب ارتكبتها وصلاةٍ أغفلتها وكلمة طيبة استكثرتها.

أفقتُ من الصدمة على أصوات الركاب التي تحولت من صراخ لدعاءٍ وصلاة وترتيل للقرآن والإنجيل، رأيتُ الأم تحتضن طفلها بقوة تخبئه بين ضلوعها حتى لا يتمكن منه الموت، رأيت تلك الخادمات يخرجن صور أحبتهن ويقبلنها ويحتضنها كما لو كان الوداع الأخير وآخرين يناجون اللّٰه أن يمنحهم فرصة أخيرة.. رأيت محمد زميلي ينظر لي مبتسمًا، قائلًا: الحمد لله ربنا ستر.

* * *

(٩) لعنة الحب

بعد هبوط الطائرة، فُتحت الأبواب وسارع الركاب إلى مغادرة الطائرة، منهم من تمنى السلامة لنا ومنهم من أمطرنا بجمل كراهية تصبُّ معظمها على قائد الطائرة، اتهموه بالإهمال، ومنهم من استطرد في شكر الرحمن على نجاته من موت محتمل، لكننا نحمل جميعًا ذلك الإحساس المرعب بقرب الموت لنا ومدى ضعفنا مهما تظاهرنا بالقوة.

بعد خروج الركاب جلستُ منهكة بين يدي طبيب الطوارئ الذي قدم لي الإسعافات الأولية للحرق الذي في يدي، جلس كل منا في مكان ما وحيدًا يحاول ترتيب أفكاره، كم كان قريبًا منا شبح الموت اللعين، وكم هو مرعب الرحيل فجأة!

اجتمع بنا الكابتن وحاول شرح أسباب الهبوط المفاجئ للطائرة، وأنه كان يحاول تفادي المطبات التي فاجأتنا، اعتذر مرارًا وتكرارًا، ثم أخبرني أنه سيكتب تقريرًا مفصّلًا وسيرفق معه روشتة الطبيب الذي أوصى بإعطائي يومين راحة مع استشارة طبيب جلدية.

بدأ الجميع في الاستعداد للعودة وجلست أنا في كابينة القيادة حتى ينتهي الركاب من الدخول، وكانت الفكرة المسيطرة عليّ هي (أنني غير محظوظة)، وبدأ عقلي يجتر ذكرياتي المؤلمة المختزنة في ذاكرتي، بداية من التحاقي بجامعة لم اخترها، كانت رغبة والديا اللذين حثاني على التفوق فيها كي يتم تعييني معيدة وانصعت لنصائحهما، بالفعل كان ترتيبي الأول على دفعتي في

السنة الأولى والثانية، إلى أن جاء دكتور علم النفس، شخص مريض نفسيًا يعشق التملق وينتظر من الطلبة أن تندفع لتقبيل يده لنيل الرضا، لم أكن منهم، وبناء عليه أصبحت من المغضوب عليهم، حتى أنه قال لي صراحة (لن أسمح بتعيينك وسوف ترين)، وبالفعل استغل منصبه في التلاعب بنتيجتي كي لا يتم تعييني ولقد نجح، حيث تخرجت في الجامعة بترتيب الخامسة على الدفعة وقد تم تعيين الأوائل الأربعة فقط.

وكانت تلك أول جرعة ظلم أتذوقها في حياتي، ثم عملي بماسبيرو مع سيدة حقودة وغيورة، كانت مديرتي المباشرة في إحدى القنوات التليفزيونية الخاصة حيث تم اجتيازي اختبارات المذيعات وتعييني مذيعة في تلك القناة بعد تخرجي مباشرة، ولكن للأسف تلك السيدة تفننت في قهري أنا وكثير من المذيعات الجدد كانت الغيرة تنهش في قلبها مما دفعها لوقف حالنا وإبعادنا عن الشاشة وتكسير همتنا إلى أن قررت أن أترك لها الجمل بما حمل!، وأخيرًا رحلتي الأولى والتي انتهت بحرق في يدي ورعب في قلبي من الموت أثناء الطيران.

جميعنا قادرون على تحويل حياتنا إلى مأساة والعكس أيضًا إذا نوينا ذلك، تلك القدرة التي كتب عنها الكثيرون من أطباء النفس والأبحاث التي تتحدث عن طرق ترويض النفس على تقبل الحياة والتحكم في الأفكار لتحويل كل طاقاتنا السلبية لإيجابية مما يحث العقل على الشعور بالسعادة بدلًا من التعاسة.

قدم لي الكابتن طبق مكسرات راجيًا مني أن أسامحه، كم كان رجلًا كريمًا، قال لي رُغم أنك تعرضتِ لتجربة صعبة في أول رحلة لكن هكذا الحياة تبدو

صعبة لكنها أسهل مما نتخيل، أليس ممتعًا أن تجلسي معنا وتشاهدي جمال الكون.. كانت كلماته مريحة لي وكأنني وضعت بعضًا من البلسم على بشرة جافة فبدأت تلين، كنت في حاجة لأن تلين روحي لجمال الحياة.

بدأت الطائرة في الإقلاع وتحللت أنا من طاقتي السلبية وأحزاني وقررت أن أنعم بتلك اللحظات الجميلة، استحضرت أغنية من أغنياتي المفضلة ودندنت لحنها وأنا أنظر لتلك البقعة الخضراء الرائعة الصامدة بجبالها التي تحتضنها وكأنها تحميها من الغرباء، سمعت صوت مساعد الطيار يدندن معي، انضم لنا الكابتن وتظاهر بالغناء معنا رغم أنه لا يتحدث العربية لكنه أراد مشاطرتنا، تلك اللحظة النقية بجمالها من اللحظات التي تخفف عنا ملل الحياة.

في طريق العودة لم يكن معنا ركاب في درجة رجال الأعمال، حيث كانت الطائرة صغيرة منقسمة لدرجتين السياحية ورجال الأعمال، جلست أنا وآمال نستمتع بعصير البرتقال الفريش ونتجاذب الحديث، شعرت بالألفة تجاهها، كانت ترسم ابتسامة جميلة على وجهها طيلة الوقت، أؤمن بأن الابتسامة الحقيقية هي مفتاح لكل القلوب، هي إشراقة روح وإطلالة نفس وبلسم للألم ودواء الحزن، للابتسامة سحر خلاب يستميل القلوب، وقلبي دائمًا معلق بكل ما هو جميل، بدأت أتحدث معها عن المغرب وعن صديقتي حفصة وعن عشقي للشاي المغربي.

لمست مسحة حزن في عيونها رُغم محاولاتها المستميتة في إخفائها، سألتها مباشرة عن سبب ذلك الحزن المستتر، فأنا لا أُجيد فن التحوير، لطالما كنت مباشرة وأعشق الوضوح، أجابتني باستسلام «إنه الحب».

كيف يكون الحب سببًا للحزن. أليس الحب ترياق السعادة! كنت وقتها ساذجة في فهمي للحب وللحياة وللناس، علمت منها أنها بسبب الحب أضاعت ٥ سنوات من عمرها في انتظار المحبوب أن يُتوج حبه لها أمام العالم ولكن للأسف لم يكن المحبوب سوى شبه إنسان استباح قلبها وسرق منها شبابها وحبها للحياة، هزم قلبها وتملكه وأصبح هو سيدها وأبى أن يتوجها ملكته.

«الحب الحقيقي لا يطفئه حرمان.. ولا يقتله فراق.. ولا تقضي عليه أية محاولة للهرب منه.. لأن الطرف الآخر يظل شاخصًا في الوجدان». - مصطفى محمود.

حدثتني آمال عن محاولاتها في الخلاص من حبها الذي انهك قلبها لكنها لم تقوَ على تحمل لوعة الفراق. تهجر ثم تعود مثل الطائر الذي يعود للقفص وهو يعلم أنه سجن. تعجبت كثيرًا من ذلك الرجل الذي صنع جرحًا عميقًا بقلبها وتركها تصارع الحياة للبقاء، هل يُعد بشرًا مثلنا؟ كيف يهنأ بحياته وقد انتهك قلب وروح فتاة بريئة حالمة مع سبق الإصرار؟!

إنها «لعنة الحب».

«قد نضيق بالحبّ إذا وُجد، ولكن شَدَّ ما نفتقده إذا ذهب». نجيب محفوظ.

لم أجد كلمات تواسيها، وأي كلمات تلك التي تواسي قلبًا مكسورًا جريحًا، لكن دموعي كانت أقرب لها من كلماتي، تلك الدموع التي تشاطرني لحظات فرحي وحزني، ألمي وبهجتي، تلك الدموع التي لا تتوانى في إحراجي ولا أقوى على منعها من احتلال وجنتي في أي لحظة شاءت.

بعد إعلان الاستعداد للهبوط، بدأ زملائي في تجهيز الطائرة والركاب للهبوط بسلام وجلست أنا في كابينة القيادة، لكن في تلك اللحظة كنت أشعر بغصّة وخوف، ماذا لو كنت مكانها؟

حملتُ مخاوفي وغادرتُ الطائرة مع زملائي متجهين للمبنى الفني، وهناك تناسيت تجربة آمال بعد أن قبلتها متمنية أن أراها ثانية وبقي معي جرح يدي الذي كان سببًا في بقائي يومين بدون عمل.

(١٠) أسرار البنات

عند عودتي من الرحلة وجدتُ حفصة في انتظاري، سعدت بوجودها جدًا، كنت في حاجة لمشاطرة قصة آمال معها.

في سكن المضيفات تجد الأسرار متداولة مثل أسهم البورصة، كل سهم (قصة) يتم تداولها بين الفتيات باهتمام مبالغ فيه في بدايتها ثم تهدأ فيقل سريانها على ألسنة الفتيات حتى تظهر قصة جديدة، ثم نحييها مرة أخرى بعد إضافة بعض النكهات عليها لمزيد من التشويق وأحيانا تلك الإضافات تغير مجرى القصة تمامًا وهكذا هي الحياة في العموم، نهتم بشيء ما اهتمامًا كبيرًا حتى نحصل عليه أو نجد شيئًا آخر نهتم به وبذلك يفقد أي شيء وكل شيء قيمته مع الوقت.

اقترحت عليّ حفصة الذهاب معًا إلى مقهى الإنترنت، نعم كنا نستخدم الكمبيوتر في مقهى عام، كنتُ لا أعلم الكثير عن هذا الفضاء الإلكتروني العجيب الذي نجوب في بحوره الآن وننهل منه دون شبع، كنت شغوفة به لدرجة أنني لم أفارق المقهى في أيام إجازاتي المملة.

في المساء وبعد عودتنا من المقهى جلست في شرفة غرفتي أشاهد الفتيات وهن يتراقصن بالحديقة على نغمات موسيقى الراي، لمحت ٣ فتيات جدد يقفن أمام بوابة المجمع، وصوت لهجتهن المصرية يخترق المكان، علمت لاحقًا أنهن مضيفات أقدم مني وجئن لمعاينة السكن ومقارنته بسكنهن..

إنه الفضول الذي يدفعنا للإحساس بعدم الرضا طيلة الوقت، تلك المقارنات اللانهائية التي تجعل القلب يستعر من الغيرة وتتسبب في شقاء الكثيرين.

سعدت بوجودهن رغم عدم معرفتي بهن، ولكني كنت في حاجة للشعور بالصحبة، الغربة ترغمنا على تقبل أُناس لم نكن حتى لنفكر في التعرف عليهم في ظروف مختلفة، الآن أيقنت أنه من الأفضل عدم الاقتراب من الناس أكثر من اللازم حتى لا نكتشف مدى بشاعتهم.

تلك الإجازة كانت فرصة لي للتعرف على هؤلاء الفتيات والتنزه معهن قليلًا، ذهبنا إلى مقهى جميل يحتل مساحة كبيرة على كورنيش الدوحة والذي أصبح مكاني المفضل لاحقًا، هناك تعرفت على أحد زملائنا «حسين» مصري الجنسية صاحب العيون الخضراء، كان وسيمًا، ولكن بخيل بشكل مرضي، دائم البحث عن فتاة يمطرها حبًا ليسلبها مالها دون هوادة، حدثتني عنه الفتيات عندما لمحناه جالسًا، قالت لي إحداهن احذريه فهو مولع بالمصريات وأنت الجديدة بيننا، وسوف يرمي شباكه عليك؛ ليخرج بمرتبك وعليه قُبلة. وبالفعل حاول أن يتقرب مني كثيرًا ولكني صددته ليس لأن الفتيات حذرنني ولكن لأن قلبي لم ينبض في وجوده.

اكتشفت أن كثيرًا من زملائنا العرب قاموا بنفس اللعبة لاستغلال الفتيات الساذجات، فمنهم من أرغم صديقته على الاقتراض لدعمه بالمال واعدًا إياها بالزواج وتنتهي القصة بهروبه وتركها غارقة في ديونها تسدد ثمن غبائها.

للأسف هذا منهج الكثير ممن يلقبونهم رجالًا، لا أعلم أين الرجولة في استغلال امرأة محبة ضعيفة!!

انتهت الإجازة في لمح البصر ونظرًا لأنها إجازة طارئة فتم وضعي (STANDBY) استعداد، وهذا يعني أنه ممكن الاتصال بي للعمل خلال ساعات محددة بدلًا من أي زميلة غابت فجأة عن العمل وبناء عليه ممنوع الخروج في تلك الساعات المحددة؛ حيث يجب أن ألتزم البقاء بالمنزل مستعدة في أي لحظة قد يتصلوا بي، لم يتغيب أحد عن رحلته، ولم أتغيب أنا عن المنزل.

بالقرب من السكن وجدت صالون تجميل تملكه سيدة مصرية، سعدت بالتعرف عليها وسعدت أكثر بقرب الصالون من منزلي، من نعم الدنيا وجود صالون تجميل قريب من المنزل، نعمة تقدرها الفتيات كثيرًا، كانت هي الأخرى تبحث عن معارف تملأ بهم صالونها وحياتها أيضًا، شعرت أن لديها قصة ما خاصة عندما وجدت ابنتها الجميلة جالسة منزوية في المحل، أرغمتها والدتها على التعرف علينا، وكأنها تحاول أن تدعم ابنتها بصداقات جديدة تنسيها واقعًا غير سعيد، علمت لاحقا أن والديها منفصلان، إنها لعنة زواج الصفقات التي تنتهي بانفصال وحطام أطفال.

لماذا يسعى الناس لإنجاب أطفال وهم في غاية التعاسة أليس كافيًا أنهم تعساء، لماذا يظلمون معهم طفلًا بريئًا!.... أليست هذه قمة الأنانية؟

في نهاية اليوم تلقيت اتصالًا من المكتب أخبروني بتعديل جدول رحلاتي وأن على الاستعداد للذهاب إلى لندن فجر اليوم التالي، يا إلهي أخيرًا سأزور بريطانيا العظمى، بدأت في تحضير حقيبتي، وضعت تيشرت وبنطلونًا وحذاء رياضيًا استعدادًا لأن أجوب شوارع لندن بلا هوادة، لم أنس أن أحمل معي جاكيت، لقد أخبرتني حفصة أن طقس لندن مجنون وأنه في لحظة قد تتحول أشعة الشمس الساطعة إلى غيوم محملة بدموع الأحبة.

أعتقد أن المطر هو دموع الأحبة المحملة بدعواتهم الصادقة، لعل هذا سبب حبي للسير تحت المطر.

غدًا رحلتي التي أعتبرها الأولى، أليس من الرائع أن نرى في كل يوم بداية جديدة؟!

(١١) نكهة لندن

شوقي لزيارة لندن زاد من حماسي في الاستعداد قبل الرحلة بساعات، من حسن حظي أن طاقم الرحلة كان خليطًا من جميع الجنسيات، مثل التوابل التي تمنح الأكل مذاقًا لذيذًا، التنوع مطلوب في كل شيء، فهو مضاد للملل ومثرٍ للثقافة.

جميعنا كان متحمسًا للرحلة؛ حيث سادت حالة من الارتياح بيننا جميعًا، "محمد" مشرف الطاقم كان من ألطف الشخصيات التي عملت معها، ابتسامته نادرًا ما فارقته، هذا بالإضافة لخفة دمه وفي جعبته آلاف النكات الهزلية المضحكة، أعترف بأني من عشاق الضحك وأفضل البقاء مع هؤلاء المجانين الذين يصرون على محاربة الحياة بضحكاتهم.

ما أثار دهشتي وقتها أن معظم الركاب كانوا هنودًا وسيريلانكيين يحملون الجنسية البريطانية وكانوا فخورين جدًا بذلك، لدرجة أنه عند سؤالي أحدهم عن أصوله قال لي أنا بريطاني، تعجبت وقتها من هذا الفخر الذي يجاهر به وهو يحمل جواز سفر دولة احتلتهم وانتهكت حقوقهم وكرامتهم وخيراتهم، ولكني الآن أدرك تمامًا كم كنت ساذجة، بعد معاصرتي لأنظمة تحكمنا وتهدر كرامتنا وتسلب منا حتى أبسط حقوقنا في الحياة في بلدان نلقبها بأوطاننا!!

أليس الوطن هو ذلك المكان الذي يمنحك الشعور بالطمأنينة والأمان، الشعور بالانتماء الذي ينمو معك وأنت تحصد خيرات ذلك الوطن لتنعم بها!! إذًا لا عجب في أن نسعى جاهدين للبحث عن ذلك الوطن، لعلنا ننجح في أن نجده

قبل أن نموت كمدًا تحت حكم عصابات المافيا التي تسلبنا حبنا للحياة كما سلبتنا انتماءنا للوطن.

محمد وأنيتا كانا يساعدنني طوال الرحلة، أنيتا هي الأخرى كانت أول زيارة لها للندن، كنا نعمل في الدرجة السياحية نحاول تلبية رغبات المسافرين الكثيرة والعجيبة أيضًا، على سبيل المثال: طلب مني أحد الركاب الملتحي، الذي يرتدي السروال الباكستاني المعروف ويحمل السبحة في يده، التي تعطي انطباعًا بأنه مسلم ومتدين، طلب مني أن أقدم له "جعة" في كوب من الورق حتى لا يعرف الناس أنه يشرب الخمر، تعجبت من طلبه، ولكن هو لا يفرق كثيرًا عن هؤلاء الذين يتزينون بمساحيق التجميل حتى لا يظهرون عيوب بشرتهم، أو من هؤلاء المدعين للشرف حتى ينالوا احترام الناس أو من الأزواج الخائنين وهم يؤدون دور المخلصين، البشر متشابهون جدًا ولكنهم يعتقدون غير ذلك.

رحلة طويلة ومرهقة، كنت أصارع النوم وأنا جالسة في انتظار سماع إشارة ربط الأحزمة، "أنيتا" كانت أجرأ مني، حيث اتخذت من مقعد الحمام سريرًا لها، كنت أود لو أستطيع أن أنام بداخل الحمام، ولكن القرف من مجرد الفكرة منعني من المحاولة.

بعد الهبوط بسلام، بدأ الركاب بالوقوف استعدادًا للنزول رغم عدم استقرار الطائرة بعد، دائمًا نحن البشر متعجلون، ونحن صغار نريد أن نكبر، ثم نريد أن نتزوج، وأن نُكوّن أسرة وأن نمتلك ثروات، وأن نحقق طموحاتنا بأقصر الطرق، ودائمًا نفكر في الغد ونفقد متعة أن نعيش اللحظة بسبب التفكير المستمر فيما سيحدث بعد، أعتقد أن الفقراء هم الوحيدون القادرون على

عيش اللحظة بكل ما تحملها من تعاسة وسعادة، لا يوجد لديهم خطط مسبقة ولا أحلام ينتظرون تحقيقها، ولا غد يأملون أن يكون أفضل.. لا أعلم هل هذا هو الرضا أم الاستسلام.

يقول ديل كارنيغي: "تذكر أن اليوم هو الغد الذي كنت قلقًا عليه بالأمس".

اتفقنا جميعًا على الخروج لتناول العشاء في مطعم قريب من الفندق، وبالفعل التقينا في بهو الفندق وسرنا معًا، استمتعت كثيرًا بالسير في شوارع لندن النظيفة ومنازلها ذات الأسطح المثلثة التي كنت أشاهدها في الأفلام، انهال المطر علينا، فاضطررنا لدخول أول مطعم نجده، كانت رائحة الكاري معبّئة للمكان، شعرت أنني دلفت منزل صديقتي سونو الهندية، هذا الشعب العجيب، مهما ارتحل يحمل معه كل عاداته، هذا المطعم الهندي كان بمثابة الوطن لصاحبه الذي أبى أن يترك وطنه فأخذه معه.

انتبهت لموسيقى من مجموعة "بودا بار" الهادئة والجميلة، وشعرت أنها تتعانق مع رائحة الكاري والبخور وتحتضن هذا العدد الكبير من تماثيل الآلهة الهندوسية المختلفة، شعرت بالألفة مع المكان، ربما لأني اعتدت تلك الراحة في منزل صديقاتي أو لأنني في صحبة طيبة، استمتعت بالعشاء وبتلك الأصناف الحارة.

أتعجب من هؤلاء البشر الذين يعبرون القارات لاكتشاف الثقافات المختلفة ولا يتذوقون الأكلات المعروفة لكل بلد، ويتجهون لمطاعم البرغر المتعارف عليها أو يبحثون عن مطاعم عربية في دول أوروبية ليتناولوا نفس الوجبات

التي اعتادوها في بلدانهم، مثلهم مثل الذي يسافر في إجازة ويظل جالسًا في الفندق ولا يخرج يستكشف المكان وينهل من تاريخه...

تجربة الأطباق المختلفة التي تحمل عبق وتاريخ وسحر تلك الدول من ألذ وأجمل التجارب التي تعطي للرحلة نكهة خاصة وممتعة، فكرة الأكل ليست فقط لسد الجوع، ولكن للاستمتاع بتذوق النكهات المختلفة والمتنوعة للدول، وتظل نكهته في ذاكرتك كلما تذكرت تلك البلدة.

بعد أن امتلأت معدتي بالكاري والشطة، عدت إلى غرفتي واستسلمت لنوم عميق أعمق من المحيط في سعادة مختلطة بالإرهاق وشوق لغد أجمل.

(١٢) مدام توسو

في الصباح الباكر هبطتُ لبهو الفندق، وجدت نفسي متلهفة لتذوق الكرواسو الذي كانت رائحته معبئة المكان، كم كان لذيذًا وهو ساخن ومذاب بداخله الجبن، تناولته بنهم مع كوب من الشاي الأحمر بالنعناع، والأكثر متعة أن المطر بدأ يسقط على استحياء، قطرات بسيطة معلنة أن اليوم سيكون حافلًا بالتقلبات المناخية.

التقيت بأنيتا كما اتفقنا سابقًا وشددنا الرحال إلى متحف "مدام توسو"، وهو من أشهر متاحف الشمع في العالم، وقد أُسس عام ١٧٦١، والآن أصبح له أفرع عدة في ألمانيا والصين وأمستردام وأميركا، على باب المتحف وجدنا المئات مصطفين أمام شباك التذاكر، بعد ما يقرب من نصف ساعة تمكنا أخيرًا من دخول المتحف، ذُهلت من براعة صنع تلك التماثيل الشمعية التي لولا أنني أعلم أنها تماثيل لشككت أنهم أُناس حقيقيون من مدى دقة نحتهم وروعة أشكالهم.

داخل المبنى قاعات عدة بدأتها بالقاعة الرئيسية والتي توجد بها الملكة إليزابيث وبعض الشخصيات المعروفة من البلاط الملكي، على اليسار وضع تمثال أميرة القلوب "ديانا" بعيدًا عن بلاط الملكة وكأنهم ينبذونها حتى وهي تمثال.

في قاعة جانبية يوجد بها تماثيل الفنانين والممثلين العالميين، أفضل شيء هناك أنه لا توجد علامات "ممنوع التصوير" أو "عدم الاقتراب"، بل إن

منظمي القاعة وضعوا عدة كراسي بجوار بعض التماثيل حتى يتثنى أخذ صور معهم، شيء جميل الإبداع حتى في عرض التماثيل وذكاء في تلبية اهتمامات الزوار، هكذا تكون الدعاية للسياحة الناجحة.

قضينا ٣ ساعات كاملة داخل المتحف إلى أن بدأ الجوع يتسلل إلينا، قررنا تناول بيتزا في مطعم قريب للمأكولات السريعة، لفت نظري عجرفة البائعين، لا أعلم هل لأنه من الواضح أننا أجانب أم هذا طابع البلدة والشعب هناك؟

التهمنا قطع البيتزا أثناء سيرنا، على طول الطريق توجد محلات كبيرة وجميعها مكتوب عليها تخفيضات، قررنا دخول محل " Primark " الذي اصطف على بابه عدد كبير من الناس، من الواضح أنه من المحلات الشعبية الرخيصة نوعًا ما، ذكرني بمحلات التوحيد والنور بمصر.

وجدت معظم المعاطف الجلدية مصنوعة في بنغلاديش والبيجامات القطنية مصنوعة من القطن المصري، عندما قرأت تلك العلامة كدليل على جودة القطن حينها شعرت بسعادة وفخر، أخيرًا هناك شيء آخر نفتخر به بجانب حضارة الـ ٧٠٠٠ سنة، والتي لم نقدم لها شيئًا سوى الإهمال والتقصير.

انتهينا من جولتنا وذهبت لغرفتي سعيدة بما اقتنيت من هدايا لإخوتي ووالديّ، ثم بدأت في تبديل ملابسي وتجربة كل ما ابتعته، كنتُ وما زلت طفلة بداخلي أسعد بكل شيء جديد.

هاتفتني غادة زميلتي المصرية ودعتني للانضمام لبقية الفتيات في غرفة إحداهن، سعدت بالدعوة ولبيتها على الفور، وجدت الفتيات بالبيجامات جالسات على السرير، انضممت إليهن وقد وضعت إحداهن شريط أغاني في

كاسيت صغير أحضرته معها، وبدأ صوت محمد رشدي يشدو "بهية" وتمايلت "منى" على نغمات الأغنية مما شجعتنا للانضمام إليها وتمايلنا كما لو كنا ملائكة بأجنحة نرفرف في فضاء واسع، استمتعت كثيرًا بالرفرفة على أنغام الموسيقى، فهي بالفعل غذاء الروح، كثيرًا ما تخيلت الملائكة تعزف أوركسترا عند أبواب الجنة احتفالًا بقدومنا.

"الموسيقى تعبر عما لا يمكنك قوله ولا تستطيع السكوت عنه".. أفلاطون

انتهى اليوم بعد جلسة نميمة لم أكن مهتمة بها كثيرًا، ليس لعدم فضولي، ولكن لم أكن بعد أعرف تلك الشخصيات المسكينة الذين تم فضحهم بكل قسوة، لا أعلم لماذا يتلذذ الناس بمعرفة خبايا بعضهم بعضًا، لم أجد قط متعة في سماع قصص قد أكون أنا بطلتها في جلسة أخرى.

في صباح اليوم التالي اجتمعنا استعدادًا للعودة للدوحة، جلسنا وبدأ محمد في طرح أسئلة عن السلامة العامة، وبعد ٥ دقائق توجهنا للمطار وكالعادة قمنا بإجراءات الأمن والسلامة وتسلم الوجبات، واستعددنا لاستقبال الركاب

لم أكن أعلم أن كل رحلة عبارة عن قصة لها سيناريو مختلف...

(١٣) وهم السعادة الأبدية

زيارتي القصيرة لبريطانيا العظمى لم تكن كافية، كنتُ وما زلتُ في حالة شوق لمعرفة المزيد وزيارة ما سمعت وما لم أسمع عنه من متاحف ومسارح، أيضًا وددت لو تمكنت من زيارة متاجر "هارودز" الذي كان يمتلكها رجل الأعمال المصري محمد الفايد الذي لهث كثيرًا للحصول على جنسية تلك البلدة وأبت ملكتها تنفيذ رغبته، قدم الكثير ولم يجنِ الشيء الوحيد الذي طلبه..

هكذا هي الدنيا نسعى جاهدين للحصول على شيء واحد نعتقد أنه سيمنحنا ترياق السعادة الأبدية ثم نجد أنفسنا أفنينا عمرنا في البحث دون جدوى.

في الطائرة كنا بانتظار الركاب الذين ما إن دلفوا للداخل حتى بدأت طلباتهم المستفزة، أذكر أكثر طلب مستفز جاءني من هذا الهندي البريطاني عندما سألني عن الحمام الخاص بالبريطانيين، أتذكر أيضًا ردة فعلي التي أثارت حنقه، لم أتمالك نفسي ضحكت بشدة وقلت له آسفة إن هذا النوع من البشر لم يصمم لهم حمامات بعد.

امتلأت الطائرة وامتلأت أنفسنا بالضيق، تمنيت لو انتهت الرحلة في تلك اللحظة، تمنيت لو أني أحمل ريموت كنترول كما كان يحمله بطل فيلم "كليك" حيث كان باستطاعته بضغطة زر إنهاء معاناته والانتقال لمكان آخر مع أُناس آخرين، يا لها من فكرة عبقرية، أعتقد صاحب تلك الفكرة كان يعمل بالضيافة مثلي.

حلقت الطائرة وعانقت السحب، بقيت جالسة في مقعدي حتى بعد انطفاء إشارة ربط الأحزمة، كنت أسرق بعض الوقت لتهدئة نفسي قبل الانخراط في تقديم الخدمات الثقيلة على نفسي والكثيرة من الركاب، بدأنا بتوزيع وجبة الإفطار، أشار لي أحد الركاب بامتناعه عن تناول الفطور، لم أكن مهتمة كثيرًا ولكن قررت أن أسأله عن السبب، قال لي إنه طلب وجبة خاصة حيث إنه لا يأكل سوى الفواكه والخضار، نظرت لصحن البيض والسجق ثم إبتسمت وإعتذرت له ووعدته بإحضار المزيد من الفاكهة من الدرجة الأولى بعد أن تركت امامه الصينية وعليها طبق فاكهة صغير وكوب عصير. له تاركة معه الصينية وبها كوب عصير وطبق فاكهة صغير.

بعد إنتهيت من تقديم الوجبات جلست مع الفتيات وانضم إلينا محمد الذي أمطرنا بوابل من النكات التي جعلتني أضحك من قلبي، كانت هذه الدقائق هي الحسنة الوحيدة في الرحلة، اشتكيت لمحمد من آلام قدمي وظهري من دفع عربة الطعام ومن الذهاب هنا وهناك، قال لي عادة رحلة لندن بركابها متعبة ولكن بعد عدة رحلات اكتشفت أن كل الركاب متعبون إلا من رحم ربي، يعتقدون أنهم بثمن التذكرة امتلكوا الطائرة بطاقمها.

عند عودتي للمطبخ وجدت الراكب الذي يأكل الفاكهة فقط، كان يبحث عني، سعدت بأنه جاء يشكرني على تقديمي طبق فاكهة إضافي له، كان منمقًا في حديثه وراقيًا في أسلوبه، جلس بجواري وعرفني بنفسه

"أنا محمد من باكستان، أعمل مهندس كمبيوتر، وصار لي أكثر من عقد من الزمن في بريطانيا"

واستطرد قائلًا إنه في طريقه لباكستان لحضور زفاف أخته التي لم يرها منذ أن سافر، يا إلهي، ما هذه العلاقة القائمة على مكالمات عبر الهاتف والإنترنت، قرأ أفكاري وبدأ يحدثني عن صعوبة الحياة في باكستان وعن اضطراره للهجرة وعن محاولاته المتعددة لإحضار والدته وأخته ولكن أبت محاولاته بالفشل، ونظرًا لحاجته المادية لم يستطع زيارتهما منذ أن سافر..

قلت له : ولماذا هاجرت من الأساس

أجابني: إنها الحاجة للمادة وللعيش بكرامة

قلت له : وهل عشت بكرامة وأنت مغترب

أجابني: نحن نهان في أوطاننا وخارجها ولكن على الأقل خارجها نهان ونأخذ المقابل أما في بلدي فالإهانة بدون مقابل

كم كان عمر أختك عند رحيلك

كانت طفلة ذات الـ ٥ سنوات، هذا العمر الجميل الذي تنشأ فيه حوارات بريئة، كنت أعشقها خاصة أنها أختي الوحيدة

ثم صمت قليلًا ورأيت في عينيه سحبًا من المطر المتثاقل

ثم قال لي إن أكثر شيء آلمه هو وداعها، كانت متشبثة بعنقي رافضة أن تتركني وكلما حاولت والدتي أن تأخذها كانت تصيح وتبكي لدرجة أنني بكيت مثلها.

ثم تساقطت من عينيه الدموع حارة واستطرد قائلًا لم أنسها يومًا في غربتي، كانت هي سبب أن أستمر بالعمل، ليس لشيء سوى أنني أريد لها عيشة هنية

سألته كم عمرها الآن يا ترى ؟

أجابني هي الآن٢٥ سنة بالتمام والكمال، ٢٠ عامًا قضيتها بعيدًا عنها لأجلها

مؤلمة ومحزنة تلك الغربة التي تفصلك عمن ينتمي لهم قلبك ويشغلك عنهم سعيك للرزق

كالعادة سبقتني دموعي قبل كلماتي، خشيت أن تصير تجربتي بتلك المرارة، تمنيت له أن يستمتع بزيارته وأن يتمم الله لأخته بزفاف مبارك، أصر على أن يعرف صندوق البريد الخاص بي كي يراسلني أعطيته له رغم أني كنت على ثقة بأن اهتمامه زائف أو محاولة كي يشعرني بامتنانه لي.

لم أكن أعلم أنني وبعد ٣ أسابيع سأجد في صندوق بريدي صورة له مع أخته و هي عروس ورسالة منه وصورة منه، يشكرني فيها على استماعي له واصفًا لي مدى سعادته بلقاء أحبته، سعدت كثيرًا بصدق اهتمامه، خاصة أنه في عالمنا هذا الصادقون فئة نادرة جدًا نجدهم في أحلامنا أو في كلمات سطرت قصصًا خيالية، لم يكتفِ بذلك، فلقد وجدت رسالة شكر من الإدارة على حسن أدائي الذي ظهر في رسالة شكر من أحد ركاب نفس الرحلة، علمت أنه هو وأنه كان في حاجة ماسة لأن يسمعه أحد ويشاطره حزنه وسعادته، كم نحن غلابة.

بدأت الطائرة في الهبوط وبدأت عيوني في الانطفاء، كنت متعبة جدًا، لم أكن أعلم أن العمل بالطائرة منهك لهذا الحد، لطالما شاهدت المضيفات متأنقات منتعشات وهن يؤدين خدماتهن، ها أنا أبدو كأنني انتهيت من معركة طاحنة.

في طريقي للمنزل بدأت أردد أغنية لا أعلم حتى من هو منشدها وظللت أرددها حتى وصلت لسريري وارتميت في أحضانه وودعت يومي بتلك الأغنية والتي تقول كلماتها:

«يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرالي»

(١٤) سلطان قلبي

لطالما تخيلت نفسي بطلة إحدى قصص الحب التي شاهدتها في الأفلام، وقد كان.

في المساء التقيت بزميلاتي، حيث أحضرت إحداهن صديقًا لها ليأخذنا في جولة بسيارته، شاب قطري الجنسية حديث التخرج في كلية الطيران، بدأ عمله كمساعد طيار في نفس توقيت انضمامنا للشركة، لا يجيد فن الحديث، كان مملًا رغم محاولاته في تجاوز خجله بإلقاء بعض النكات السخيفة التي اضطررت اصطناع الضحك عليها، ذهبنا في جولة بالسيارة على الكورنيش الذي أصبح ملاذًا لي طوال سنين معيشتي هناك.. لم تكن الدوحة قد تهيأت بعد بالمقاهي والمولات؛ لذا قررنا شراء بعض الفطائر الشامية اللذيذة، وتوجهنا لقارب صغير.. حينها فقط بدأت أستمتع بوقتي، فأنا من عشاق البحر.

لفت نظري اهتمامه بي ومحاولته المستميتة لتجاذب أطراف الحديث معي، وسعدت بهذا الاهتمام، شيء ما في عينيه جذبني لم أكن أعلم أن الحب يتسلل إلينا بهذه السهولة فيجعلنا في متاهة يكسوها الضباب؛ حيث تصبح الرؤية منعدمة، كنت سعيدة بهذا الشعور الغريب الذي لأول مرة أشعر به، لم أكن أعلم أنها بداية قصة لن أنساها.

تظل اللحظات الأولى التي يدغدغ فيها القلب بمشاعر الحب البريئة هي الأجمل، تلك الأوقات التي نستمتع بها دون الإفصاح عن حبنا، فقط أعيينا

تتلاقى ونضحك مبتهجين، مشاعر غير مفهومة ولكنها تضيف جمالًا للحظة التي نتمنى إطالتها ولو بخيالنا.

جمعتنا الصدفة أكثر من مرة في رحلات قصيرة، كنا نقتنص فيها دقائق معدودة لنختلق فيها أحاديث لا معنى لها ولكن كانت تشعل بداخلنا إحساس الشغف بمعرفة الآخر، مقابلاتنا المحدودة مع بقية الفتيات والتي ظهر فيها إعجابه واهتمامه والذي كنت سعيدة به، جعلت الغيرة تتمكن منهن وتظهر في تصرفاتهن، لكني لم أهتم كثيرًا.

أتذكر دهشتي عندما وجدته منتظرًا عودتي من إجازتي القصيرة في مصر، طرت فرحًا عندما أهداني باقة ورود واعترف لي بحبه، أول حب وأول دقة قلب وأول باقة ورود، لحظات تحمل السعادة الخالصة، يظل مفعولها مستمرًا حتى بعد انتهاء اللقاء، تلك الأوقات التي تمر سريعًا فأعود بعدها لمنزلي محملة بذكريات تجعلني أبتسم وقلبي ينبض فرحًا.

لن أنسى أول هدية أهديتها له، كانت ساعة قيمة قدمتها له عندما ذهبنا للكورنيش لنحتفل، بعد نجاحه في اجتياز أحد الاختبارات، كان قلبي بريئًا نضرًا، يحمل الكثير من الحب، جلسنا على أحد الصخور وتفاجأ بالساعة التي أعجبته بشدة، رأيت الفرحة في عينيه مما جعلني أنسى كم كلفتني تلك الهدية والتي ظللت أجمع ثمنها على مدار شهرين، من قال إن الهدية ليست بثمنها محق ولكن أيضًا عندما تحب، وقتها تدفع الغالي والثمين من أجل إرضاء من تحبه.

ما زلت أتذكر يوم ابتاع سيارة جديدة وأصررت على قيادتها تسببت في خدشها مما آثار جنونه، غضبت من ردة فعله وغضب من جنوني وعصبيتي ولكن ضحكنا بعدها كثيرًا، كنا كطفلين فرحين معا يسابقان ظلهما كما قالت (أم كلثوم)

كانت تلك الفترة بالنسبة لي حلمًا، لطالما تمنيت أن أحب وأن أصرخ «بحبك» وأنا أحملها بين ضلوعي وأعترف بها للعالم أجمع مثلما فعلت ميرفت أمين في فيلم « حافية على جسر الذهب» -

ما زلت أتذكر تلك الأوقات التي تصارحنا فيها بحبنا وبنيت أنا آمالًا وأحلامًا، كنت أذهب في رحلاتي وأعود في شوق لملاقاة سلطاني، أتذكر عندما وعدني بالزواج وكيف تخيلنا حياتنا سويًا

لقد استمتعت بتلك اللحظات التي تجعل دقات القلب في تسارع معلنة عن حالة من الهيام التي تشرق معها شمس السعادة، ثم رويدًا رويدًا ينطفئ الشعاع وتغيب الشمس.

أتذكر عيد ميلادي الذي احتفلنا به معًا ودعونا كل زملائنا، والذي لم أستمتع به بسبب شجاره معي وغيرته غير المبررة، كان يريد أن يظهر أمام زملائنا بالرجل الحمش، مثل كثير من الرجال الشرقيين.

بعد سنتين من الحب والأمل والحلم ببيت وعائلة ومستقبل، وبعد مناقشات وحوارات ومحايلات مع والدي رحمه الله كي يباركني بموافقته للزواج من سلطاني وافق والدي على مقابلته على مضض، أخبرني بأن تلك العلاقة حتمًا

ستفشل ولكني عارضته، أخبرني أنه يعلم ما لا أعلم وأن تجاربه في الحياة أكبر مني ولكني لم أنصت.

أتذكر دقات قلبي التي كادت تتوقف من السعادة عندما سافرنا معًا للقاهرة لمقابلة أهلي، كانت عائلتي مجتمعة في انتظارنا، بدا خائفًا بعض الشيء، جلسنا لتناول العشاء، لم يتناول شيئًا، رهبة مقابلة أبي كانت مسيطرة عليه.

أتذكر تنزهنا معًا في القاهرة، كما لو كنت مرشدته السياحية اكتشفت معه جمال بلدتي، إنه الحب الذي يزين كل شيء في أعيننا، كنت فرحة بتلك الخطوة والتي اعتقدت أنها دليل على جديته وصدق حبه لي ولكني لم أدرك أنها كانت خطوة لكشف المستور.

الزواج من غير قطرية كان يتطلب موافقة من الحكومة، وقد أخبرني أنه بانتظار الموافقة وصدقته، لكن كل تلك الغشاوة بدأت تتلاشى تدريجيًا، عندما اعترف لي بأنه مسلم « شيعي» لم أكن على دراية تامة بالفرق بين الشيعة والسنة ولكني صدمت من أنه كذب عليَّ، تحجج بعدم قدرته على مصارحتي سابقًا خوفًا من أن أتركه، وصدقته أو كنت أريد تصديقه، خاصة أننا نعيش في مجتمع متعصب وطائفي.

كم من مرة حذرني الزملاء منه، ولكني كنت مغيبة، الحب يجعلنا نرى ما نريد أن نراه فقط، أتذكر حين حاول أحد الطيارين التقرب مني وطلب أن يتقدم لي، وعندما رفضت قال لي سلطانك هذا لن يُكرمك، لا تضيعي عمرك على من لا يستحق، وقتها بررت قوله هذا بسبب شعوره بالضيق لرفضي له ولكنه كان محقًا للأسف..

أفقت على صفعة قوية من الدنيا، أفاقتني قبل أن تزل قدمي للأبد.. اكتشفت خيانة سلطاني، الخيانة التي لا تغتفر، اكتشفت أنه ليس بسلطان ولا أمير، ولكنه عبد لنزواته، يلهث خلف كل ما هو مؤنث، لا أعلم هل ألومه أم ألوم نفسي على سذاجتي المفرطة!

تلك اللحظة التي كسرتني، حينما ترجل من السيارة وسمعت هاتفه الذي نسيه بالسيارة يعلن عن وصول رسالة، فتحت ملف الصور كما لو كنت أعلم جيدًا ما كان عليَّ فعله، وقتها كان سلطاني يقترب من السيارة، أغلقت قفل السيارة وسكرت النوافذ وبدأت أتصفح الصور التي كانت تذبحني ببطء، لم أتوقع أن أرى خيانته مسجلة بالصور، لم يكتفِ بخيانتي، ولكنه سجلها كي تكون رسالة لي من الله الذي دعوته مرارًا أن ينير بصيرتي ويهديني لما فيه الخير لي، بدأت يدي ترتعش وظل هو يقرع بقوة على باب السيارة كي أفتح له، كانت تلك اللحظة التي مات فيها حبه في قلبي، سقط وسقطت معه كل أحلامي.

غادرت المكان وظللت أحوم بالسيارة لا أعلم إلى أين، كنت أنتفض ويدي ترتعش ودموعي كالمطر لا تتوقف، انهرت تمامًا، ظللت أصرخ وأتألم غير مدركة أنني في مكان عام، حاولت أن أهدئ من نفسي قليلًا لم أستطع، لم أكن قادرة على القيادة اتصلت بصديقتي التي حملتني للمشفى لأخذ حقنة مهدئة بعد أن تيقنت أنني في حالة انهيار عصبي كما أكد ذلك الدكتور، الذي أمر بحجزي لليوم التالي.

تيقنت أن من توجته سلطانًا لقلبي ما هو إلا سفاح اقتلع روحي من صدري بكل بشاعة، لازمني شعور بعدم القدرة على الحياة، تمنيت أن يموت فهو

أهون أن أفقده لله من أن أراه أمامي مستمتعًا بحصد قلوب الأخريات.

ظلت ذكرياتي معه تلاحقني في الأماكن التي شهدت حبنا، أتذكر عندما قابلت مدير الشركة صدفة في المصعد وكانت عيوني متورمة من كثرة البكاء، نظر لي وقال «وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم» نعم كان يعلم قصة حبنا مثل كل الزملاء وكان محقًا في قوله، لا أعلم هل أحبني فعلًا أم كل ذلك كان عبثًا، ولكني أعلم أن المحب لا يخون ولقد خان.

بعد مرور فترة من الفراق، كنت على متن رحلة متجهة لجدة، وفي درجة رجال الأعمال جلست سيدة وابنها الذي بدا مألوفًا ذكرني بنفسه، إنه ابن عمة سلطاني عرفني على والدته، نظرت لي وقالت : كله قسمة ونصيب وربنا أكيد كتبلك الخير، لم أستوعب الكلمات، تلاحقت ذكرياتي التي كانت مؤلمة بقدر صدق مشاعري، أفقت على كلمة الابن وهو يعلمني بموعد زفاف سلطاني...

لم أكن أعلم أن دموعي سبقت كلماتي، احتضنتني عمته وقبلت رأسي، دخلت الحمام مسرعة للاختباء من الدنيا ومن قسوتها ومن ذكريات أحمد الله أني تغلبت عليها وتناسيتها.

أتذكر تلك الرسالة التي أرسلها لي بعد سنين ليعتذر، هل سيعيد الاعتذار سنوات عمري التي قضيتها في أكذوبة ! هل يفيد الاعتذار بعد أن تذبح الذبيحة وتتركها تنزف حتى الممات، هل يفيد الاعتذار !

لن أسامحه وسأظل الذنب الذي يحمله في قلبه ما دام حيًا والذنب الذى سيقابل الله به يوم الحساب.

بعد الفراق تظل المشاعر غير مفهومة، تتصارع مشاعر الحب مع الحقد، وتتولد كراهية بقدر الحب الذي كان، وفي النهاية عندما تموت كل المشاعر، تصبح كلها ذكرى بحلوها ومرها، قصة نحكيها لأبنائنا ونسطرها في رواية معلنين أننا تخطيناها ولم تعد لها قيمة.

أحيانا أفكر هل كان من الأفضل ألا أعرف الحب ولا أذوق حلاوته وأن أعيش حياة تخلو من المشاعر، أم أن تجربة الحب ومعرفة حلاوته ومرارته، تستحق أن نعيشها.

ولكني أيقنت أن الحب رزق حتى لو لم يكتمل يكفي أن يغزو القلب فيحييه، أحمد الله أنني أحببت وعرفت الحب ولو للحظات

(١٥) استعدت نفسي

«الزمن بطيء جداً لمن ينتظر.. سريع جداً لمن يخشى... طويل جداً لمن يتألم... قصير جداً لمن يحتفل لكنه الأبدية لمن يحب».

وليم شكسبير

لم أقوَ على البقاء مغتربة بعد أن عشت مرارة كسر القلب، قدمت استقالتي وكنت عازمة على الرحيل ولكني فوجئت برفض مدير الشركة استقالتي وطلب رؤيتي في مكتبه، ذهبت وأنا متعجبة ماذا يا ترى يريد أن يقول !

طرقت بابه الذي يرتعش أمامه معظم الموظفين إن لم يكن كلهم، سمح لي بالدخول وما إن رآني حتى تحرك من مكتبه ومد يده للسلام علي، شعرت بالارتياح وطلب مني الجلوس وجلس في مقابلتي ثم قال لي أنا أعلم جيدًا سبب استقالتك ولكن أريدك أن تطلعيني أنت عليه

تعجبت من طلبه ولكن أجبت مباشرة إنني نفسيًا مرهقة، قاطعني وقال : « وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم»

صدقيني أنت هكذا أفضل، ماذا لو تزوجته وأنجبت منه وظل هو يخونك مع كل امرأة يقابلها هل كنت ستهنئِين وقتها، أعلم أنه يعرف قصتي ولكن لم أقوَ على الرد سبقتني دموعي، ناولني منديلًا وقال لي سأعطيك إجازة ٣ شهور بدون مرتب وبعد أن ترتاحي ولكي مطلق الحرية أن تعودي.

سعدت بلقائه وقبلت اقتراحه وحملت نفسي وأشلائي إلى أمي، لم أتحدث عن كسرتي ولا عن جرحي فالأفضل أن نتناسى الوجع حتى يزول، قضيت ٣ شهور في أحضان والديَّ وأخوتي، كنت مثل المدمن الذي يحتاج جرعة المسكن ولا أمتلكها، ظلت في حلقي مرارة وغصة في قلبي لفترة طويلة، كانت أمي تحاول تجنب الحديث معي كي لا أتذكر آلامي، وكان أبي يسخر من ذلك الحشرة هكذا كان يلقبه ويقول لي أنت ست البنات وتستاهلي أمير مش صرصار، مؤازرتهم كانت مهمة ولكن أيضًا بعدي عن المكان كان أهم، كانت تلك الإجازة بمثابة فترة نقاهة استعدت فيها نفسي وتغلبت على جرحي، وجود أهلي كان مهمًا كي أتخطى تلك المرحلة التعيسة، وحين شعرت بالشفاء التام قررت العودة لعملي فما زالت لدي أحلامي ومصرة على أن أبلغها، راسلت مدير الشركة وفي غضون أسبوع كنت بالدوحة أستعد لأبدأ رحلاتي وحياتي من جديد.

(١٦) بلد الأحلام

كنت سعيدة بجدول رحلاتي والذي تضمن رحلتي إلى ميونيخ، ثالث أكبر المدن في ألمانيا.

بعد أن التقيت ببقية الطاقم وانتهينا من الروتين اليومي للرحلة من تعارف وطرح أسئلة أمنية وخدمية، انتهينا بوجودنا داخل بطن الطائر الكبير إيرباص٣٠٠، كنت سعيدة بوجود الطاقم الذي تم انتقاؤه من كل بستان زهرة، أذكر «وسيم» الشاب الباكستاني الخلوق الذي تحمَل مشقة مساعدتي في كل شيء، كان مهذبًا وخجولًا، مما جعلني أشعر بالراحة لوجوده معي في الدرجة السياحية رغم أنه أقدم مني في الشركة.

في شركتنا يتم تقديم الخمور وتلك كانت عقبة بالنسبة لي، لست من هؤلاء مدعي التدين، ولكن كان يتملكني دائمًا هاجس الموت في الطائرة، ولا أريد أن أموت على فعل يغضب الله.

طلبت من زميلتي «كاثرين» البريطانية أن تقدم هي المشروبات الكحولية على أن أتولى أنا تقديم الوجبات، رحبت بكل أدب، وبالفعل تولت هي تقديم الخمور طوال الرحلة.

جلسنا بعد انتهاء الخدمة وسألتني كاثرين : كثير من المسلمين لا يمانعون تقديم الخمور، بل ومنهم من يحتسيها، هل هذا ضعف إيمان؟

صراحة السؤال هزني في داخلي، أجبتها: هل تعتقدين أن لنا الحق في الحكم على إيمان الآخر؟! أجابتني بابتسامة جميلة قائلة بالتأكيد لا، ثم استطردت قائلة: كنت أفكر كثيرًا في الإسلام منذ وصولي للدوحة، ولكن من سوء ما رأيت من مسلمين كثر في رحلاتنا وغيرها أعدت التفكير مرة أخرى.

لم أحاول أن أبرر لها ما يفعله البشر، فنحن جميعا خطاءون، ولكني قلت لها: كثير من المسيحيين واليهود ومن جميع الأديان لا يلتزمون بتعاليم دينهم، ولا يمثلون الدين، هم بشر والبشر خطاء، نصحتها بالقراءة عن الدين، وعدم اتخاذ الناس وسيلة للتعرف عليه، فنحن البشر مهما ارتقينا، ما زلنا قاصرين عن الفهم الكامل للدين، ولذلك من الأفضل أن تقرأ القرآن وتكتشف مدى جماله بنفسها.

وصلنا سالمين مرهقين وبعد أن اتفقنا على الالتقاء لاحقًا هرعت لغرفتي وكالعادة قفزت في أحضان السرير منهكة، لم أستغرق ثواني حتى غطت في ثبات.

في تمام الساعة ٢ ظهرًا كنت في بهو الفندق، وجدت وسيم وكريستينا والكابتن ومساعده منتظرين، وقد تأخر بقية الزملاء، فقررنا الانطلاق لاستكشاف البلدة، وبالفعل ذهبنا سيرًا إلى محطة الترام القريبة جدًا من الفندق، الطقس رائع، والمكان يكسوه لون الأشجار والعشب الأخضر النضر، والطقس شتوي جميل، حيث كانت الشمس ترسل أشعتها على استحياء.

بعد صعودنا للترام تذكرت عدم شرائنا للتذاكر، قال لي وسيم: عادة لا أحد يسأل عن التذاكر اطمئني، وبالفعل لم يسألنا أحد، ورغم ذلك وجدت

المواطنين يصعدون ويختمون التذكرة رغم عدم وجود رقيب!! مما دفعني لأجد إجابة لسبب انتشار الفساد في بلادنا العربية، «لا يوجد رقيب ولا ضمير» حتى نحن لم يؤنبنا ضميرنا ونحن نفعل ما ننتقد به غيرنا.

وصلنا لمحطة «مارين بلاتز» شارع كبير ينبض بالحيوية والجمال، نعم تجد الجمال في كل شيء، في الجو الرائع، وفي قطرات المطر، وفي هؤلاء الشحاذين المبدعين الذين يسعدوننا بمهاراتهم في الغناء والرسم والرقص وغيرها من الفنون المختلفة، لا يمدون أيديهم ولا يثقلون على الناس بدعواتهم وقصصهم المريرة، فقط يضعون علبة صغيرة أمامهم ويبدأون في عرض مهاراتهم، ولو أعجبك ما يقدمون تدفع المقابل الذي ترتضيه أنت في تلك العلبة، وجدتها طريقة مثالية للعرض والطلب، فيها من عزة النفس الكثير.

ابتعنا آيس كريم والتهمناه رغم برودة الطقس، لكن الحماس بداخلنا كان كافيًا لتدفئتنا، ظللنا نستكشف الشوارع التي بدت لي وكأنها مغسولة بالشامبو، لم أكن مهتمة بالتبضع، لكني كنت مستمتعة بكل لحظة هناك، تناولنا الغذاء في مطعم متواضع، طلبنا سمكًا مع قطع بطاطس مطهية في الفرن، كان لذيذًا لدرجة أنني كنت على وشك أن ألتهم البقايا في الصحن المقدم لي بأصابعي، ولكني خجلت.

تابعنا جولتنا بالسير دون كلل أو تعب، دقت الساعة ٦، بدأت الناس تتزاحم أمام الكنيسة، الفضول دفعني أن أنتظر معهم حينها بدأت تصدح من داخل الكنيسة تراتيل بصوت جميل، ذكروني بالأذان، استمتعت بها ثم دخلت

الكنيسة، بدت جميلة كما لو كانت تحفة معمارية أثرية، تذكرت المساجد القديمة في مدينة الألف مئذنة (القاهرة).

قارنت بين مدى اهتمام الدولة في «ميونيخ» بالكنائس والمباني الأثرية ومدى إهمال دولتنا للآثار والتي تشكل ثلث آثار العالم، ومنها المساجد والكنائس الرائعة الجمال..

على الجهة المقابلة للكنيسة، محل عُرضت فيه تماثيل بملابس داخلية، هكذا اعتقدت، ولكن مع اقترابي من المحل اكتشفت أنه محل لبيع أدوات وأفلام جنسية، تسمرت قدماي وجحظت عيناي، مر من أمامي أناس كثر منهم رجال ونساء، دخلوا المحل وخرجوا وكأنه محل ملابس مثلًا.

سمعت صوت وسيم خلفي يعرض عليّ شراء بعض الكستنة المشوية، التفت له وكان وجهي مثل الجمر التي شويت عليها حبات الكستناء، ضحك وسيم وكأنه قرأ أفكاري، قال لي هنا كل شيء مباح ومسموح، ورغم ذلك لا يوجد تحرش أو اغتصاب أو غيرها مما نراه في بلادنا، ترى لماذا وصلوا لهذا الكم من الحرية، ورغم ذلك نشعر بالأمان هنا أكثر من بلادنا التي تهتم بالتدين الظاهري، حتى الحرية لا مكان لها سوى في قصص الأدباء.

وتساءلت مرارًا: هل تصح المقارنة بين ألمانيا بلد الأحلام وبلادنا مقبرة الأحلام؟!

عدنا للفندق بعد جولتنا القصيرة، حاولت البحث عن قناة إنجليزية أو عربية لمشاهدة أي شيء حتى يغلبني النعاس ولكن للأسف لم أجد، فقررت أن أنهي يومي بالنوم ولكن لم تنتهِ زيارتي للبلد بعد.

بدأت يومي الثاني في ميونيخ بحمام ساخن، كم أستمتع بتلك المياه الساخنة، التي ينبعث منها الدخان؛ لتشعرني بدفء الحياة المزيف، خاصة عندما يكون الطقس باردًا، متعة خاصة مثل شرب كوب من الكاكاو الساخن، وحمله بين أصابعي المتصلبة من البرد، الذي استمتعت باحتسائه عند مدخل الفندق بعد أن تجهزت لاستكمال جولتي في ميونيخ، كان آخر يوم لي هناك فقررتُ الخروج وحدي، أحيانًا أحتاج لتلك المساحة؛ كي أنطلق منفردة، أو هكذا أصبحت بفعل الغربة والوحدة التي تأقلمت معها،

بدأت أستكشف المكان حول الفندق حتى وصلت للحديقة الإنجليزية التي تزينت بأشجارها الفارعة الضخمة التي تشبه الألمان، أحيانًا نتشابه مع بيئتنا المحيطة.

يتوسط الحديقة بحيرة في منتهى الجمال تحتضن عائلات من البط، المنظر ساحر والجو البارد أضاف جمالًا لهذا الجمال والمارُّون من الناس معظمهم أحضر معه كلبه، إنهم يعشقون الكلاب، رأيت أشكالًا وأنواعًا منها لم أرَها حتى على شاشة التلفاز.

كان موجودًا أعداد كبيرة من الناس، اقتربتُ من مطعم صغير مصنوع من الخشب وضع حوله مجموعة من الكراسي والطاولات، قررت تناول الفطور هناك، ما أعجبني أنه يقوم بتحضير الساندويتش أمامي، ابتسمت عندما تذكرت صديقتي التي وجدت صرصارًا في ساندويتش الفول الذي ابتعناه من محل معروف في بلدي الحبيب..

طلبت ساندويتش جبنة بعد أن اشتهيت الهوت دوج المشوي أمامي، سألت النادل: هل اللحم بقري أم؟ وقبل أن أنهي جملتي قال: إنه لحم خنزير (خرام) وهو مبتسم.

تناولت فطوري مع كوب ساخن من الشاي، وأنا أحدق بمتحابين يقبلان بعضًا على الملأ، نظرت حولي وجدت أنه لا أحد يكترث، الكل مشغول في الاستمتاع بجمال المكان والأكل والنقاش مع الأصدقاء أو باللعب مع الكلاب.

مرة أخرى وجدتني أتذكر عندما كنت أتمشى على كورنيش النيل ببلدي المقهورة « القاهرة » وسمعت من الألفاظ الإباحية الكثير، والتي كانت مقبولة لرجل أربعيني الذي برر تلك الألفاظ قائلًا: «أصلك حلوة هيعملوا إيه؟»، نفس الشخص شمر عن ساعديه لضرب رجل قبَّل خطيبته على خدها وهما جالسان على سور كورنيش النيل.. مجتمع الشيزوفرينيا.

اقترب من منضدتي شاب ثلاثيني، سألني بلهجة ألمانية وكلمات إنجليزية إذا كنت من بلغاريا، أعتقد كان يحاول أن يفتح أي موضوع، كنت فظة بعض الشيء، لعلها أفكاري الشرقية كانت السبب، ولكنه كان لطيفًا لدرجة أخجلتني من نفسي، سألني عن بلدي، ثم أثنى على تاريخ مصر الفرعونية، ثم أخرج تذاكر مكتوبًا عليها حفل أكتوبر فيست، قال لي: أريد أن أدعوكِ للاحتفال بمهرجان «أكتوبر فيست».

سألته عن المهرجان، قال لي إنه المهرجان الأشهر والأكبر في تاريخ ألمانيا، يحتفلون به سنويًا بالطعام وكؤوس البيرة والرقص والموسيقى، وددتُ أن

أذهب، ولكني خفت، ويا ليتني ذهبت على الأقل كان من الممكن أن يتغير مسار حياتي وأعيش قصة حب مع هذا الشاب الوسيم.

في طريقي لوسط البلد قررت أن أشتري تذكرة للترام كي أشعر أنني متحضرة، وحمدت ربي أني فعلت ذلك، خاصة عندما علمت أن زميلتنا «تينا» اضطرت لدفع ٥٠ يورو في نفس اليوم مخالفة لركوبها الترام دون تذكرة.

ذهبت لنفس المحطة، قضيت ما يقرب من ساعتين في التسوق، التخفيضات في كل مكان، التقيت «وسيم» واثنين آخرين من الطاقم، تناولنا شرائح البيتزا اللذيذة، ثم انطلقنا في الشوارع التي ازدحمت بباعة كثر يحملون كاسات البيرة الكبيرة، وآخرين يشوون «أبو فروة» الذي ابتعت منه الكثير.

أمام الكنيسة كانت هناك فرقة موسيقية بدأت بعزف قطع متنوعة لموزارت وبيتهوفن وغيرهما، التففنا حولهم وقد كان عددنا محدودًا، إلى أن قرر رجل عجوز الرقص، مد يده لسيدة خمسينية التي اندمجت في الحال على أنغام الموسيقى، ثم انضم الكثير للرقص معهم.

أصبحت الساحة كلها متفرجين وراقصين، ثم بدأت الفرقة بعزف أغنيات معروفة لفنانين عدة، وبدأنا نردد ما نعرفه بصوت عالٍ، كنت أغني، كما لم أغنِّ من قبل، لم أشعر بالخجل، شعرت بالانطلاق والحرية والسعادة، كانت إحدى اللحظات التي عشتها بسعادة مطلقة دون تفكير.

عُدنا للفندق، حيث التقينا الكابتن ومساعده ثم توجهنا للمطعم الصغير الذي تناولت فيه فطوري صباحًا في الحديقة التي قد تزينت بالأضواء والزينة للاحتفال بالمهرجان.

ازدحمت الحديقة بأعداد كبيرة من الناس، حملنا عشاءنا وجلسنا على النجيلة مثل الكثير من الألمان، استمتعت بسماع النكات ومشاركة القصص والضحكات والأغاني أيضًا.

كان الألمان يحتفلون بجنون، يحتسون الكثير من البيرة ثم يتقيؤون، ولكن رغم حالة السكر المقرفة تلك لم يتجرأ أحدهم على التحرش بشخص آخر.

عند عودتي للفندق لم أستطع النوم، حدث ما كنت أخشاه.

(١٧) زارني الجاثوم ؟!

عند عودتي للفندق أعددت حقيبتي، ثم صليت المغرب والعشاء قصرًا كالعادة، فأنا أصبحت دائمًا على سفر، كنت أؤديها وأنا متعبة، والنوم يداعب جفوني، تأكدت أن المدفأة تعمل؛ نظرًا لبرودة الطقس، ثم دلفت تحت الغطاء متعبة، وفي لحظات شعرت به، علمت أنه سيزورني.

بدأ قلبي ينبض بسرعة شديدة، ثم سمعت صوت قطار مزعج جدًا كأنه يخترق طبلة أذني، حاولت قراءة آية الكرسي، ولكن للأسف لساني أصابه الشلل مثل سائر جسدي، وددت أن أصرخ أو حتى أن أرغم نفسي على السقوط من على السرير، ولكني لم أستطع أن أحرك مقلتيا، كانت عيناي مفتوحتين، وكنت يقظة، ولكن مشلولة على غير إرادتي، ظللت أحاول باستماتة أن أحرك لساني، وبعد مرور فترة لا أعلم كم من الوقت، بدأ لساني بالحركة البسيطة، بدأت أهمس كل الآيات القرآنية التي أحفظها، ثم علا صوتي شيئًا فشيئًا حتى وصل حد الصراخ.

سقطت دموعي من الخوف وأنا أحاول دفع نفسي عن السرير، وبالفعل نجحت وسقطت أرضًا، ثم وقفت أنظر حولي في هلع لعلي أستطيع أن أراه.

إنه الجاثوم، الذي اغتال براءة أحلام طفولتي حين داهمني أول مرة وأنا أغط في نوم عميق، كنت وقتها في الصف الثاني الإعدادي، حينها وددت الصراخ على أمي كي تنقذني منه، ولكن للأسف عشت تلك الدقائق المريرة بصعوبة، حتى انتهى هذا الشيء من تعذيبي، وانتفضت من سريري مسرعة

لحضن أمي، وأنا أبكي بشدة، كنت أحاول أن أشرح لها ما حدث لي، ولكني فشلت.

كنتُ أحملُ معي مصحفًا صغيرًا في حقيبتي، توضأت وجلست أقرأ بعض الآيات كي يطمئن قلبي،

بعض الأطباء فسروا تلك الحالة بأنها عرض ما بسبب خلل موضعي بالجسم، مما يسبب شللًا مؤقتًا، إلا أنني لا أصدق نظريتهم لأنني بعد فترة أصبحت أستشعر وجوده في الغرفة قبل أن يقوم بشل حركتي، إنه كائن غير مرئي، لعله جني أو عفريت أو روح مجندة.

لم أستطع النوم ثانية خوفا من أن يداهمني مرة أخرى، بقيت مستيقظة حتى الصباح، استعددت لرحلة العودة، حملت أشيائي، وحقيبتي ثم توجهت لبهو الفندق، لم يكن بعد وقت التجمع، ولكني آثرت الجلوس وسط الناس، وجدت «سينثيا» مشرفة الرحلة هي الأخرى جالسة، تعجبت وسألتها عن سبب وجودها، وقد بقي نصف ساعة على التجمع، وجدت عينيها ممتلئتين بالدماء التي تدفقت في شرايينها مثل انتشار أشعة الشمس في السحب، قالت لي: لن تصدقيني مهما حاولت أن أشرح لكِ.

وقتها فقط تأكدت أن الجاثوم قد زارها هي الأخرى، ولكن معها كان له قدرات أكبر؛ حيث قالت لي بعد أن أخبرتها عما حدث معي، أنها كانت تحاول النوم حين فاجأها ضباب غريب هبط عليها، وقتها شعرت بالخدر، والشلل في جسمها ولسانها، حاولت أن تتحرك أو تصرخ، بعد دقائق بدأ فعل الخدر يزول، حركت يدها مسرعة لجذب كتاب «الإنجيل» أو الصليب الذي وضعته بجوار

السرير، ولكنها شعرت بأن هناك قوة صفعتها على وجهها، ثم اختفى الضباب، حملت أغراضها وهي تصرخ حتى هبطت لبهو الفندق؛ اهتم بها موظف الاستقبال وقدم لها مفتاح غرفة أخرى، وعرض عليها أن يستدعي لها دكتورا، كان يشك أنها تحت مفعول مخدر ما أو أصابتها هلوسة، خاصة أنها كانت مرتدية البيجاما وترتعش من الخوف، ولكنها رفضت رؤية طبيب وذهبت للغرفة الأخرى، وظلت مستيقظة حتى بزغ النهار ثم هبطت بعد أن استعدت للرحلة، مسكينة أول مرة يزورها الجاثوم، ولكن لا أعلم هل فعلا صُفعت أم من خوفها هيئ لها ذلك؟! الغريب أن وجهها مكان الصفعة كان لونه أحمر بعض الشيء.

كانت رحلة العودة متعبة جدًا، خاصة أنني كنت أقاوم النوم بصعوبة، مع الهبوط عندما لامست عجلات الطائرة أرض المطار وجدتني أنتفض، وكأني كنت غارقة في نوم عميق، حمدت الله أني كنت جالسة في الخلف؛ حيث لا يراني أحد.

انتفضت مرة أخرى عندما أيقظني السائق بصوته، وهو يضحك : لقد وصلنا لسكنك، كنت متعبة لدرجة أن ضحكاته بدت لي صراخًا مزعجًا، كنت عصبية جدًا بسبب عدم نومي ليلة واحدة، ولا أستطيع أن أتخيل كيف يتحمل أي شخص عدم النوم لمدة يومين أو أكثر، حملت حقيبتي وتوجهت إلى سريري حاملة معي خوفي من كابوس الجاثوم الذي قد يزورني مرة أخرى.

(١٨) أنا شربت حشيش يا سعاد

في الصباح، وبعد أن استمتعت بنوم عميق دون منغصات ولا كوابيس، أفقت على صوت حركة في صالة الشقة، وجدت «ماري أرمسترونغ» جالسة في غرفة المعيشة وإلى جوارها فتاة جميلة، عرفتني عليها ماري قائلة:
«مارغريتا» من روسيا، رفيقة سكنك الجديدة يا عزيزتي، بدت لي «مارغو» كما كنت أدعوها فتاة جميلة نعومة، مدت يدها لترحب بي في حين أن عينيها تظهران قلقًا شديدًا مني، ولا أعلم ماذا أخبرتها ماري عني، ولكني أشفقت عليها، علمت منها أنها كانت تعمل منسقة بالسيرك الروسي.

سألتها عن سبب رغبتها في العمل بدولة عربية، قالت لي إنها تبحث عن رجل يتزوجها ويحمل عنها أعباء الحياة؛ لأن الرجال في روسيا جميعهم يريدون أن يتمتعوا بالفتاة ثم يتركوها في منتصف الطريق، قلت لها إنهم لا يختلفون كثيرًا عن الرجال هنا، فكثير منهم يرون أمثالها عاهرة مستباحة يستغلونها عاطفيًا وماديًا، رغم أن العهر يتمثل فيهم وفي أخلاقهم وضمائرهم الميتة.

أصبحنا أصدقاء في خلال أيام قليلة، كانت ترافقني في كل مكان، إنها الوحدة التي تفرض علينا الالتصاق بمن يشعرنا بالألفة، كنت أصطحبها معي لمقهى الإنترنت، علمتها كيفية إنشاء حساب لها على «الهوت ميل»، كما علمتني «حفصة» سابقًا، ولكنها آثرت أن تجلس بجواري، وأن تتحدث مع أهلي.

كنت أطهو الطعام الطازج وأتخلص من البقايا، خصوصًا أنني من الصعب أن أتناول طعامًا بائتًا أو بقايا، ولكن مارغو كانت خبيرة في صنع أطباق لذيذة من تلك البقايا.

في أحد الأيام وجدت مارغو في المنزل ومعها شاب عربي، وقالت لي إنها تنتوي الزواج منه، وإن من حقها استقباله في المنزل، بالفعل هو حقها، ولكن أين حقي أنا في الشعور بالراحة في منزلي، وكما توقعت خلال أيام اكتشفت أنه ليس إلا عاهر آخر!

عدت من إحدى الرحلات في وقت متأخر، لم أجد مارغو، فقررت أن أشاهد أحد الأفلام في المنزل، فتحت البراد باحثة عن عصير فوجدت زجاجة مياه بداخلها مشروب يشبه القهوة بالحليب، تذوقته فوجدته لذيذًا، ولقد اعتدت أنا ومارغو مشاركة الطعام والشراب؛ لذا لم أتردد في صب كوب منه.

عند عودة مارغو سألتني عن القهوة، فقلت لها إنني شربت منها، فوجئت بها تعتذر لي بشدة، وفاجأتني بان ما شربته ليس بقهوة، لكنه مشروب يسمى بيليز، ويحتوي على نسبة قليلة من الكحول، وبما أنه ممنوع شرب الخمور داخل السكن، فتحايلت مارغو بوضع ذلك المشروب في زجاجة مياه للتمويه.. تذكرت وقتها عادل إمام في فيلم «كراكون في الشارع» عندما قال: «أنا شربت حشيش يا سعاد».

طلبت منها عدم إحضار خمور للسكن، رضخت لطلبي، خاصة بعد توضيحي لها عدم قدرتي على الصلاة في مكان به خمور.

من عشرتي معها اكتشفت أن الروسيات والرومانيات يتمتعن بحس فكاهة كبير، فكنت أستمتع بصحبتهن، إلى جانب تشابُه العادات بيننا، على سبيل المثال، عندما صنعت قالبًا من الكريم كراميل وأهديته لجارتي الرومانية «ألكس»، أعادت لي الطبق وفيه قطع كيك، تماما كما نفعل.

بعد يومين من الراحة كنت في الطائرة أستعد لرحلتي إلى «تريفاندروم» بلدة صغيرة تقع على المحيط الهندي، والتي لن تتعدى زيارتي لها مدة يومين، اجتمع بنا الكابتن ومساعده للتعارف ولتزويدنا بمعلومات عن الرحلة وساعات الطيران.

بعد الإقلاع أصبت بصداع شديد من كثرة طلبات الركاب للخمور، كنت اتفقت سابقًا مع زميلتي الكورية «شي» بأن تقدم هي الخمور وأقدم أنا الوجبات، كنت أتحايل بشتى الطرق لكي لا أقدمها، ورغم أن الإدارة علمت برفض كثير من المسلمين خاصة العرب من تقديمها وأصدرت بيانًا بأنه من يرفض تقديم الخمور سيتم طرده فورًا، خاصة أنه مكتوب بوضوح في بنود العقد بأنه من المهام الوظيفية تقديم الخمور إلا أنني كنت أرهب ذلك جدًا، وافقت «شي» بكل أدب، الفتيات الكوريات يتمتعن بالرقة والأدب الذي يفتقده الكثير.

الطائرة أصبحت معبأة برائحة الخمر الخانقة، وأصبح كثير من الركاب في حالة سكر، مما دفعنا جميعًا للتوقف عن تقديم أي مشروبات لهم، وتعجبت من حبهم الشديد للخمور!

كنت أعتقد أن المسلمين الذين يشربون الخمر بدافع الممنوع مرغوب، ولكن هؤلاء الركاب لا يمنعهم دينهم ولا معتقداتهم عن شرب الخمر، ويتجرعون

منه الكثير، ما هو هذا الشيء الذي يدفعهم لحب الخمور بهذه الطريقة؟!

انتهت رحلتنا أخيرًا بعد معاناة من طلبات السكارى؛ حيث أقلتنا السيارة للفندق، الذي يقع على هضبة عالية تطل على المحيط ويا له من منظر رائع.

كانت الساعة الثامنة مساء، اتفقنا على التجمع للعشاء بعد ساعتين، ولكني كنت متعبة جدًا فتكاسلت عن النهوض في الموعد المحدد ويا ليتني نهضت.

في تمام الساعة الـ٣ صباحًا، فزعت على صوت ارتطام شديد، فتحت عينيّ ولم أستطِع رؤية شيء، حركت يدي ولكن الظلام كان حالكًا، للأسف أنا أعاني من فوبيا الظلام والأماكن المغلقة، هرعت من داخل الغرفة بعد أن تخبطت بكثير من الأشياء، حتى وصلت للردهة التي يخترقها شعاع ضوء بسيط، كنت أرتعد خوفًا، أصوات الارتطام تتوالى ولا أعلم مصدرها، هرولت إلى مصدر الضوء وجدت نفسي في ردهة الاستقبال، وفيها موظف جالس، ما إن رآني حتى انتفض، لعله خُيل له أنني شبح.

اقترب مني مناديًا زميله، كنت أرتعد وقلبي يخفق بشدة وصوتي مبحوح من الخوف، أحضر لي كأسًا من المياه، وقال لي إن الكهرباء قطعت في الفندق، وإن ذلك شيء اعتيادي، هدأت قليلًا وسألته عن أصوات الارتطام التي ما زلت أسمعها، علمت منه أن الفندق يقع على هضبة، وأن موجات المحيط تتدافع وترتطم بالصخور أسفل الفندق، مما يصدر عنها تلك الأصوات.

كانت ليلة ليلاء، قررت البقاء في الردهة إلى أن يبزغ النهار حتى أستطيع العودة لغرفتي، وما إن اخترقت أشعة الشمس نوافذ الفندق حتى اطمأننت،

وذهبت مسرعة لغرفتي قبل أن يتوافد زوار الفندق لساحة الاستقبال ويروني هكذا بالبيجاما.

(١٩) أُم العجائب

الهند كانت من الدول التي تمنيت زيارتها، وكنت سعيدة بوجودي في تريفاندروم، عاصمة كيرلا، المدينة الأكبر في الهند، ورغم أن أول ليلة لي هناك لم تكُن مبشرة، لكني عاهدت نفسي أن أستمتع بما بقي لي من وقت هناك، وبما أن « تريفاندروم» بلد ساحلية، إذن لا بد من زيارة الشاطئ والتجول في الطرقات والتلصص المشروع على أهل تلك البلدة، والتي سمّاها المهاتما غاندي باسم «المدينة الهندية الخضراء».

استأجرت «توك توك»، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى تلك الوسيلة للمواصلات، وجدته عمليًا وسريعًا، ولكن المطبات كانت عذابًا، تجد رأسك يلتصق بسقف التوك توك، ثم تسقط بمؤخرتك بقوة على ذلك الكرسي الحديدي، يا لها من معاناة.. أعتقد أنه كان من وسائل التعذيب سابقًا.

على الشاطئ بدأت أتلمس خطواتي، وأنا مستمتعة بمنظر المحيط، وتصارع أمواجه العالية، كنت أتصبب عرقًا من شدة الحر والرطوبة الفظيعة.

رأيت تجمعًا للناس على الشاطئ، دفعني الفضول إلى أن أقترب منهم، كانوا يودعون بعضهم البعض، لم أفهم بعد ماذا يحدث، إلى أن اتجه الرجال لحمل مراكب خشبية رفيعة تشبه قوارب التجديف، وسحبوها لداخل المياه ثم قفزوا بداخلها وهم حاملون المجاديف.

بكاء طفل صغير بجانبي لفت انتباهي، وجدته وأمه في حالة حزن، قررت أن أقوم بما أجيده وهو التواصل معهما.

سألتها عن سبب حزنها وبكاء طفلها، قالت لي بإنكليزية سليمة مثل الكثير من أهل البلدة: إن زوجها صياد، وإنه ذاهب للصيد وأن هذا الوقت من السنة ترتفع فيه الأمواج، وتكون خطرة جدًا، ومن الممكن أن يغرق.. لكن للأسف لا يوجد مصدر رزق آخر.. تفهمت حزنها وحزن الكثيرات وهن يلوحن بأيديهن لأحبائهن، وقلوبهن ساجدة تدعو لهم بالعودة سالمين.

على عربة خشب صغيرة مرصوص ثمار جوز الهند، كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها ماء جوز الهند، تمشيت على طول الشاطئ، وأنا ألتهم قطع جوز الهند من الداخل، وكانت لذيذة لدرجة أنني عدت مرة أخرى وابتعت ثمرة أخرى.

على الشاطئ لا يوجد كراسي ولا شماسي ولكن توجد حصائر من الخوص، عدد الأجانب كبيرًا جدًا، بالطبع فهم يبحثون عن مكان رخيص، ولا يوجد أرخص من هنا، ما لفت نظري هو وجود تلك الفتيات الشقراوات في أحضان الهنود، كما لو كان حجز الإجازة يشمل علاقة عابرة مع هندي «باكيدج»، والمدهش أن الحشيش يباع بدون أي مشاكل، وجدت شابًا يحمل أكياسًا وكأنها أكياس حنة، التف حوله الكثير من الأجانب والقليل من الهنود، كنت ممن التف حوله، رفع الكيس وأعطاني إياه طالبًا مني ٣٠ روبية.

تركته واستمتعت بالتمشية على الشاطئ؛ حيث كانت أغنية سعاد حسني «في الهند أم العجائب» تتردد في أذني، وأنا اتفنن باختلاق أحاديث مع المارة الذين كانوا مرحبين باستحياء، كما التهمت العديد من ثمرات جوز الهند اللذيذة، لم أجد الناس بنفس جمال نجمات ونجوم بوليوود، ولكني لمست جمال أرواحهم.

في طريق عودتي شاهدت الطيار ومساعده جالسين على أحد المقاهي الخشبية الصغيرة، نصحني الكابتن بأن أتناول غدائي في ذلك المقهى؛ حيث إنهم يقدمون أسماكًا طازجة، بالفعل طلبنا الغداء واستمتعت بأشهى وجبة سمك طازج مطبوخ بخلطة بهارات رائعة المذاق، نصحني النادل أن أبتاع البهارات الهندية، لأنها سبب في إعطاء الأطباق نكهة الهند الخاصة وهذا ما فعلت.

في طريق عودتنا لمحت صالونًا للنساء على مقربة من الفندق، وقررت أن أجرب حمام الزيت لعله يكون له مفعول السحر بشعري كما أشاهد شعور الهنود الكثيفة، وما إن دلفت الصالون حتى وجدتني في معبد صغير، تماثيل للآلهة في كل مكان، وبخور رائحته طيبة جدًا، عكس رائحة الشارع، وسيدة هندية كبيرة في السن حيَّتني قائلة «نماستي»، ومالت برأسها للأمام بكل أدب

أحببت طريقة ترحيبها تلك،

حييتها بنفس الطريقة وقلت لها أريد عمل حمام زيت، ابتسمت لي وقالت لقد طلبتي أفضل خدمة نقدمها، أشارت لي بالدخول لغرفة صغيرة بها سرير واحد وقالت استلقي هنا حتى أحضر الزيت الساخن،

خلعت بلوزتي وارتديت روبًا أعطته لي قبل خروجها من الغرفة واستلقيت على السرير في خلال ثوانٍ عادت ومعها صحن صغير وضعته على الطاولة بجواري ثم جلست على كرسي خلف السرير وبدأت تخلخل شعري بأصابعها وهي غارقة بزيت جوز الهند الذي كانت رائحتة قوية لدرجة أنني سعلت،

ضحكت وقالت لي أن زيت جوز الهند من أقوى الزيوت وأفيدها وبدأت تدلك رأسي ثم استطردت قائلة نحن نستخدم هذا الزيت في الطبخ وعلاج آلام القدمين وأيضا في مساج الجسم والشعر ولو علم الغرب فائدته لاستعمرونا من جديد للحصول على خيراته

قلت لها إنني أحب ثمرة جوز الهند خاصة قلبها الأبيض الذي لا طعم له، ضحكت وهي تدلك شعري حتى شعرت بالنعاس، ثم أحضرت خلطة فواكه طازجة وضعتها على وجهي، بعد أن قامت بتنظيفه بفوطة ساخنة، لم أطلب منها ذلك، ولكنها قالت لي حتى أعود مرة أخرى، محاولة لاستقطاب الزبائن وقد نجحت

سألتها عن أوقات العمل وعن مسكنها إن كان قريبًا أم بعيدًا عن المتجر، قالت لي إن هذا المكان هو بيتي ولقد حولته لصالون حتى يتثنى لي العمل وجمع المال كي أستطيع أن أدفع مصاريف دراسة ابني، بدأت تحكي لي عن ابنها الوحيد الذي يدرس الطيران في أميركا، وأنها جمعت مبلغًا كبيرًا منذ ولادته كي تؤمن له مصاريف الدراسة، وقالت متنهدة رغم كبر سني إلا أنني مضطرة للعمل حتى ينتهي من دراسته، وأطمئن عليه، شعرت من حديثها بدفء عجيب، قلب الأم يتسع لكل المتاعب فقط من أجل راحة أبنائها.

كانت قد أنهت تنظيف بشرتي وأشارت لي بالجلوس حاملة في يدها صينية عليها كوب من الشاي الأخضر وشرائح من البطيخ الطازج، نظرت لها نظرة شكر على هذا الكرم فقالت أنت مثل ابني وأنا أحب كثيرًا أن أدردش مع زبائني حتى لا أشعر بالوحدة، فسألتها عن زوجها قالت لقد توفى منذ سنين ولم أتزوج رجلًا آخر، لقد قررت أن أهب حياتي لابني.

وقبل أن أسألها كم مرة يزورك ولكنها سبقتني قائلة إنني لا أستطيع رؤية ابني سوى مرة واحدة في السنة خلال العطلة السنوية لمدة شهر وأشعر أنها تمر كلحظات قصيرة، أشفقت عليها وقررت أن أطلب منها تقليم أظافري أيضًا، حتى أستمتع بحديثها، وأساهم في مصاريف ابنها.

سعدت بطلبي وأحضرت لي طبقًا من الحلويات الهندية المشبعة بالسكر، مددت يدي وأخذت قطعة وكانت كافية شعرت أنني التهمت كوبًا من السكر المركز، قلت لها إنك تذكرينني بوالدتي وبيتك جميل وأنت أجمل ما فيه، ابتسمت وقد انتهت من تقليم أظافري، دفعت لها ما استطعت وقبلت رأسها وحضنتها، لا أعلم لماذا شعرت بحاجتها للإحساس بالحب أم تلك كانت حاجتي أنا.

انتهى يومي القصير بتلك الجلسة الممتعة مع هذه السيدة وتحت أناملها الرقيقة، وكانت هي ملاذي في كل مرة أزور فيها تريفاندروم، حملت معي من الشموع الكثير حتى أستطيع البقاء في الغرفة وأستعد لانقطاع النور ولزوار الليل.

انتهت الليلة بأمان وانطلقنا عائدين للدوحة، في رحلة العودة لاحظت نظرات حزينة في عيون الناس، أعلمها جيدًا، فلقد رأيتها في مرآتي كثيرًا، النظرة التي تعبر عن هموم عظمت في صدورهم، إنها الغربة والفرقة والوحدة وما تفعله بالروح، عند عودتي للمنزل اتصلت بأمي؛ كي تطمئن روحي.

(٢٠) قزقزة الصراصير

حياة المضيفات مختلفة تمامًا عن حياة الآخرين، فالسحاب يحتضننا معظم الوقت وما تبقى منه نقضيه في اكتشاف بلدان مختلفة،

عند عودتي من الهند، لم أجد «مارجو» ووجدت ورقة مطوية على الطاولة مكتوب فيها: «عزيزتي نهى.. لقد قررت الانتقال للإقامة مع صديقي، أرجو أن تتصلي بي عند عودتك.. مع حبي.. مارجو».

اتصلت بها على عجل لأحذرها، مسكينة لم تكن تعلم أن سكن المضيفات مراقب بالكاميرات طوال الوقت، وأنه غير مسموح بالتأخر بعد الساعة ٣ صباحًا، وممنوع منعًا باتًا المبيت خارج السكن، كما أنه ممنوع دخول أي زائر بعد العاشرة مساء، عادت للسكن وهي خائفة من فكرة إنهاء عقدها

كثير من الناس يعتقدون أن حياة المضيفات مثيرة وممتعة، ولكن لا يعلمون كمّ القيود التي تكبلنا، حتى إنه كان هناك شرط عدم الزواج خلال الـ٥ سنوات الأولى من العمل، ورغم ذلك كانت بعض الفتيات يتزوجن في السر وأخريات كن يحصلن على موافقة من مدير عام الشركة شخصيًا ليتفادوا شره، والذي كان يتفنن في التدخل في كل صغيرة وكبيرة واجتهد كي يبني سمعة طيبة وصورة ذهنية راقية للشركة، ولكن كل ذلك على حساب الموظفين الذين أفنوا وقتهم ومجهودهم لخدمة الشركة، كل ذلك لم يوقف حالات التعسف مع معظمهم، والتي تنتهي بالتفنيش لأسباب تافهة جدا، منها أن لون الجوارب

أفتح من لون البشرة، ويتم بسببها التخلص من الموظفين غير المرغوب فيهم.

أتذكر زميلتي دعاء التي كانت تدخن سيجارة في سيارتها أسفل السكن بعد عودتها من إحدى الرحلات ولسوء حظها شاهدها المدير التنفيذي ومباشرة تمت إقالتها، تخيلوا أن يتم رفدها من عملها لأنها دخنت سيجارة خارج ساعات العمل الرسمية أي ديكتاتورية هذه!!

عند عودتي من إحدى الرحلات الطويلة والمجهدة وجدت خطاب ترقية في صندوق البريد، سعدت بترقيتي سعدت بترقيتي، حيث وجدت تغييرًا في جدول رحلاتي ليشمل أسبوع تدريب على الخدمات الخاصة بدرجة رجال الأعمال، وقبل بدء دورة التدريب حظيت بأربعة أيام إجازة، قررت السفر إلى القاهرة لزيارة أهلي وكنت قد قدمت الأوراق لاستضافة والدتي حتى تعود معي على نفس الرحلة، حيث إن قوانين الشركة تسمح باستضافة الوالدين مدة ١٥ يومًا، من أفضل مميزات العمل في شركات الطيران هي فرصة الحصول على تذاكر مخفضة؛ حيث ندفع ١٠٪ فقط من ثمن التذكرة، ولكن نظرًا لأن تلك التذاكر مخفضة، تظل غير مؤكدة، ولذلك علينا أن نجرب حظنا، ونظرًا لأني محظوظة في كل شيء لم أجد مقاعد متاحة في الطائرة يوم عودتي، مما ترتب عليه تأجيل سفري لليوم التالي، عند وصولي كانت دورة التدريب بدأت وتمت تنحيتي من الكورس وتأجيل ترقيتي بسبب تأخري في العودة.

شعرت بالقهر، خصوصًا أن كثيرًا من الفتيات تأخرن مثلي ولكن لم تتم معاقبتهن هكذا وأيضًا أمي التي أحضرتها معي كي أجلس معها الآن سأتركها

لأسافر، بكيت كثيرًا وتوجهت لمدير قسم الضيافة «ساليا» في محاولة لإثنائه عن معاقبتي ولكنه أبى أن يسمع لي، خصوصًا أنني رفضت أن أكون عصفورته في بداية عملي، عندما طلب مني أن أراقب زميلاتي وأن أقدم له تفاصيل عن حياتهن الشخصية وأن أشي بمن يخترق قوانين السكن والعمل..

وجدت رسالة من منظمي جداول الرحلات بتغيير جدولي؛ لكي أقوم برحلة إلى بانكوك، والتي كانت الأطول بين الرحلات؛ حيث نقضي فيها ١٠ أيام نقوم خلالها برحلة قصيرة إلى مانيلا، والعودة إلى بانكوك ثم العودة للدوحة، تلك الرحلة كان يتسابق عليها الكثيرون بسبب طول مدتها، وساعات الطيران التي تنصب في مرتب الشهر، ولكني كنت أفكر في الاعتذار عنها؛ نظرًا لوجود أمي، كيف سأتركها وحدها وأسافر؟

طرأت لي فكرة أن آخذها معي، ولِمَ لا؟، توجهت لمكتب القطرية وسألت عن الفيزا، التي اتضح أنها لا تحتاج لها، وبناء عليه حجزت لها التذكرة وقتها لم يكن معي ما يكفي من المال، لذا قررت الاقتراض من حفصة، سافرت ومعي مبلغ ١٥٠٠ ﷼ قطري فقط.

كنتُ متحمّسة جدًا لسفر والدتي معي، جهزنا الحقيبة معًا، جلسنا نتحدث عن ماذا سنفعل هناك؟ وكيف ستكون الرحلة؟ وكان قلقنا الوحيد أن تكون الرحلة ممتلئة، ولكن ربنا ستر، المقاعد الخاوية كثيرة، استغللنا الفرصة وحجزت لوالدتي صفًا مكونًا من ٤ مقاعد معًا حتى يتسنّى لها النوم خلال الرحلة التي تجاوزت ٧ ساعات طيرانٍ، كانت مرهِقة ومتعِبة ولكنها ممتعة بوجود أمي.

لم أكن الوحيدة المصطحبة أمي، كانت زميلتنا المغربية هدى مصطحبة زوجها معها في الرحلة، حيث تفنّنا أنا وهدى في تقديم الفواكه والمكسرات التي أحضرناها من الدرجة الأولى، حتى الوجبات حاولت أن أجد أطباقًا لذيذة لوالدتي التي آثرت النوم.

مرت السبع ساعات بسرعة على غير العادة، لعلها الحماسة للوصول واستكشاف البلدة مع أمي، عند الهبوط طلبت من كابتن «عادل» الأردني أن أصطحب أمي معي في باص الشركة للفندق، وافق ورحب بأمي ودعانا جميعًا لتناول العشاء معًا.

وصلنا للفندق حيث كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا، كنت متعَبة جدا، لذا تركت أمي تستكشف قنوات التلفاز وغطْطتُ في نوم عميق أفقت منه على رنين الهاتف، كان الكابتن يؤكد حضورنا لبهو الفندق خلال ساعة للخروج لتناول العشاء. عند نزولنا، كان تقريبا كل الطاقم موجودا بالردهة أمام باب الفندق، تقدم الكابتن نحونا وسلّم على والدتي ورحب بها بكل أدب، كم أسعدتني طريقته واهتمامه بوالدتي، كما بادر بالسلام على زوج هدى الذي لم أكن أعلم أنه لاعب كرة معروف.

أقلتنا سيارة كبيرة من الفندق إلى مطعم «سي فود ماركت» المشهور، كان المطعم يشبه سوق الأسماك؛ حيث يعرض جميع أنواع السمك الطازج على طاولات كبيرة وبجوارها طاولات أخرى معروض عليها أنواع الخضراوات والفواكه المختلفة التي يتم استخدامها في الطهي؛ حيث يختار الزبون السمك الذي يحلو له والخضراوات التي يريدها ويقدمها للطباخ، حتى طريقة

الطهي متروكة للزبائن. أعجبتني الفكرة جدًا؛ حرية الاختيار في كل شيء ولكن طبعا كله بثمنه.

اقترح الكابتن أن يختار للجميع الأطباق المعروفة لتذوقها، كما أعلن أنه سيدفع الحساب وليس علينا أن نقلق من الفاتورة، ساعتها تنفّست الصعداء، فحالتي المادية لا تسمح، فعلًا ربنا حليم ستار.

استمتعنا جميعًا بالتهام كل الأصناف التي وُضعت أمامنا في وقت قصير، ووقعت في غرام شوربة «تام يام» التايلاندية المعروفة بمذاقها الحريف واللذيذ جدًا.

اختتمنا جلستنا بأكواب من الشاي بالنعناع، ثم عدنا للفندق متعَبين، ولكن لفت نظري أن طقس البلد حار ورطب جدًا، كم أكره الرطوبة وهذا الشعور (بالتلزيق) الذي يفسد متعة التنزه في الهواء الطلق.

في الصباح الباكر قررنا الخروج لاستكشاف البلدة، أشرت للتوكتوك الذي ما إن ركبناه حتى انطلق بين السيارات كأنه فارس مغوار يخترق البحار ويتجاوز الأسوار، كانت علامات الضيق على وجه أمي واضحة، ولكن ما باليد حيلة.

وصلنا للمكان الذي يشبه تمامًا الأسواق الشعبية في مصر، ولكن الرائحة البشعة جعلتنا ننفر منه.. فوجئنا بوجود دجاج مخنوق ومعلَّق ومعروض للبيع، بجواره عربات خشبية صغيرة مثل عربات الخضراوات ولكن معروض عليها صراصير مقلية وبجوارها مطعم شعبي مرسوم على يافطته وجه كلب، يا إلهي حتى الكلاب يأكلونها! لم نتحمل المزيد، لذا قررنا الرحيل من المكان

وقد شعرنا بالقرف والغثيان من منظر الناس وهم يستمتعون بقزقزة الصراصير.

كانت تجربة قاسية جعلتنا نلتزم بتناول الجبن والتونة فقط، ولكن قطع البطيخ الطازجة والباردة التي وجدتها تباع على عربات صغيرة مقطعة في أكياس، كانت كافية أن تنسيني أي شيء، فأنا عاشقة للبطيخ

خرجنا في المساء بعد أن حاولنا نسيان ما رأيناه وشممناه بعد أن نلنا قسطًا من الراحة، توجهنا إلى منطقة «بات بونج»، حيث نصحتني موظفة الاستقبال لمشاهدة العروض الراقصة ولشراء الهدايا، طبعا لم يكن شراء الهدايا في نيتي ولكن فكرة مشاهدة العروض الراقصة أغرتني ويا ليتنا ما ذهبنا!

(٢١) سباديكا

في «بات بونج» وجدت الباعة مفترشين الأرض ببضاعتهم والتي كانت نسخة طبق الأصل من أحدث صيحات الحقائب اليدوية والساعات من الماركات العالمية وبأسعار زهيدة، لم أتمالك نفسي كثيرًا، بدأت أساوم البائع وأفاصل معه في السعر بعد أن اخترت حقيبة لي ولأمي في محاولة لمحاربة نفسي المحبة للشراء، حتى لا أندم لاحقا.

بعد أن وافق البائع على سعري شعرت أنه استغفلني وأنه من المفروض أن أساوم أكثر، لما سمعته عن طمع البائعين الذين يعرضون البضاعة ٤ أضعاف ثمنها الحقيقي، كانت الموسيقى تصدح من داخل محلات تشبه الملاهي الليلية على اليسار، فضولي دفعني لدس رأسي بداخل أحدهم وذهلت مما رأيت، كانت الفتيات الصغيرات سنًا وحجمًا عاريات تماما تتراقصن على طاولات ويتمايلن على عمدان مثبتة حيث يجلس الزبائن على كراسٍ مصفوفة حول تلك الطاولات مثل القرود المنتبهة لمدربها لعله يلقي لهم بالموزة، هكذا بدوا لي.

كان هذا المنظر من أصعب ما شاهدت في حياتي، تجسيد كامل للعبودية والإهانة، من بين السادة الحاضرين مساعد الطيار، نعم كان ينتظر أن تحن عليه العارضة بقطعة من جسدها وكأن لحوم الراقصات الصغيرات بوفيه مفتوح لمن يدفع.. كم بائسة حياتهن وكم منكسرة أرواحهن..

من صدمتي مما رأيت خشيت أن ترى أمي تلك المناظر المهينة، لذلك تركنا المكان عائدين للفندق متعبين من السير طوال اليوم، في اليوم التالي كان على أن أقوم برحلة لبلدة مانيلا في الفلبين وترك والدتي وحدها، طلبت من هدى زميلتي أن توصي زوجها على أمي وأن يطمئن عليها خلال غيابنا، كنت قلقة أن أترك أمي وحدها في بلد لا نعلم حتى كيف نتحدث مع أهله...

ما أجملها أمي تتمتع بذكاء اجتماعي يفتقده الكثير، هبطت لبهو الفندق ورغم عدم قدرتها على التحدث بالإنجليزية إلا أنها استطاعت أن تُفهم موظفة الاستقبال إنها تريد منها كتابة كلمة جبن بالتايلاندي حتى تستطيع شراءها من السوبر ماركت وبالفعل حملت معها الورقة وذهبت بكل شجاعة للسوبر ماركت وناولته الورقة فأحضر لها قالب زبدة، نظرت أمي للقالب وهي غير مقتنعة أنه جبن، حاولت أن تتحاور مع البائع، ثم توجهت للثلاجة وأشارت له على ما بدا لها نوعًا من أنواع الجبن وبالفعل أحضرت الجبن والخبز وعادت للفندق وقد نجحت في مهمتها.

مازحت أمي قائلة كيف تضمني أن هذه الجبن من ألبان البقر وليست من لبن الصراصير، فضحكت وقالت هل عمرك رأيت صرصارًا يرضع طفله، فأجبتها : من الممكن، احتمال، طالما فيه لبن العصفور، إذن فيه لبن صراصير، في تايلاند كل شيء ممكنًا جدًا.

في صباح اليوم التالي قررنا التنزه بداخل مول NBK وفي طريقنا للمول وجدنا معبدًا كبيرًا على أبوابه تماثيل للقرود، فقررنا زيارته الأول، وما إن دلفنا حتى وجدنا كل التماثيل بداخل المعبد برأس قرد وجسم إنسان، أعتقد

أنه كائن مقدس في تاريخ التايلانديين، المكان كان مزدحمًا جدًا وأكثر شيء لافت مدى خشوع المصلين بداخل المعبد

أنهينا جولتنا ثم توجهنا للمول الذي يشبه كثيرًا مولات عدة في مصر، حتى في طريقة عرض البضاعة، لاحظت أن هناك شبهًا كبيرًا بين تايلاند والقاهرة في الزحمة والتلوث.

تركت أمي تستمتع بالفرجة على أطقم الطبخ والتي لا أهتم بها وذهبت لتفقد محلات الملابس والإكسسوار، كنت أجاهد نفسي لمنعها من الانسياق لشراء كل ما وقعت عليه عيني، عدت لأمي لأجدها وقد اختارت طقمًا من الملاعق التي أعجبتها، ذهبنا للكاشير وتفاجأت أن ثمنها يعادل ٥٠٠ ﷼ قطري، شعرت بالإغماء، هذا تقريبًا نصف ما تبقى معي من نقود ولكن كيف أترك الملاعق بعد أن غلّفها، تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني، دفعت النقود وخرجت وأنا لا أعلم ماذا أفعل، ضحكنا نعم لم نملك شيئًا سوى أن نضحك على هذا الموقف وعلى إفلاسنا.

وصلنا للفندق حيث كنا في حاجة لقسط من الراحة، في المساء قررنا أن نتنزه سيرًا على الأقدام قريبًا من الفندق وبعد نحو ساعة كاملة من السير وجدنا محلات تقدم مساجًا للقدمين، قررنا أن نجرب أحدها، دخلنا المحل الذي به سيدات واللائي ما إن رأونا حتى قدمن لنا تحيتهن بالميل للأمام قائلات " سابادیکا " يعني أهلًا، طلبنا مساجًا للقدمين، لم أعتد على شعور الدغدغة في قدمي فكنت أتلوى من الضحك، كذلك كانت أمي، بعد أن انتهينا شكرتنا السيدات وانحنين ثانية قائلات " كابكونكا " والتي تعني شكرًا، تلك الكلمتين سمعناهما على مدار إقامتنا في تايلاند عشرات المرات، وفي كل

مرة كنت أشعر بمدى جمال طريقتهم في الترحيب والتقدير، عدنا للفندق ونحن في حالة استرخاء جميلة وبالطبع ابتعنا قطع البطيخ، ثم وجدنا بائع ذرة مشوية وكأننا في ميدان روكسي بالقاهرة، ابتعنا كوزين والتهمناهما بشراهة، كانت الذرة عشاءنا بعد أن قررنا أن نقتصد في مصاريفنا كي تكفينا بقية النقود.

في رحلة العودة وبعد بقائنا يومين آخرين قضيناهما في الاستمتاع بحمام السباحة داخل الفندق والتنزه مساء في الشوارع المحيطة بالفندق، أخبرت زميلاتي عن الملاعق التي كلفتني نصف نقودي، ظللت أنا وأمي نتذكر تلك الملاعق الملوكية التي حتى الآن لا أعلم أين وضعناها ورحلتنا الجميلة التي شاهدنا فيها الصراصير تؤكل والقرود تُقدس.

(٢٢) الموت بين جبال الهيمالايا

بعد عودتنا من بانكوك لم تبق أمي سوى أيام معدودة، التي ما إن رحلت حتى عاد لي شعور الوحدة بكل قسوة، وجودها كان بلسمًا يداوي هذا الشعور ولكن بعد سفرها رجعت ريما لعادتها القديمة وعادت الوحدة تشاطرني ساعات يومي الطويلة..

طلبت مقابلة مدير الشركة خاصة أن شعوري أنني مظلومة بسبب إلغاء ترقيتي ازداد بعد رحيل أمي، بالفعل تم تحديد موعد لي معه وذهبت وأنا على يقين أن ربنا سينصفني، استقبال المدير كان لطيفًا جدًا ثم استمع لحديثي كاملًا ودون أي سؤال رفع سماعة التليفون وطلب من ساليا الحضور لمكتبه، أعجبني جدًا فكرة المواجهة، لعله اعتقد أنني كاذبة أو أنني سأخاف من مواجهة مديري، إنه لا يعرفني جيدًا، أنا شرسة جدًا أحيانًا، تمامًا مثل القطط، لعلي كنت قطة في عالم موازٍ.

حضر ساليا وبُهت عندما رآني في مكتب مدير الشركة وخاصة أن الكل كان يخافه لدرجة أن البعض كان يختبئ في الحمام عندما يعلم بوجوده في المبنى أو حتى الطائرة، كان شديدًا في معاملته ولكني كنت على يقين أنني أطالب بحقي، لم أكن أخشاه بالعكس كنت أجده ظريفًا، يجوز لأني رأيته مرة في المصعد وهو يمزح مع إحدى الفتيات الثقيلات وزنًا قائلًا : كنت أتساءل أين تذهب وجبات الدرجة الأولى والآن عرفت.

بعد أن تبدل لون بشرته ابتسم ابتسامة صفراء، حياني قائلًا أهلًا نهى كيف حالك وقلت له في أحسن حال، مباشرة سأله المدير لماذا تم تنحيتها من الترقية فأجابه لأنها تأخرت في القدوم من مصر، قاطعته بتحدٍ وأيضا تأخرت فرح وتينا ولم يتم تنحيتهما.

رأيت الابتسامة تخبو من على وجهه وارتديتها أنا بكل ثقة، فتردد هو قليلًا ثم أجاب لم يطلعني أحد على ذلك، قاطعته لقد ناقشت حضرتك وأخبرتك أنهما تأخرتا مثلي وأنت رفضت أن تعيدني للكورس.

نظر لي ولم يستطع الرد.

أمر المدير بإعادة ترقيتي وإلحاقي بدورة تدريب درجة رجال الأعمال المقرر أن تبدأ فورًا، شكرته ورحلت مبتسمة وتركت ساليا يلقى ما يستحقه من تهزيئ حيث سمعت صوت المدير وهو يصيح فيه بعد خروجي من مكتبه مباشرة، كم جميل أن تدافع عن حقك وأن تناله

قضيت ١٠ أيام تدريب على الخدمات الإضافية التي يتم تقديمها لدرجة رجال الأعمال والتي كانت تشمل مجموعة من الأطباق الجديدة والخمور المختلفة التي تقدم حصريًا لعملاء درجة رجال الأعمال.

في آخر يوم تدريب تم توزيع جدول رحلاتنا، تفقدته ووجدت أن رحلتي المقبلة إلى «كاتماندو» عاصمة نيبال، لم أعلم عنها شيئًا سوى «بريا» إحدى الفتيات في التدريب التي كانت من هناك وكانت فتاة شديدة اللطف والأدب، وجدتها معي في نفس الرحلة، سعدت بذلك جدًا، هي أيضا سعدت بوجودي معها في الرحلة، لدرجة أنها قالت لي أعدي نفسك أنت معزومة عندي في

منزلي، سعدت جدًا بدعوتها الرقيقة، أحمد الله على كم الأشخاص الذين أغنوا حياتي بذكريات مبهجة.

رغم القصص التي سمعتها عن صعوبة الهبوط بين الجبال في مطار كاتماندو لدرجة أن بعض شركات الطيران منعت رحلاتها إلى هناك نظرًا لخطورتها، وأيضا القصص المرعبة الأخرى المرتبطة بالفندق التي سمعتها إلا أنني كنت متحمسة لزيارة نيبال خاصة أن معي «بريا» الرقيقة

في الصباح وبعد إجراءات الاستعداد المعتادة في الطائرة، طلب الكابتن من الطاقم التجمع في الدرجة الأولى للتعارف وعندما علم أنها المرة الأولى لي لزيارة كاتماندو عرض على الجلوس في الكابينة وقت الهبوط وقبلت فورًا، إنها فرصتي للاستمتاع بمنظر السماء الخلاب وفرصة للهروب من ازدحام الركاب عند الهبوط ومحاولاتنا الفاشلة في حثهم على البقاء جالسين.

في تلك الرحلة كانت الطائرة بأكملها درجة سياحية مما يعني أننا لن نطبق ما تدربنا عليه، كنت سعيدة أيضا بذلك، فلقد كانت خدمات درجة رجال الأعمال متعبة، الركاب أيضا مسالمون جدا، لا يزعجوننا بطلبات سخيفة، حتى الخمور لم يطلبها أحد، كم أحب تلك الرحلات الهادئة.

عند إضاءة إشارة ربط الأحزمة وبعد الانتهاء من تأمين الركاب، ذهبت للكابينة للجلوس خلف مقعد الكابتن، المنظر ساحر، جبال عملاقة عن اليمين واليسار مغطاة بطبقة من السحب، يا إلهي إنها جبال الهيمالايا التي سمعت عنها في التلفاز.

بدأت السحب تتوارى وتظهر الأرض والطائرة تحاول أن تتوازن بين جبلين شاهقين، رأيت ممر الهبوط بين الجبلين صغيرًا جدًا ومخيفًا، بدأت في قراءة الشهادة وتملكني الخوف وازداد خوفي عند اقترابنا حيث لاحظت أن ممر الهبوط ينتهي بمنحدر، فيما معناه أنه لو لم تهبط الطائرة وتتوقف في الوقت المفترض من الممكن أن نسقط،

ظللت أردد الشهادة التي ظننت أني أرددها في سري إلى أن شاطرني الكابتن ترديد الشهادة، ارتعبت أكثر وحاولت أن أشتت انتباهي، فنظرت لمساعد الكابتن والذي بدا باردًا جدًا نظر لي وغمز بعينه، انزعجت جدًا، أدرت رأسي للنافذة وظللت أردد بعض السور القرآنية التي احفظها حتى لامست عجلات الطائرة الأرض، ثم بدأت تهدأ سرعتها معلنة عن الوصول بحمد اللّٰه.

(٢٣) كلنا قابيل

وصلنا « كاتماندو» عاصمة مملكة نيبال في وقت مبكر جدًا، في المطار كانت هناك إجراءات مشددة، حضور طاغٍ للأمن الذي أثار دهشتي، شعرت أن هناك جريمة ما حدثت مما دعا لوجود هذا العدد من رجال الشرطة، بعد أن استلمنا حقائبنا وركبنا الباص متجهين للفندق، سألت بريا عن سبب الإجراءات الأمنية، صدمتني بواقعة القتل التي حدثت منذ شهر تقريبًا في المملكة والتي سميت بمذبحة القصر الملكيّ.

فقد قام ولي عهد النيبال الأمير «ديابندرا» بقتل عدد من أفراد أسرته ومنهم والده الملك بيرندرا، وكذلك الملكة إيشواريا وحوالي ٧ من أفراد أسرة العائلة المالكة عن طريق إطلاق النار عليهم، وبعد ذلك قام بقتل نفسه.

خارج المطار كان ينتظرنا عدد كبير من الأطفال الشحاذين، طلب منا السائق غلق النوافذ لتفادي الاحتكاك بهم، أطفال لا يعلمون من الحياة سوى طلب كسرة الخبز ولا يجدون سوى استنكارًا لجوعهم ولطلبهم.

حزنت بشدة وطلبت من السائق أن يقف حتى يتثنى لي إعطاءهم بعض النقود، لكنه أصر أننا سوف نجد حشودًا تلتهمنا إذا فعلت ذلك، في طريقنا تأملت حال البلدة والتي بدت نضرة بجمالها، مازالت بكرًا بطبيعتها الساحرة وطرقاتها بين الجبال وطقسها الجميل البارد قليلًا، يتحدث فيها الناس بلغات مختلفة منها التبت والأوردو، الهندوسية ديانتهم ولكن يوجد أيضا بوذيون ومسلمون.

لفت نظري بساطة المنازل والحياة، وفوجئت بوجود القرود على أسطح المنازل والشوارع وكنت قلقة جدًا وخائفة من وجود قرود في الفندق ولكن الحمد لله الفندق بعيد نوعًا ما عن وسط المدينة ولم أرَ فيه قرودًا، اتفقت مع بريا بأن ننال قسطا من النوم وأن نتقابل بعد ساعتين لزيارة أهلها، وبالفعل بعد أن اقتنصت ساعتين من النوم، اتجهت معها لمنزلها وأنا في ريبة من ظهور قرد متحرش في الطريق ولكن ربنا سلم.

وصلنا المنزل حيث كانت أخت بريا في انتظارنا، رحبت بي ودعتني للدخول، كانت والدتهم في انتظارنا أمام مائدة مرصوص عليها ما لذ وطاب، احتفت بي والدتها بشدة، ما جعلني أشعر بالحنين لأمي، منزلهم جميل وبسيط استمتعت بالجلوس بينهم وتذوق طعامهم اللذيذ حقا والذي يشبه الأكلات الهندية نظرًا لوجود نكهة الكاري بقوة.

فهمت أن بريا ترسل لأهلها المال كي تساعدهم على المعيشة مثلما تفعل معظم الفتيات، شعرت أنه رغم أننا من قارتين مختلفتين إلا أننا متشابهتان في كثير من الأشياء، مثل الترابط الأسري والبساطة والكرم والاحتفاء بالزوار، الإحساس بالألفة معهم جعلني استمتع بجلستي كما لو كنت في منزل أبي.

بعد ساعتين من الدردشة والضحك، استأذنت للعودة للفندق، استقللت تاكسي وفي طريق العودة سألني السائق عن سبب زيارتي للبلدة، أجبته أنني أعمل مضيفة وأنها المرة الأولى التي أزور فيها البلدة فنصحني بتسلق الجبل وأنها من أهم معالم البلدة ومن الرياضات المتعارف عليها في كاتماندو، حيث يجيء السائحون خصيصًا لتسلق جبال الهيمالايا وللاستمتاع بالمناظر

البديعة، للأسف لم يكن لدي الوقت الكافي للقيام بذلك، ثم عرض عليَّ أن يأخذني إلى شارع معروف اسمه « تامل» حيث يوجد محلات لبيع الهدايا التذكارية وأفلام هوليوود المنسوخة، وطبعًا نظرًا لعشقي للأفلام طلبت منه يحملني إلى هناك.

الشارع بدا ضيقًا ومزدحمًا ذكرني بشارع خان الخليلي.

بدأت جولتي في المحلات الصغيرة المعروض فيها شيلان من الحرير والكشمير رائعة الجمال، ابتعت منها هدايا كثيرة ثم اخترت عددًا من الأفلام وأعطيتها للبائع فطلب مني العودة في اليوم التالي حتى يتثنى له تجهيز النسخ لي.

كان شابًا صغيرًا في مثل عمر أخي، صفاء ابتسامته جعلني أجلس لأتجاذب معه الحوار حول عمله ودراسته، علمت منه أن يتمنى أن يسافر إلى بلاد العم سام وأن يصبح مهندس كمبيوتر، أشار إلى بعض أجهزة الكمبيوتر الموجودة وقال لي أنه يُصلحها لأهل البلدة مجانًا، لأنه يعلم أنه ليس في مقدورهم دفع تكاليف التصليح ولكنه يستفيد من تدريب نفسه على تصليحها وأنه أصبح بارعًا في تفكيك الأجهزة ومعرفة أعطابها وتصليحها بكل سهولة.

وتظل الهجرة حلم الكثيرين، لماذا لا تعطينا بلداننا حقنا في التعليم وتحقيق أحلامنا بسهولة، لماذا وجب علينا الفحت في الصخر حتى نستطيع أن نحقق جزءًا صغيرًا من أحلامنا!

لفت نظري وجود فرقة تعزف الموسيقى بداخل مطعم صغير اسمه (المطبخ الإيطالي)، المكان جميل وصغير على الطراز الإيطالي وقعت في هوى المكان

وقررت أن أتناول غدائي فيه غدًا عندما استلم نسخ الأفلام.

عدت للفندق وجدت رسالة أسفل باب غرفتي من الكابتن يدعوني لتناول العشاء في مطعم «بخارا» بالفندق، سعدت بالفكرة وهبطت لاستكشاف المكان قبل أن نجتمع للعشاء، كان الفندق له طابع قديم حيث تزدان الطرقات بتماثيل صغيرة على الجانبين وبالخارج توجد بحيرة صغيرة يغطيها زهور بديعة وموسيقى « بودابار» تنثر نغماتها عبر السماعات باعثة شعورًا بالراحة.

توجهت للمطعم الذي أدهشني شكله من الداخل، حيث كانت الطاولات من الخشب القديم والإضاءة عبارة عن مصابيح زيت معلقة أعلى الطاولات وعلى كل طاولة شمعة كبيرة، استقبلني مساعد الكابتن ودعاني للجلوس ثم مد يده للسلام وضغط على يدي بشدة، نزعت يدي وأنا مستاءة.

خرجت من المطعم، وجدت الكابتن أمامي فعدت معه للطاولة وتبعنا بقية الطاقم، سألني الكابتن عن سبب ضيقي الواضح، فقلت له ما حدث من مساعده، انزعج جدًا وقال لي، أحيانا الأشخاص المنحطون يعتقدون أن الناس مثلهم، لا عليك منه، اعتبريه حشرة وهكذا فعلت.

عرض الكابتن علينا أن نطلب أطباقًا متنوعة ونتشاركها وبالفعل أحضر النادل المقبلات ثم أتبعهم بالطبق الرئيسي «فخذة الخروف» والذي عبأت رائحته الشهية المكان كله، ما إن ذقت قطعة منه حتى ذابت في فمي وكأنها زبدة، يا إلهي كم استمتعت بتلك الأكلة اللذيذة، بعد أن نسفنا الأكل أحضر النادل أطباقًا صغيرة موضوع فيها قليل من الماء وحلقات الليمون لغسل أيدينا، تذكرت وقتها لقطة من أحد الأفلام عندما شربت البطلة تلك المياه بدلًا من

غسل يدها على أساس أنه شوربة، ضحكت وأصر الكابتن أن أحكي له عن سبب ضحكي فرويت له القصة فأخبرني أن أحد الزملاء فعل نفس الشيء.

أنهينا عشاءنا بحبيبات السكر نبات والكمون التي قدمها النادل كي تساعد على الهضم، ثم توجهنا لغرفنا استعدادًا للنوم، وما إن دلفت غرفتي حتى تذكرت قصص الفتيات عن هذا الفندق وشعرت بالخوف.

(٢٤) العفاريت بتخبط

حاولت باستماتة أن أنام، وأخيرًا وبعد أن بدأت أغط في النوم، سمعت طرقات على باب غرفتي، تعجبت من يا ترى سيزورني في منتصف الليل، فتحت الباب ولم أجد أحدًا، قلت لنفسي لعله شخص أخطأ في الغرفة، عدت للسرير وما إن جلست حتى سمعت الطرق على الباب مرة أخرى وكأنها صادرة من طفل صغير، فتحت الباب لم أجد أحدًا.

بدأ الخوف يدب في نفسي، ثم فجأة سمعت صوت أطفال تجري في الردهة بالخارج وأصوات صراخهم وضحكاتهم طمأنتني، بالتأكيد هم من طرقوا على الباب، لكن شيئًا ما دفعني أن أتصل بـ «نسرين» الأردنية زميلتي في غرفتها، ردت على وصوتها مرتعد أكثر مني وطلبت مني الانضمام إليها في غرفتها والنوم عندها فوافقت طبعًا، أي شيء أفضل من وجودي وحدي في هذا الفندق العجيب.

طرقت الباب فسألتني من الداخل بصوت عالٍ، رددت إنه أنا، هرعت للباب وفتحته ثم أغلقته، شعرت بيدها ترتعش، سألتها ماذا حدث فقالت لي، إنه حدث معها مثلما حدث معي، فقاطعتها إنني سمعت الأطفال تجري وإنهم بالتأكيد من طرقوا الأبواب، ابتسمت وقالت هذا الفندق كان سجنًا قديمًا وقد تم إعدام الأطفال بسبب وباء انتشر هنا، منذ ذلك الوقت الناس تسمع صوت الأطفال ولا يرونهم.

لم أصدق القصة ولكن فعلًا أي أطفال هؤلاء المستيقظين حتى منتصف الليل وأين أباءهم، ازدادت حركة الأطفال بالخارج، وازداد خوفي، اقترحت عليها أن نترك الأنوار والتلفاز يعمل حتى نستطيع النوم، لاحظت أنها لم تزل المكياج عن وجهها، كان شكل رموشها ملفتًا للنظر من كثافة الماسكرا، فقلت لها لماذا لم تغسلي وجهك وتتخلصي من آثار المكياج، أجابتني أن الأفضل إبقاء الماسكارا كي تظل رموشها كثيفة، كانت تتحايل بأفكار غريبة قبل اختراع الرموش الصناعية التي يتم لصقها بسهولة، رغم أن نسرين كانت تتميز بجمال وجهها ولكن حرصها على ترك الماسكرا جعلني أشعر أنها فاقدة الثقة بنفسها.

استيقظت على صوت نسرين تتحدث في الهاتف، استأذنتها وعدت لغرفتي ثم تجهزت وغادرت الفندق، فكرت أن أذهب لشارع تامل سيرًا على الأقدام ولكني شعرت أنني سأضل الطريق، لذلك استقللت تاكسي، في الطريق توقفنا طويلًا رغم أنه لا توجد إشارة مرور، فسألت السائق عن سبب العطلة، أجابني أن هناك بقرة تقف في منتصف الطريق وأنه ممنوع أن يلمسها أحد، فهي كائن مقدس عندهم، لذا عليهم الانتظار حتى تتحرك بمشيئتها، حتى لو انتظرنا ساعة كاملة وهذا ما حدث.

أخيرًا وصلت للشارع وبدأت أشعر بالجوع فأنا لم أفطر بعد، لكني تذكرت المطعم الإيطالي الذي رأيته في آخر الشارع فقررت أن أستلم أفلامي أولًا، ثم توجهت للمطعم الإيطالي، لم تكن الفرقة بدأت بعد بالعزف، لكنني استمتعت بالجلسة في المطعم حيث التهمت خبز الفوكاشيا وشوربة الطماطم بنهم ثم

انطلقت للعودة إلى الفندق، كانت «بريا» في اللوبي في انتظاري، سعدت بوجودها، دعتني لحضور حفل عرس ابنة عمها وأحضرت معها ساريًا لأرتديه.

فرحت جدًا بدعوتها لي، واهتمامها بي، صعدت الغرفة وبدأت في الاستعداد، كان الساري يتكون من ٣ قطع، قطعة للجزء العلوي وجيبة حرير وشال، لم أستطع لف الشال الذي ساعدتني بريا في ارتدائه والذي بدا لي جميلًا جدًا، كانت مشكلتي الوحيدة هو ذلك الجزء من بطنى المكشوف، لم أكن معتادة على إظهار بطني، طلبت منها أن تلف الساري بطريقة تغطي منطقة البطن، ضحكت وقالت لا يجب ألا تخجلي الجميع هناك يرتدي نفس الزي، استسلمت لكلامها وانطلقنا للفرح في منزل عمها.

خارج المنزل وضعوا طاولات مثل البوفيه المفتوح، كما كانت الزينة المعلقة خارج المنزل تشبه كثيرًا الأفراح التي تقام في المناطق الشعبية في مصر.

دخلت المنزل وحييت العروسة وزوجها، سعدت بحفاوتهم بي، بدأت الموسيقى وجميع الحضور انخرطوا في الرقص، جذبتني بريا فانضممت لهم وحاولت أن أقلد رقصاتهم، بعد وقت قصير سمعت أغنية حبيبي يا نور العين « لعمرو دياب»، فاجأتني بريا بالأغنية، رقصت عليها وشاركتنا العروسة وسيدات أخريات وبعد أن تعبنا من الرقص أعلنت أم العروس أن البوفيه جاهز، انطلق الجميع لتجهيز أطباقهم بتشكيلة من الأكلات والحلويات، أحضرت لي بريا طبقًا فيه تشكيلة متنوعة، استمتعت بتذوقها.

استأذنت كي أعود للفندق ولكن أصرت «بريا» على أن توصلني للفندق، حيث قمت بخلع الساري وإعطائه إياها شاكرة لها على ضيافتها الرائعة.

عدت لغرفتي واستبدلت ملابسي على عجل وذهبت مسرعة لغرفة نسرين قبل أن أصادف أرواح الأطفال في الطرقات، وتكررت نفس التجربة من خبط على الباب وهرولة وصرخات أطفال في الردهة، وقتها صدقت القصة وحمدت الله على وجود نسرين معي

كانت رحلة العودة خفيفة انتهت بسرعة لدرجة أنني لم أشعر بسويعاتها، عدت للمنزل وإذ برفقاء السكن الجدد في انتظاري.

(٢٥) خلف كل عاهرة.. رجل

عند عودتي من كاتماندو وقد تمكن مني البرد، وجدت فتاتين جالستين في غرفة المعيشة وورقة ملصقة على باب غرفتي، مكتوب عليها «عزيزتي نهى لقد أحضرت رفقاء سكنك الجدد، أتمنى لكم إقامة سعيدة معًا»

كانتا قلقتين جدًا، استشعرت خوفهما مني ورق لهما قلبي، أعلم جيدًا هذا الإحساس بالغربة والخوف من كل شيء جديد، جلست معهما وبدأنا في التعارف، قالتا «روزي وروبي» إنهما قادمتان من نيبال، وإنهما درسا سويًا في أكاديمية لتدريب الضيافة، كانتا مثل عصافير الكناريا، خفيفات على القلب والروح ويتمتعن بوجوه سمحة.

قصصت لهما ما حدث معي في كاتماندو من مغامرات، حتى قصة الأطفال العفاريت، ضحكنا وكسرنا الجليد وخلال ساعات أصبحنا وكأننا معارف منذ زمن، دعوتهن لتناول « كنافة نابولسي» من المحل المجاور للسكن للاحتفال بانضمامهما لي في السكن، ولكني حرصت على وضع قوانين النظافة أولًا، تعلمتُ أن وضع القوانين يغني عن أشياء كثيرة.

سعدت بوجودهما معي، كانتا في قمة الأدب، حمدت الله على تعويضي عن غياب مارجو رفيقة سكني وصديقتي بوجودهما، لو أحصيت عدد الفتيات اللواتي عاشرتهن لاحتجت كتيبًا خاصًا لسرد حكاياتي معهن.

اضررت للذهاب للمستشفى بسبب ارتفاع حرارتي، وعدت بعد أن نصحني الطبيب بالراحة التامة، على أن أراجعه بعد يومين من الراحة، ثم أعطاني

شهادة طبية كي يتسنى لي أخذ إجازة من العمل، بدون تلك الشهادة سيتم خصم أيام راحتي من راتبي، للأسف الغياب عن العمل يعتبر جريمة لدرجة أن الأطباء محرج عليهم إعطاء إجازات أكثر من يوم واحد ويجب أن تحمل الشهادة ختم المستشفى، كما لو كان الإنسان غير مسموح له بالتعب وكأننا روبوتات مبرمجة للعمل فقط ولا يحق لنا أن نمرض إنها دنيا المصالح.

خلال مرضي قامت روبي بالاهتمام بي بشكل خاص، أعدت لي الشوربة الساخنة وكمادات باردة في الليل عندما ارتفعت حرارتي، كم هي جميلة، تذكرت بنت بلادي التي كانت تسرقني بكل صفاقة، شتان بينهما، سبحان الله ربما كانت تجربتي معها مهمة كي أفهم جيدا أن كلام الناس عن أهل البلد وجدعنتهم ما هو إلا هراء تام.

عندما بدأت أتعافى قررت أن أعد لهم غداء مصريًا وكانت روزي معي تعد لنا طبق بيض بالكاري المعروف في نيبال، أخرجت كيس اللحم المفروم من الثلاجة وبدأت في عمل البشاميل، سألتني روزي بكل أدب عن نوع اللحمة المفرومة إن كانت لحم خروف أو لحم بقري، تعجبت من سؤالها، فأنا لم أقرأ نوع اللحم فسألتها لماذا، قالت لي نحن لا نأكل لحم البقر..

ما أغباني، لقد نسيت تماما أن البقرة عندهم مقدسة، أخرجت كيس اللحم من صفيحة الزبالة للتأكد أن اللحم ليس بقريًا والحمد لله كان لحم خروف، ولكني كنت أتمتع بعنصرية دينية قميئة دفعتني لأن أقول لروزي، ماذا لو أكلت منها، هل تعتقدين أنها قادرة على أن تؤذيك، صمتت وأعتقد أنها تحسست من كلامي، أوضحت لها أنني لا أسخر منها ولكن أريد أن أفهم،

فأجابتني، أن البقرة عندهم مقدسة مثل أي شيء ولدنا وجدنا أباءنا يقدسونه وأنها لم تهتم لتعرف السبب.

اعتذرت لها وشعرت أنني محدودة التفكير، كلامها سليم، نحن نُخلق في بيوت ونرى آباءنا يعبدون إلهًا فنعبده ويقدسون أماكن وأشخاصًا فنفعل نفس الشيء وقليل منا من يبحث عن الأسباب ويتفكر فيها ويتخذ موقفًا مؤيدًا أو معاديًا، ونظرًا لأن مجتمعنا لا يقبل الاختلاف ولا النقاش في المقدسات، حتى لو تبينا خطأ أهالينا في معتقداتهم أو لم نتفق معهم.

نحن لا نملك الشجاعة الكافية لنصارحهم بذلك ولمناقشة أفكارنا وإذا حدث ذلك سيتم تعنيفنا أو تكفيرنا أو حتى الخلاص منا وإذا تجرأ أحدنا على البوح بما يجول بخاطره عليه أن يلاقي من التهديد والوعيد والتكفير وتطبيق ما وضعه بشر من قوانين ولصقوها بالدين لنسف أي فكر مختلف.

تناولنا غداءنا وحدثاني عن أحلامهما، كلتيهما قالتا أنهما هنا لفترة قصيرة وأنهما تنتويان السفر لبلاد العم سام، كانت روزي على علاقة حب بزميل لنا ولكن الجميع حذرها منه لأنه لعوب ويقضي رحلاته بين أحضان الأخريات، هذا ما رددته الفتيات، لم أقوَ على أن أخبرها بذلك ولكني أخبرتها عن سذاجتي في الحب وكيف انتهى بي الحال بعد أن وثقت بأحدهم، لم تسمع لي، مثل أي فتاة عاشقة تريد أن تعيش الحب وتنهل منه.

من تجاربي الكثيرة والمختلفة، اكتشفت أن معظم الفتيات يبحثن عمن يحبهن بصدق، ولكن ما إن ينكسر قلبهن يتحولن ليصبحن باحثات عن الفرصة الأفضل بعيدًا عن المشاعر، حتى عندما تحدثت مع فتيات يصنفن

بـ"عاهرات" وسألتهن عن سبب ما دفعهن لذلك، كانت الإجابة كما توقعت كسرها رجل وخدعها، مما جعلها تفقد روحها البريئة وتتحول لامرأة بلا مشاعر تنتقم لقلبها باستغلال كل ذكر تقابله.

أعتقد، أن خلف كل عاهرة رجل مزق قلبها وتركها تصارع الحياة وحيدة ومنكسرة، وأنه لو لم يوجد رجال زناه لما وجدت عاهرات

(٢٦) شيزوفرينيا

بعد وعكتي الصحية، تبدل جدول رحلاتي وتم وضعي standby خلالها تم إعطائي تأشيرة السفر إلى موسكو كي أتمكن من عمل رحلات روسيا، فهي من الدول التي يجب الحصول على تأشيرة مسبقة وبناء عليه تم تعديل برنامج رحلاتي إلى ٣ رحلات متتالية إلى موسكو كما يقولون صد رد، تجهزت للرحلة وحملت معي ملابس شتوية لما سمعته عن البرد البشع في روسيا وكنا في شهر يناير، يعني عز البرد هناك.

اجتمعت مع بقية الطاقم، الكابتن مصري الجنسية ومساعده قطري، كان الكابتن لطيفًا في حديثه أثناء التعارف، حدثنا عن زوجته التي يعشقها وأبنائه الفخور بهم جدًا، حتى أنه أخرج صورة لهم من جاكته وأعطاني إياها، متفاخرًا بجمال زوجته، مما جعلني أشعر أنه شخص مثالي في زمن ندر فيه هذا النوع من الرجال والذي تتمناه كل فتاة أن يكون زوجًا لها، الرجل الوفي والمخلص والمحب لعائلته وزوجته، وقتها حسدت زوجته، يا لها من محظوظة

كانت رحلتي الأولى للعمل في درجة رجال الأعمال، لكن لم يكن معنا ركاب، على عكس الدرجة السياحية التي كانت ممتلئة، لذلك بعد الإقلاع انضممت للطاقم بالخلف لمساعدتهم، كانت من أعجب الرحلات التي لن أنساها أبدًا.

بدأ الركاب في طلب الخمور بشراهة، بعد انتهاء تقديم الوجبات وإغلاق النوافذ لترك الركاب يستمتعون ببقية الرحلة في هدوء، سمعنا أصواتًا غريبة

من المقاعد الأخيرة، توجهت لمعرفة مصدر الصوت، فوجدت رجلًا ورفيقته في وضع حميمي.

تسمرت في مكاني من الصدمة، ما هذه الجرأة وعدم الحياء توجهت للمطبخ وطلبت من راج أن يذهب ليرى ما يحدث ويتصرف، لم أستطع حتى أن أصف له ما شاهدت ولكن وجهي كان ينطق بالدهشة والاحمرار، ذهب راج وطلب منهما مراعاة آداب السفر في الطائرة وهددهما باتخاذ الإجراءات الأمنية معهما، لكن من الواضح أنهما كانا في حالة سكر شديد.

بعد قليل من الوقت ذهب نفس الراكب للحمام وتبعته صديقته، لم نلحظهما ولكن سمعنا أصواتهما وتخبطهما بالداخل، اقترب راج من الباب وطرقه بشدة وطالبهما بالعودة فورًا لمقاعدهما وهددهما بتدخل الأمن، لم ينصاعا لكلامه، بل ازدادت أصواتهما وتخبطاتهما، اقترحت على راج التواصل مع الكابتن لمعرفة خطوات التعامل الأمني.

نصح الكابتن راج أن ينتظر حتى يعودا لمقاعدهما وأن يتم ربط أيديهما كما نفعل مع الركاب الشديدي العنف، بالفعل تمكن راج ومساعد الطيار الذي انضم لنا من تقييد يد الراكب وصديقته في مقاعدهما، بدأ الراكب في الاعتذار هو وصديقته ولكن بعد فوات الأوان فلقد تم التواصل مع أمن المطار للقبض عليهما مباشرة بعد الهبوط ومعاقبتهما ومنعهما من السفر مرة أخرى مع شركتنا كما ينص القانون.

انتهت تلك الرحلة العجيبة ووصلنا أخيرًا وبعد أن استلمنا حقائبنا وفتح باب المطار للخروج شعرت بالتجمد، رغم أنني ارتدي بالطو على الزي إلا أنه لم

يكن كافيًا مع درجة الحرارة التي كانت ١٠ تحت الصفر.

حملت حقيبتي ومشيت مسرعة نحو الباص، الذي ما إن جلسنا بداخله وأغلق الباب حتى دبت فينا الحياة مرة أخرى، يا إلهي كيف يعيش الناس في هذا البرد القارص، استغرقنا ساعة ونصف حتى وصلنا للفندق، معظمنا استسلم للنوم، ظللت أراقب الشوارع الواسعة والمباني القديمة، لطالما عشقت أن أقود سيارتي ليلًا حيث تحيطني الأنوار وكأنني سابحة في الفضاء بين النجوم.

وصلنا للفندق في ساعة متأخرة بالنسبة لروسيا، كانت الثامنة مساء وكنت جوعانة جدًا، بدلت ثيابي وارتديت كل ما أستطيع ارتداءه، نزلت متحمسة لعمل جولة حول الفندق والتعرف على شوارع موسكو، على باب الفندق وجدت الكابتن يدخن سيجارة وبجواره راج، انضممت لهما وذهبنا إلى شارع قريب حيث يوجد بعض محلات الأكل التي مازالت مفتوحة، لم نجد سوى ماكدونالد فدخلناه فورًا كي ننعم ببعض الدفء، لم أكن من عشاق مطاعم الأكلات السريعة أو كما يطلق عليها "Junck food" ولكن هذا الموجود.

طلبت ساندويتش سمك، كما يفعل مسلمون كثر لتجنب أكل لحوم مشكوك في طريقة ذبحها، كم كنت غبية في اعتقادي أن الحيوانات يتم ذبحها في البلدان العربية طبقا للشريعة الإسلامية، لكن طبعًا كل هذا تبخر بعد مشاهدتي لفيلم موثق عن كيفية تعذيب وقتل الحيوانات في عدة دول عربية ممن يتشدقون بالدين لدرجة أن هناك دولًا غربية رفضت بيع حيواناتها لتلك الدول خوفًا عليها من التعذيب غير الإنساني قبل ذبحها.

طلبنا مشروبات ساخنة كي نحملها بين أصابعنا ونحن عائدون لتقلل من معاناة البرد الشديد، في طريقنا رأيت شحاذًا افترش الأرض وهو يرتدي ملابس رثة غير كافية لحمايته من هذا الصقيع، كان يبدو في حالة سكر، شعرت بالأسى لحاله فأعطيته بعض النقود لعلها تساعده في سد جوعه، قال لي الكابتن إنه سكران بسبب "الفودكا " التي يتسولها حتى لا يشعر بوجع البرد، كم مؤلمة تلك الحياة التي لا يجد فيها المرء أقل حقوقه للحفاظ على آدميته.

عدنا للفندق ومباشرة وقفت تحت الدش الساخن لتتفكك عظامي التي تيبست بسبب البرد، وأثناء استمتاعي بسخونة المياه المتدفقة، تذكرت ذلك الرجل الذي يقاوم البرد بالفودكا، بكيت لحاله ودعوت اللّٰه أن يرزقه الدفء وألا يبتليني بتلك التجربة المؤلمة.

قبل أن تغفو عيوني رن الهاتف، رفعت السماعة وجدت الكابتن يقول لي لا تقولي لي أنك نمت لسه بدري، أجبته إنني فعلًا متعبة، استطرد قائلا يجب أن تشاهدي التلفاز على القناة الرابعة برنامج حلو أوي وهيعجبك، أمسكت الريموت وأدرت التلفاز وإذ بي أشاهد فيلم بورنو، صدمت من وقاحته، لم أدر ماذا أقول، أغلقت في وجهه الهاتف، ثم بدأت الأفكار تجوب في رأسي، هل أعطيته إشارة ما توحي له أنني عاهرة ! هل المشكلة في.

النفوس المريضة كثرت حولي، أليس هذا الرجل الذي كان يتفاخر بحبه لزوجته سابقًا، ولكن لم التعجب هذا حال كثير من الرجال، يرسمون دور الزوج المخلص والمحب الذي إن وجد الفرصة متاحة ويضمن عدم كشف

سره، سيخون ويمارس عهره ولن يتردد لحظة، إنها شيزوفرينيا الذكور العربية المريضة.

تناسيت تلك المكالمة واستسلمت لدفء الغرفة وأنا ملتحفة بالبطانية وغرقت في نوم عميق.

(٢٧) استربتيز

ما أروع إحساس الدفء والنوم لوقت متأخر في أيام الشتاء الباردة، أتذكر عندما كانت أمي توقظنا أنا وأختي من أجل الاستعداد للذهاب للمدرسة في الشتاء، كنت أختبئ تحت اللحاف كي اغتنم تلك الدقائق القصيرة في الاستمتاع بالدفء لمدة أطول.

ارتديت ملابسي وانطلقت لعمل جولة بالبلد، سألت موظفة الاستقبال عن أهم المناطق السياحية التي يجب على زيارتها ونصحتني بالذهاب إلى «Red Square» الميدان الأحمر وهي الساحة الأكثر شهرة هناك والتي تفصل بين القلعة الملكية القديمة وبين مقر رئيس روسيا وتعتبر الميدان المركزي لروسيا.

أخذت خريطة للمكان وكارت الفندق وقبل أن أتحرك شعرت بأحد يربت على كتفي، إنها "ألكس" زميلتي الرومانية، سألتني عن وجهتي فأشرت لها على صورة الميدان، انضمت لي حيث كانت زيارتها الأولى أيضا، استقللنا باص الفندق الذي أوصلنا للمكان بعد أن استغرق ساعتين من السواقة، كانت الساعة ٢ ظهرًا، اتفقنا أن نتجمع في نفس المكان الساعة ٦ مساء كي يقلنا للفندق.

الميدان أكثر من رائع، ساحة كبيرة جدًا ويوجد بها كنب مصنوع من الخشب على الجانبين كي يرتاح الزائرون، قررنا أن نتناول فطورنا الأول، وجدنا محلًا

صغيرًا على الرصيف يبيع كريب ساخنًا ابتعنا منه، ثم حملنا أكواب الشاي وانطلقنا نستكشف الساحة الكبيرة.

وصلنا لضريح الراحل " لينين" قائد الثورة البلشفية وأول رئيس للاتحاد السوفيتي، حيث تم تحنيط جثته ووضعها في هذا المكان حتى يتثنى للزائرين المؤمنين بفكره وضع زهور على قبره.

كان يوم عطلة والمكان مكتظًا بالناس الذين انتهزوا إجازتهم وقرروا الاستمتاع بأشعة الشمس التي هدأت من برودة الجو قليلًا، لفت نظري جمال الفتيات واهتمامهن بمظهرهن رغم أن المعيشة هناك ليست سهلة والأسعار نار، لا أعلم كيف مضى الوقت بهذه السرعة، نظرت في الساعة الكبيرة الموجودة في الميدان كانت تشير للسابعة والنصف، هرولت أنا والكس على أمل أن نجد الباص ولكن هيهات، قررنا أن نتناول غداءنا بما أننا لم نلحق الباص، دخلنا مطعمًا صغيرًا، ذكرتني رائحته بـ " مارجو" رفيقة سكني السابقة، عادة أربط ذكرياتي بأغنيات أو روائح مميزة، وددت لو كان معي رقم هاتفها، طلبنا طبقين مختلفين كي نتشارك ونتذوق أطعمة مختلفة،

كان الأكل لا مذاق له نظرًا لأنه لا يحتوي على البهارات التي تترك نكهة مميزة، لكن ما أعجبني أن طريقة طهيهم للطعام صحية، فلم أر زيوتًا أو دهونًا متكتلة مثل مطاعمنا العربية.

بعد أن انتهينا من عشائنا تحركنا للبحث عن محطة أتوبيس لأن التاكسي سيكلفنا الكثير، ألكس كانت جارتي في الدوحة وكنت أعتز بمعرفتها وكنا نتبادل أطباق الحلويات وأحيانا نشاهد معًا أفلام رعب، وكثيرًا ما دعتني

لحفلات بمنزلها حيث كنا نحضر معنا أطباقًا مختلفة للمشاركة ونستمتع بالنميمة على ما يحدث بالشركة وننهي لقاءنا بالرقص على أنغام الموسيقى.

سألتها إن كانت تتحدث اللغة الروسية، أخبرتني أنها تفهم ما يقال وطمأنتني أنها تستطيع أن تتحدث مع أي شخص كي يدلنا على أقرب محطة باصات.

بعد أن تمشينا كثيرًا بدون أن نجد أي محطة، صارت الساعة ١٠ مساء والبرد بدأ يتغلغل في عظامنا، فجأة انهال المطر علينا، يا إلهي، المطر ازداد بسرعة ولم نملك سوى أن ندخل أي مكان لنحتمي فيه، المشكلة أن معظم المحلات أغلقت، بدأنا في الجري إلى أن وجدنا مكانًا مفتوحًا، دخلنا بدون تفكير، كان المكان أشبه بالبار، طاولات مرصوصة بشكل دائري ومسرح صغير أمام الطاولات، ما جذب انتباهي هو أن كل الزبائن سيدات فقط، غريبة معقول كل هؤلاء السيدات كن يتسوقن ودخلن بسبب المطر مثلنا!

قدم لنا الجرسون كأسين من الشمبانيا مرحبا بنا، سعدت ألكس بالشمبانيا خاصة أنها تناولت كأسي أيضًا، طلبت من الجرسون كوب شاي أخضر ساخن، نظر لي بتعجب وذهب.

بعد ربع ساعة توقف المطر وقبل أن نغادر المكان، انطفأت الأنوار وبدأ العرض بعزف موسيقى جميلة وإضاءة تتراقص على أنغام الموسيقى، ثم فجأة هبط من أعلى السقف شاب مفتول العضلات ووسيم جدا بداخل قفص حديدي، كان يرقص مقلدًا النجم الهوليوودي "جون ترافولتا " في فيلم Pulp Fiction، كان العرض مشوقًا وممتعًا وبدلًا من أن نخرج جلسنا لنشاهد بقية العرض.

وإذ فجأة خلع الشاب سترته الجلدية وبدأ يرقص بطريقة عجيبة، ثم خلع البنطلون، هنا بدأنا نفهم أين نحن..

إنه محل إستربتيز للرجال، يا إلهي، لا أصدق ما أرى، هذا يفسر وجود زبائن سيدات فقط، لم أفكر يومًا أن أشاهد عرضًا كهذا وما أذهلني هو جرأة السيدات اللاتي بدأن يجذبن القفص للمس الراقص والحراس يمنعوهن، لم أتمالك نفسي، ضحكت من كل قلبي، تعالي يا أمي شوفي اللي بيحصلي.

ثم دخلت فرقة من الرجال على المسرح يرتدون ملابس مشابهة لنجوم هوليوود، وقدموا عرضًا راقصًا جماعيًا أكثر من رائع وجميعهم يتمتع بالوسامة والأجسام الرائعة، وقتها تذكرت ما كان يُقال عن أن الرجل المصري وسيم وأن الأجنبيات يعشقن الرجل المصري، هههه كم نحن مساكين، أردت أن أراسل هؤلاء الكاذبين كي يروا بأم أعينهم الوسامة والجمال الحقيقي.

بعد عرض الأغاني الراقصة بدأ العارضون بخلع ملابسهم، حيث بقي فقط " الأندر" ثم انتهى العرض بمرور الراقصين على الطاولات وإعطاء السيدات فرصة للمسهم وإعطائهم نقودًا لتحيتهم على العرض، وقتها نهضت أنا وألكس وقررنا أن نشق طريق العودة قبل أن يطالبوننا بثمن مشاهدة العرض، اضطررنا لأخذ تاكسي والعودة للفندق.

في رحلة العودة في صباح اليوم التالي اعتذر لي الكابتن عما بدر منه، لم أناقشه كثيرًا، يكفي أن لديه القدرة على الاعتذار في زمن أصبحت الوقاحة والبجاحة هي طريقة الكثيرين في التعامل، انتهت رحلتي ولكني عدت مرة أخرى في صباح اليوم التالي

(٢٨) من يكذب مرة يكذب ألف مرة

عند تكرار السفر لنفس المكان أكثر من مرة نفقد الحماس لزيارة هذا المكان، وهذا ما شعرت به عند قيامي برحلة موسكو أكثر من مرة، خاصة أنه لم يتم إعطاء الفيزا لجميع المضيفين والمضيفات ولذا تم الاكتفاء بنا للقيام بتلك الرحلة بالتتابع.

لقد أصبح من روتين ذهابي لموسكو، المرور على صاحبة الكشك الصغير بجوار الفندق لأبتاع منها الكريب الذي أحببته والمرور على الرجل الغلبان الذي وافته المنية وهو متجمد أمام مطعم ماكدونالد، بكيت عليه وحمدت اللّٰه أنه رُحم من آلام البرد والجوع وكسرة النفس.

لكن في إحدى رحلاتي تغير شعوري بتغير المعطيات، كنت أساعد زملائي في الدرجة السياحية، حين سألني أحد الركاب عن اسمي فأشرت على البادج، ضحك وانفرجت أساريره ونظر لصديقه قائلًا (قلت لك إنها مصرية) كأنه كان يراهن على ذلك.

تبعني للمطبخ الخلفي وبدأ يفتح معي مواضيع للحديث، لم أمانع، قال لي أنا "عمرو" وأعمل صحفيًا في موسكو في مكتب تابع لشبكة إعلامية عربية كبيرة، قصصت له عن تجربتي المريرية في العمل كمذيعة في قناة الأسرة والطفل التابعة لقنوات النيل المتخصصة تحت إدارة المذيعة المعروفة التي كنت أحبها يومًا ما هي وتلك العروسة المحببة إلى قلبي "بقلظ" ولكنها تفننت في قهرنا وإحباطنا مما دفعني لترك العمل هناك.

عند وصولنا موسكو طلب مني “عمرو” أن يعزمني على العشاء في مطعم عربي وأن يأخذني في جولة في المدينة، صراحة لم أمانع وكنت في حاجة لتغيير الروتين، كان الطقس جميلًا حيث إن الربيع اقترب مما أضاف جمالًا على المدينة، كانت معي زميلتي إيناس من تونس وطلبت مني أن تنضم لنا، بالطبع رحب عمرو، لا يوجد رجل يرفض اصطحاب سيدات العالم حتى لو اجتمعن.

ذهبنا في جولة في شوارع موسكو، حدثنا خلالها عن دراسته للصيدلة هناك وأن كثيرًا من المصريين يفضلون الدراسة في موسكو، لأنها أسهل بكثير مقارنة مع كليات الصيدلة في مصر، كما أن معظمهم يتزوج من روسيات، فالرجال في روسيا يفضلن العلاقات غير الرسمية وقليل منهم من يتزوج ولذلك لم تمانع الكثير من الفتيات الروسيات من الزواج بغرباء ولكن للأسف كثير من المصريين بعد أن ينهي دراسته يترك زوجته ويرحل ولا يعبأ حتى بتطليقها، الوجه القبيح للرجل العربي المريض نفسيًا.

بعد جولة جميلة ودردشة ممتعة توجهنا لمطعم ألف ليلة وليلة، المعروف جدًا في موسكو، كان المطعم يعج بالعرب من كل مكان، ويوجد في وسط المطعم مسرح صغير، حيث يتم عرض رقصات شرقية خلال العشاء، لم أستمتع بالأكل، أعتقد لأن الطباخ روسي ولا يتقن طهي الأطباق العربية، بدأت الراقصات الروسيات الدخول على نغمات أغنية” حبيبي يا عيني” مرتديات بدل رقص فاضحة، يتمايلن بحرفية كما لو كن راقصات شرقيات عربيات، بل أفضل بكثير.

شاركتهم إيناس وعمرو بالرقص، كنت مستمتعة جدا بالجو ولكن لم أملك الجرأة للانضمام لهم، جلس عمرو بجواري وبدأ (يغني علي) بكلمات رشيقة عن إعجابه بي وبشخصي وطبعا بكل سذاجة صدقته، سألته إن كان مرتبطًا فنفى بحزم، واشتكى من شعوره بالوحدة وصدقته.

في طريق عودتنا للفندق طلب مني أن يعزمني على الغذاء في اليوم التالي عند أصدقائه موضحًا لي أنهم عائلة مصرية من النوبة وأنهم سيسعدون بالتعرف علي، لم أتردد في القبول، طلب مني عدم اصطحاب إيناس معنا، وكنت متأكدة أن لديها خططًا أخرى خاصة أنها أعطت للموظف الأرضي رقمها كي يتواصل معها.

مر علي في الموعد، وغازلني بكلمات رقيقة، ثم أخبرني عن احتمال ذهابه لقطر قريبا وطلب مني أن نتقابل حينها فأعربت له عن سعادتي بذلك.

استقبلني أصدقاؤه بترحاب شديد، عائلة مصرية من النوبة الزوج "محمد" والزوجة "مريم" مسيحية، الحب بينهما يغمر المكان، استشعرته في نظراتهم ودعابتهم، تمنيت أن أُكون أسرة مثلهم، أعدوا لنا غداء مصريًا أصيلًا (حمام محشي وملوخية) استمتعت بالغداء جدًا وبمناقشة مواضيع الغربة والهجرة وحال البلد وقصصت عليهم طرائف حدثت معي في رحلاتي.

خلال احتسائنا للشاي سألت مريم عمرو عن ياسمين، تردد عمرو في الإجابة وتغير لون وجهه، شعرت أن هناك شيئًا ما، تفحصت قسماته جيدا وأنا منتظرة إجابته، قال لها هي بحالة جيدة، ثم استطردت في سؤالها وأعتقد

تعمدت ذلك إما لكشف عمرو أو لإحراجي على أساس أنني على علم بياسمين.

التفتُ لعمرو وسألته من هي ياسمين، ردت مريم بضحكة متوترة، أظن أنني عكيت في كلامي، أجابني عمرو إنها صديقته ورفيقة سكنه، أحرجته السيدة عندما أضافت وحبيبة القلب كمان

لم يرد عمرو بأي كلمة، هبطنا في حال غير الحال، ظل يثرثر عن عدم حبه لها وعن أنه قطع علاقته بها، وفي ثوانٍ كان هاتفه يرن معلنا أن ياسمين تتصل، تجاهل اتصالها وتجاهلت حديثه وصلنا للفندق، شكرته على العزومة وذهبت.

ظللت أبكي في غرفتي ليس لأنني قررت أن أتركه ولكن حزنا على حالي، لماذا أقابل دائمًا الشخص الغلط، هل المشكلة في! لطالما حلمت بذلك الفارس الذي سيعوضني ما فات ولكن من الواضح أنه لا يوجد فارس ولا حتى خيّال وأنه كتب علي الوقوع في براثن هؤلاء الحثالة، كم أكره الكذب وكم أحتقر الكذابين.

عند عودتي طلبت تغيير رحلاتي، لا أريد الذهاب لموسكو ولا الشعور بأنني غبية مرة أخرى، كلما شاهدته وقد سطع نجمه وهو يتنقل بين القنوات وقد أصبح من المطبلين للسلطان، ابتسم وأحمد الله كثيرًا وأنا على يقين أن من يكذب مرة يكذب ألف مرة

(٢٩) بلد العشاق

تم قبول طلبي وجدت في جدولي رحلة إلى جزر المالديف، سعدت كثيرًا فأنا من عشاق البحر، كان معي "وليد" مساعد طيار عماني الجنسية، عدد الركاب قليل، معظمهم عرسان جدد وأحبة منطلقين لتمضية وقت جميل معًا.

من بين ركاب درجة رجال الأعمال سيدة خليجية ومرتدية العباءة وبجوارها ابنتيها وزوجها، كانت متحدثة لبقة ولطيفة، انضمت لنا أنا وهند المغربية بعد أن انتهينا من تقديم وجبة الفطور.

أعددنا كاسات الشاي وتشاطرنا بعض البسكوت، حدثتنا عن ابنتيها وعن حياتها، استمتعنا بحوارها الخفيف وقد كسرت في خيالي الصورة النمطية عن السيدات الخليجيات، حيث إن اختلاطنا بأهل الخليج لم يكن على نطاق واسع.

قبل الهبوط خلعت تلك السيدة عباءتها وظلت بملابسها الكاجوال التي كانت تخفيها تحت العباءة، اعتقد أن هذا طبيعي فنحن الآن في بلد غير البلد، وغير ذلك لقد تربينا في مجتمعات مشوهة، تفرض على الشخص أن يعيش تناقضات عدة مما ينتج أشخاصًا فاقدي الهوية..

وصلنا للفندق في وقت مبكر جدًا وقررنا أن ننعم بالقليل من النوم ثم ننطلق لنكتشف المكان، غرف الفندق بسيطة جدًا، سعدت بوجود علامة لاتجاه القبلة في السقف، عادة كنت أحمل معي سجادة عليها بوصلة كي أستطيع تحديد القبلة، علمت بعد ذلك أن نسبة المسلمين في المالديف ١٠٠٪.

بعد نوم عميق توجهت لموظف الاستقبال لحجز رحلة بحرية في اليوم التالي ثم توجهت لحمام السباحة الذي يطل على البحر، يا إلهي منظر بديع، المياه شفافة، لم أستطع المقاومة قفزت كالسمكة وقضيت ساعتين من السباحة حيث إن الجو في مالديف حار ورطب على مدار السنة.

انضم لي وليد وهند ومريم المغربيات والكابتن الكرواتي الجنسية، تناولنا عشاءنا على أنغام الموسيقى الهادئة الممتزجة بصوت موج البحر وبجوارنا العديد من الأحبة والعرسان الجدد في غاية السعادة أو هكذا بدوا لي، لطالما حلمت بشهر عسل في المالديف، شعرت بالضيق ليس لأنهم سعداء ولكن لأنني فشلت في إيجاد شريك لي أنعم في حضنه بالحب والدفء والأمان.

لا أعلم لماذا لم يوفقني الله لأجد فارس أحلامي ! لا أعتقد أنني أطالب بالكثير كل أملي أن أجد رجلًا يعجبني خَلقًا وخُلقًا، نعم يهمني جدًا أن يكون وسيمًا، الشكل مهم جدًا والكيمياء أيضا مهمة أريده طويل القامة مثلي، مرح يعشق الضحك مثلي أيضا، كريم لا يبخل على بحب أو مال، صادق معي حتى لو كان صدقه سيؤلمني على الأقل هو أفضل من أن يكون كذابًا فأنا لا أتحمل الكذب والكذابين، وأن يكون مخلصًا لي أليس من حقي أن أجد من يحبني أنا فقط وأن أكون كافية له، أليس من حقي أن أجد ذلك الرجل الذي سيتحمل عصبيتي ويحتضنني وقت ضعفي وأن يرتحل معي وقتما نشاء، لا أتخيل نفسي ارتبط برجل لا يحب السفر وأيضا لا أتحمل فكرة أن أتزوج رجلًا جاهلًا غير مثقف، أعتقد تلك صفة قاتلة للحياة نفسها، إلى جانب أنني كارهة للروتين وأتمنى أن أجد من يشبهني أو من يجتاح قلبي وعقلي

فأستسلم مرحبة بوجوده وحبه وأن يريدني لأنه يحبني وليس لأنه يراني صفقة ما، هل هذا بكثير يا ربي !!

تحدثنا عن أفكارنا عن الحياة ومخاوفنا، أخبرتهم عن خوفي من الموت وحيدة أو في حادث طائرة، فقال الكابتن إنه يشعر أنه سيموت بين أبنائه، وحزنت عندما سمعت عن خبر وفاته بعد رحلتنا تلك بشهر أثناء إجازته بين أفراد أسرته، تمامًا كما تخيل.

هل نحن بالفعل نصنع أقدارنا !!

في صباح اليوم التالي بدأنا رحلة استكشاف جزر مالديف الجميلة، ما لفت نظري هو أهل مالديف ووجوههم السمحة، مبتسمون دائمًا رغم بساطة حياتهم.

حملنا المركب إلى جزيرة «كرنبة» نعم هذا اسمها، جزيرة صغيرة رمالها صافية ومياهها شفافة جدًا، رميت نفسي في أحضان المياه لم أشعر بالتعب من شدة جمال ونقاء المياه، تناولنا غداءنا ثم اتجهنا إلى مخيم أعده المنظمون لإقامة مسابقات ترفيهية والتي كانت ممتعة جدًا.

بعد انتهاء البرنامج الترفيهي استمتعنا برحلة بحرية ليلية بالقارب إلى الفندق، الجميع كان مرهقًا جدا، لذا ذهبنا جميعًا لننال قسطًا من النوم قبل رحلة العودة والتي كانت أقصر وعدد الركاب كان أقل بكثير مما توقعت.

عدت للمنزل وجدت رفيقات السكن يحتفلن بنجاحهن في اجتياز الاختبارات التمهيدية ودعوا أصدقاءهم، مما جعلني أشعر بعدم الراحة في منزلي فقررت

أن أطلب نقلي لسكن آخر جديد بعد أن سمعت من الفتيات عن أن السكن الجديد أفضل بكثير.

وأيضا بسبب حادثة صراخ إحدى الفتيات والتي هرعت لخارج المبنى بلبس النوم مدعية أنها رأت شبحًا بغرفتها، وقتها قررت أنه من الأفضل لي تغيير المكان، لقد عشت لحظات مرعبة أنا الأخرى هناك، مرة عندما كنت جالسة على سريري أتصفح إحدى مجلات الأزياء وإذ فجأة اهتز سريري بشدة، فحسبت أنه زلزال، نظرت للمرآة الموجودة على الدولاب ورأيت حروفًا تكتب بلغة مختلفة وبسرعة رهيبة ثم تختفي، قفزت من على سريري واتجهت لغرفة روزي التي نفت حدوث زلزال.

وأيضا لن أنسى صوت الطرق على شباك نافذتي كل يوم في تمام الساعة ٣ صباحًا، لدرجة أنني في إحدى المرات من شدة الخبط اتصلت بموظف الأمن كي يفتش عن سبب الخبط وطبعًا لم يجد شيئًا وأيضا قصة نجوى صديقتي التي كانت ترى أشباحًا يقفزون من نافذتها، لذا قررت أن أنقل وقد كان.

(٣٠) القتيل

. خلال يومي الراحة كنت قد انتهيت من النقل واستقررت في منزلي الجديد وأنهيت التدريب واستعددت لرحلتي إلى جنوب إفريقيا (جوهانسبرج)

كنت سعيدة بالطاقم متعدد الجنسيات وخاصة الكابتن ومساعده المصريان اللذان بديا لطفاء جدًا، خلال الرحلة وبعد أن انهينا تقديم الوجبات، طلب مني الكابتن الانضمام لهم في الكابينة واحتساء الشاي معهم، بالفعل أحضرت لهم طبقًا من المكسرات وأحضرت لنفسي كوبًا من الشاي، حدثنا الكابتن عن مغامراته أثناء عمله بشركة مصر للطيران، ثم حدثنا عن عائلته الصغيرة التي يفتقدها، شعرت بمدي اشتياقه لهم ومدى فخره بهم، لا أعلم لماذا ذكرني بأبي وجدت نفسي مستمتعة بأحاديثه الشيقة مثلما كنت أستمتع بقصص والدي رحمه اللّٰه.

عند وصولنا المطار، نبه علينا الكابتن أن نتحرك معا وأن المكان ليس آمنًا ويجب أن نتوخى الحذر في تحركاتنا، شعرت أنه يبالغ بعض الشيء ولكن صدمنا عندما قال إن مدير مكتب المبيعات التابع لإحدى شركات الطيران الخليجية، تم قتله أمام الفندق وهو يتحدث في هاتفه من قِبل شخص يحمل مسدسًا، عندما طلب منه الحرامي أن يعطيه الموبايل فتردد مدير المكتب أن يعطيه له، فأرداه قتيلًا في التو، وقتها شعرت بالخوف الشديد، يا إلهي لست مستعدة للموت الآن.

ركبنا الباص وتحرك بنا متجهًا للفندق وكانت عيناي مركزة على الطريق، كنت أتفحص البلد الذي بدا نظيفًا جدًا وفي غاية الجمال، حتى الطقس كان رائعًا، هذه أفريقيا، ما هذا الجمال والروعة، إنها من أجمل البلدان التي زرتها.

في الفندق خلال انتظارنا لمفاتيح الغرف، تمت ضيافتنا بأكواب من الكاكاو الساخن اللذيذ، ألذ كاكاو تذوقته في حياتي، لدرجة أننا جميعًا طلبنا أكوابًا إضافية، خاصة أن الطقس كان شتويًا، وسخونة الكاكاو وطعمه اللذيذ جعل لتلك اللحظة مذاقًا وسحرًا خاصًا.

بدلنا ملابسنا جميعًا وهبطنا للذهاب إلى ميدان مانديلا القريب جدًا من الفندق لتناول وجبة عشاء لذيذة، تعلمت عندما أزور مطعمًا لأول مرة، أن أطلب طبق المطعم المفضل ويُطلق عليه (signature dish)، حيث يتفنن كل مطعم في عرض أفضل أطباقه في قائمة الطعام تحت هذا المسمى، لذا طلبت أحد هذه الأطباق وكان بالفعل من أفضل ما تذوقت وقررت أن أتعلم طريقة طهيه، أعتقد أنني يومًا ما سأفتح مطعمًا أقدم فيه كل الأطباق التي أحببتها وأطلق عليه "مطبخ نهى "

في صباح اليوم التالي وبعد نوم عميق التقينا في بهو الفندق كما اتفقنا حيث قام الكابتن بحجز أتوبيس خاص يقلنا إلى منتجع Sun City، والذي اتضح أنه يضم سفاري صغيرًا يحتوي على بعض الحيوانات البرية وأيضا شاطئًا وأمواجًا صناعية، أتذكر هلعي عند عبوري على كوبري من الحديد والذي فجأة اهتز ثم تشقق لنصفين ثم عاد مرة أخرى سليمًا، وقتها اكتشفت أنه مصنوع للإثارة تمامًا مثل الأمواج الصناعية التي كانت مزدحمة بالزائرين، وأيضا المكان يضم صالة قمار كبيرة مثل التي نراها في الأفلام الأمريكية.

قضينا نصف اليوم نتنقل من مكان لآخر ونجرب كل أنواع الألعاب والأرجوحات، وكنا جميعًا في حاجة للانطلاق، أكثر ما أسعدني هو وجود الكابتن محمد معنا، لا أعلم لماذا شعرت بارتياح شديد له كما لو كان أبي، حتى بقية الفتيات شعرن بنفس الشيء.

بعد انتهاء رحلتنا اتفقنا على التجمع لتناول العشاء في نفس المطعم اليهودي، ثم ختمنا عشاءنا بآيس كريم لذيذ، ثم التقطنا بعض الصور بجوار تمثال مانديلا الذي لم يكن فقط قائدًا ثوريًا، بالنسبة لي مانديلا مدرسة نتعلم منها مبادئ السعي والصبر والمثابرة، من يعرف تاريخ مانديلا وما عاناه من أجل إعلاء كلمة الحق سيدرك تمامًا قيمة هذا الرجل العظيم رحمه اللّٰه.

في الصباح انتظرنا أنا والكابتن بقية الفريق في الاستقبال حيث استمتعنا بكوبين من الكاكاو اللذيذ ثم شققنا طريقنا لعمل جولة السفاري والتي تبعد مسافة ساعتين عن الفندق والذي اصطحبنا فيها اثنان من موظفي الأمن.

عند وصولنا تم تقسيمنا مجموعتان كل مجموعة ركبت سيارة كبيرة يحيطها قفص حديدي، حيث انطلق بنا السائق داخل الأدغال والتي رأينا فيها شتى أنواع الحيوانات البرية المفترسة، كنت مرعوبة خاصة أنني أعاني من مرض فوبيا الحيوانات، حاولت أن أطمئن نفسي بوجود القفص الحديدي ولكن لم أستمتع كثيرًا بتلك الجولة ما أمتعني هي لكنة أهل البلد القوية، يتحدثون الإنجليزية بلكنة مختلفة لها جمال خاص، لا أعتقد أن عندهم ثقافة الاستخفاف من اللكنات المختلفة مثلما يحدث في بلداننا العربية.

بعد انتهاء جولة السفاري انتقلنا إلى مخيم كبير وضعت به النماذج البدائية للحياة في أدغال أفريقيا، قام بإرشادنا شباب من السكان الأصليين لجنوب أفريقيا، أصحاب البشرة السمراء الرائعة الجمال، كما أمتعونا بعروض ترفيهية راقصة مرتدين فيها الخوص والأزياء التقليدية العجيبة.

بعد انتهاء جولتنا عدنا للفندق، وبما أن الفندق كان متصلًا بأحد المولات فقررت أن أتمشى قليلًا في المول والتعرف على المحلات والأغراض التي تباع هناك، ذهبت أنا وتينا الهندية زميلتي وخلال تجولنا سمعنا طلقات نار، هرعنا لداخل أحد المحلات الذي أغلق بابه فور دخولنا، سألته إن كان هذا يحدث كثيرًا فأجابني إنهم معتادون على ذلك.

عدنا مباشرة بعد حضور الشرطة، حيث مررنا بجوار جثة على الأرض مغطاة بالبلاستيك، مشهد صعب أثار في نفسي الرعب، هذا الشخص كانت له طموحات وأحلام وحياة وأهل وأحبه، قضى عليها شخص بائس بكل برود، كيف يحمل أي شخص بداخله هذا الكم من البشاعة لدرجة أن يستبيح حياة الآخر، نفس التساؤلات التي تعبئ رأسي كلما رأيت جشع الحكام الذين ينتهكون حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها.

في صباح اليوم التالي قمنا برحلة قصيرة للعاصمة " كيب تاون "والتي تشتهر بساحلها الرائع، مدة إقامتنا هناك ٢٤ساعة فقط، لذلك قررنا الخروج مباشرة بعد استلام مفاتيح الغرف، لنجوب منطقة " سي بوينت" على الساحل الذي سحرنا بجماله ورماله البيضاء ومياهه الشفافة، الجو كان باردًا بعض الشيء ما زاد من جمال التنزه، كم أعشق نسمة البرد أمام موجات البحر الهادئة

تناولنا عشاءنا في مطعم أسماك يقع على الساحل، وجلسنا نناقش تاريخ ذلك البلد الذي شهد أسوأ نظم العنصرية في تاريخ البشرية وكيف قام مانديلا بإرساء قواعد الديمقراطية حين نظم لجان الحقيقة والمصالحة وهي لجان يقف أمامها الناس للاعتراف بالموبقات السياسية التي اقترفوها إبان حقبة العنصرية لتعفو عنهم اللجان، تلك الخطوة كانت البساط السحري الذي عبرت عليه البلاد إلى بر الأمان.

وتساءلت هل من الممكن أن نجد البساط السحري للخلاص من ديكتاتورية حكامنا.

«الشجعان لا يخشون التسامح من أجل السلام».

نيلسون مانديلا

خوفي من حوادث القتل ومن زوار الليل جعلني أترك جميع الأضواء مضاءة حتى التليفزيون، صوته يبعث على الطمأنينة، في الصباح استعددنا لرحلة العودة والتي كانت طويلة ومتعبة، حاولت استثمار الوقت في بيع بعض أغراض السوق الحرة على متن الطائرة والتي كانت إحدى مهامي، حيث إن من يقوم ببيع الأغراض على الطائرة يدخل له جزء بسيط من الربح ولكن لو اختفى أي غرض أو ضاع يخصم أيضًا من حسابنا، انتهت الرحلة باكتساب صداقات جديدة ومعارف كثيرة ومعلومات ثمينة وبعض الريالات الإضافية في حسابي بعد نجاحي في بيع الكثير من بضاعة السوق الحرة.

(٣١) الحمّام المغربي

كنت سعيدة بجدولي الذي امتلأ برحلات لبلدان جديدة لم يسبق لي زيارتها وخاصة أن بها مبيتًا وليس فقط ذهابًا وإيابًا، رحلات اليوم الواحد متعبة بشكل كبير وكانت الشركة تضعها كوسيلة للعقاب إذا تأخر أحدنا عن رحلته أو أخذ إجازة مرضية أكثر من اللازم.

يتم معاقبتنا بتغيير جدول الرحلات إلى رحلات اليوم الواحد والتي تكون وجهتها إما لبلاد عربية أو هندية، حيث نطير ساعات اليوم بين السحاب وينتهي اليوم في السرير في محاولة لاقتناص بعض الراحة قبل الانغماس مرة أخرى في الخدمة المتعبة ومن تلك الرحلات رحلة القاهرة والتي تكون دائمًا ممتلئة بالركاب والأطفال، ونظل نحن المضيفات نلبي طلبات الركاب حتى آخر لحظة.

كل دولة عربية ورحلتها لها طابع خاص، رحلة القاهرة مثلًا معروفة بصراخ الأطفال وطلب الركاب لأقراص البنادول، أما رحلة الأردن فكانت معروفة بضيق خلق المسافرين وكآبتهم التي تظهر على طريقة التعامل الجافة، رحلة لبنان معروفة بالفتيات المرتديات أحدث صيحات الموضة والمائلة للعري إلى جانب لسان شبابهم الحلو ومعاكستهم الدائمة لنا، رحلة السودان معروفة برائحة البخور وملابس السيدات الملونة والزاهية أما رحلات الخليج فكانت خليطًا من الهنود والخليجيين والأجانب لذا لم تكن تحمل طابعًا خاصًا يميزها.

كنت أستعد لرحلتي الأولى إلى "كازابلانكا" بالمغرب، فأنا عاشقة للمطبخ المغربي وملابسهم التقليدية مثل " التكشيطة" وهي العباءة التي ترتديها الفتيات في المناسبات الخاصة، بالإضافة إلى الحمّام المغربي الذي سمعت عن فوائده الكثير وقد أنتويت أن أجربه فور وصلي.

الرحلة كانت طويلة ومتعبة شبيهة برحلة القاهرة، كثير من الأطفال والطلبات اللامتناهية، حمدت الله أننا أخيرًا وصلنا بعد ٧ ساعات متواصلة من العمل، حملنا أغراضنا وحقائبنا وذهبنا للفندق الذي يقع في وسط البلد، وبما أن إقامتي قصيرة هناك لا تتعدى ٣٦ ساعة منها ١٠ ساعات نوم، قررت أن أذهب فورًا للحمّام المغربي.

بالفعل بدلت ملابسي واستقللت التاكسي، طلبت منه أن يوصلني لأقرب حمّام، الرجل سعد جدًا بكوني مصرية وأعرب لي عن حبه للمسلسلات المصرية والفنانين المصريين، أوصلني لأحد الحمّامات ونزل معي للتأكد من وصولي للباب ثم طلب من العاملة أن تعتني بي جيدًا.

اصطحبتني الفتاة إلى الداخل وأعطتني ليفة جديدة وصابونة وطلبت مني الدخول للحمام وخلع ملابسي والبقاء بالملابس الداخلية إن شئت، تعجبت من كلامها وماذا تعني إن شئت؟

ما إن دخلت الحمام حتى شعرت بالاختناق، المكان معبأ بالبخار وممتلئ بالسيدات العرايا، يا إلهي كلهن عرايا تمامًا، حشمت من النظر لهن، طلبت مني الفتاه الجلوس أمام أحد صنابير المياه حتى ترسل لي "الحكاكة" التي تقوم بفرك الجسم وتدليكه، جلست مقابل الحائط من شدة خجلي من السيدات

اللاتي لم يهتممن بوجودي إلى أن طلبت مني "الحكاكة" خلع ملابسي وأجبتها لا طبعا، ضحكت ثم بدأت في تجريدي من حاملة الصدر وقالت لي على الأقل اخلعي هذه، ثم بدأت بفرك جسدي بتلك الليفة الخشنة والذي أخرجت الجلد الميت على شكل خيوط سوداء كثيرة، حلفت لها أنني أستحم يوميًا، قالت لي لذلك نحن هنا لا نعترف سوى بالحمام المغربي.

عندما سمعت السيدات كلامي وأدركن أنني مصرية، سمعتهن يقلدن لكنتي ويضحكن، ثم بدأن بالحديث معي عن مصر وعن المسلسلات وحبهن لمصر، كنت مستمتعة جدًا بالحمّام.

بعد أن انتهت الفتاة من تدليك جسدي صبت على الماء الساخن وغسلت لي شعري جيدًا ثم لففت نفسي بالفوطة وخرجت منتعشة جدًا كما لو أنني ولدت من جديد، يا بختهم بهذا الحمّام المنعش الذي يحرصن عليه أسبوعيًا. تجربة لن أنساها.

عدت للفندق وأنا في حالة استرخاء تام، تناولت العشاء مع بقية الطاقم، في مطعم الفندق وعدت لغرفتي وأثناء استعدادي للنوم فوجئت برجل يفتح باب غرفتي، تخشبت مكاني وجحظت عيناي، سألته ماذا يريد؟ اعتذر وقال إنه اعتقد أن الغرفة خالية وأنه جاء لتنظيفها، هاتفت خدمة الغرف وبلغت عن قدوم موظفهم لغرفتي، اعتذروا متحججين بزيادة عدد الزائرين وحدوث لخبطة في تسليم الغرف، ثم علمت بعد ذلك أنه عادة تفتح الغرف وتتم سرقة الأغراض التي بها.

وضعت كرسيًا خلف الباب خوفًا من دخول أي شخص أثناء نومي

رحلة العودة كانت متعبة، تمنيت لو أحصل على إجازة يومين أرتاح فيهما ولكن ليس كل ما نتمناه نجده، كان عليَّ أخذ قسط من الراحة لأستعد لرحلتي في اليوم التالي إلى سيريلانكا بلد الأفيال والجبال.

(٣٢) سيريلانكي ولكن

أصبح وجودي بالدوحة نادرًا جدًا وحتى إجازاتي معظمها كانت تحتسب من ضمن أيام إقامتي بالرحلات الطويلة، مرهق جدًا السفر الدائم والتحليق عاليًا دون قواعد راسية على الأرض، بدأت أمل فكرة السفر، ويقل شغفي بتكرار نفس الرحلات لنفس الدول وبدأت الوحدة تغلف حياتي وتجاعيد الزمن تظهر على وجهي.

في الصباح وأنا أستعد للذهاب لرحلة سيريلانكا وجدت مشرفة السكن تطرق الباب، انقبض قلبي، بالتأكيد معها شريكة سكن جديدة، أخبرتني أن شريكتي الجديدة ستصل مساء اليوم وأنها من بلدتي، امتعضت كثيرًا، خبرتي مع أبناء بلدتي كانت الأسوأ، أخذت احتياطاتي وحفظت أغراضي في غرفتي وأغلقت عليها.

تركت رسالة ترحيب للساكنة الجديدة وبها شروط وجدول النظافة وذهبت لرحلتي، رغم أنني كنت على يقين أن تلك الشريكة ما هي إلا ابتلاء جديد.

رحلتي إلى مدينة "كولومبو" أكبر مدن سيريلانكا وتعد العاصمة الاقتصادية، جميع زملائنا السيريلانكيين كانوا يتحدثون بلغة إنجليزية جيدة جدًا، أعتقد نظرًا لاحتلال بريطانيا لسيريلانكا فترة طويلة، الرحلة كانت ممتلئة، معظمهم حاملو جوازات سفر بريطانية ويتباهون بذلك بشدة خاصة عندما سألت أحدهم عن جذوره وأجابني جدي سيريلانكي ولكن أنا بريطاني، إنها

العنصرية اللعينة التي خلقت بداخل الكثيرين الحاجة لإثبات أنهم أفضل بأي طريقة.

لم يكن معنا ركاب في الدرجة الأولى، لذا قررت مساعدة زملائي في درجة رجال الأعمال، معظم السيدات يضعن طرحًا على رؤوسهن، أعتقد لأن عدد المسلمين كبير في سيريلانكا، كان معنا أحد الوزراء لا أتذكر أي وزارة ولكنه كان متحدثًا لبقًا وثرثارًا أيضا، هذا النوع يعتقد أن المضيفات موجودات على الطائرة لتستمعن لحديثه حتى لو كان هراء.

بطبيعتي لا أحب الكلام الكثير، لست مثل كثير من النساء فأنا أمقت النميمة ولا أهتم بمعرفة أسرار الآخرين ولا أحب الثرثرة.

أزعجني هذا الوزير بحديثه المتواصل عن رحلاته ومغامراته، قررت الانصراف للدرجة الأولى وإذ به يتبعني إلى هناك ليكمل قصصه المملة، لم تكن ابتسامتي الصفراء التي تنم عن شعوري بالضجر كافية ليكف عن الثرثرة، لذا طلبت منه التوقف عن الحكي متحججة بانشغالي، اعتذر وعاد لكرسيه وشعرت أنا بالضيق من تصرفي.

تجاهلت ما حدث ودخلت كابينة القيادة جلست بدون أن أنطق كلمة، عاتبني الكابتن لتجاهلي لهم، لماذا الكل يعشق الثرثرة، لا أريد التحدث مع أحد، أين أذهب في بطن ذلك الطائر المحلق، نظر لي الكابتن واعتذر، قال لي "أنا فقط أمزح، من الواضح أنك متعبة، فلتنالي قسطًا من الراحة هنا ولن نزعجك"، شكرته وجلست أفكر في حياتي وسنين عمري التي تمر وأنا بين السحاب،

هل كان حلمي كافيًا ليسعدني أم أنه لا يوجد سعادة أبدية وكل شيء يفقد قيمته بعد أن نحققه.

عند وصولنا وفي طريقنا للفندق لاحظت جمال الطبيعة، اللون الأخضر يحيطنا، بديعة تلك البلاد التي مازالت تحتفظ بطبيعتها بدون تدخل الإنسان، للأسف مدة بقائنا قصيرة جدًا ولن تكفيني لاستكشاف المكان.

الفندق رغم أنه ليس تابعًا لسلسلة فنادق معروفة إلا أنه كان بديعًا من الداخل فلقد اعتمدوا على الطبيعة الخلابة التي تكشفها النوافذ الكبيرة.

اتصل بي زميلي "كوستادين" البلغاري وأبلغني أن الطاقم قرر تناول العشاء بالخارج ودعاني لأنضم لهم فوافقت، في طريقنا للخارج ركبنا التوكتوك الذي أخذنا في رحلة قصيرة إلى الشاطئ، كم ابتهجت عند وصولنا هناك، البحر يمتلك قوى سحرية على نفسيتي.

لن أنسى هذا المطعم المتواضع " بيتش واديا" عبارة عن غرفة لطهي الطعام وكراسٍ خشبية على الرمل أمام البحر مباشرة، طلبنا روبيان بالشطة وكابوريا بحليب جوز الهند، كم كان الطعام لذيذًا، كانت الإضاءة عبارة عن شموع موزعة على الطاولات، تشاطرنا الحكاوي والقصص وأخبار الشركة ثم شعرنا بالنعاس بعد أن نسفنا الأطباق.

عدنا للفندق وكنت أغالب النوم حتى أصل لغرفتي، ما إن دخلت حتى ارتميت على الفراش، أعتقد تعب الرحلات قد حلَّ عليَّ، استيقظت على اتصال من كوستادين ليخبرني أنني متأخرة على موعد التجمع للرحيل.

انتفضت من سريري مسرعة لأستعد في خلال ٥ دقائق، كنت ما زلت أشعر بالنعاس ولكن ما باليد حيلة، هبطت للبهو وجدتهم في انتظاري اعتذرت لهم عن التأخير وتوجهنا للطائرة، كنت سعيدة بعدم وجود ركاب، ظللت أغالب النوم حتى وصلنا أخيرًا، وقتها حمدت الله أن لدي يومًا إجازة قبل أن أطير مرة أخرى.

كنت نسيت أن لدي شريكة سكن جديدة، ما إن وصلت المنزل وأنا بالخارج شممت رائحة عفنة قادمة من شقتي، فتحت الباب وإذ بأطباق عليها بقايا ساندويتشات على الطاولة وأعتقد أنها موجودة منذ أن قدمت تلك الفتاة، التي بحثت عنها في المنزل ولم أجدها.

دخلت غرفتي واتصلت بمشرفة السكن وأخبرتها بما وجدت، أبلغتني أنها ستتحدث مع الفتاة، بعد قليل من الوقت دخلت الفتاة للمنزل، اقتربت مني وعانقتني وقبلتني كأنها تعرفني، لم أكن مرتاحة من طريقتها تلك، قالت لي أعرفك بنفسي أنا " نيرفين " من الإسكندرية.

رحبت بها وأخبرتها عن قوانين النظافة، وعدتني بالحفاظ على نظافة المنزل، وكما توقعت كانت فعلًا ابتلاء.

(٣٣) (رجل على أريكتي)

مع شركاء السكن تعلمت أن أكون صارمة فيما يخص النظافة وكانت شريكتي الجديدة على النقيض، ما أذهلني حقًا هو شخصية نيرفين الغريبة، كانت ممتلئة القوام وقوية، مما جعلني أعتقد أنها تمارس رياضة رفع الأثقال، وجدت بين أغراضها المبعثرة في كل مكان أفلامًا للفنانة نادية الجندي وقالت لي إنها مثلها الأعلى، اعتقدت أنها تمزح إلى أن أخرجت بعض بواريك الشعر المستعار التي تشبه شعر تلك الفنانة في بعض أعمالها.

ليس ذلك فحسب، دعتني لغرفتها وفتحت خزانة ملابسها لتريني ملابسها التي تتطابق مع ملابس تلك الفنانة في أدوارها المثيرة، يا إلهي هذه الفتاة مريضة فعلا، شعرت بالقلق منها وحرصت على خلق مساحة بيننا في التعامل، وحاولت أن أقلل احتكاكي بها قدر الإمكان، لم أرتح لها ولا لطريقتها في الحديث.

في اليوم التالي قررت أن أقضيه مع صديقاتي المصريات، ذهبنا للكورنيش وتناولنا غذاءنا في كنتاكي ثم عدت للمنزل لأجد رجلًا جالسًا في غرفة المعيشة، ألقيت عليه السلام ودخلت لغرفة نيرفين التي وجدتها مرتدية أحد فساتين نادية الجندي ومتزينة بالشعر المستعار، سألتها عن وجود هذا الشخص، ففسرت لي وجوده بأنها تزوجته عرفيًا، نظرًا لأن قوانين الشركة تتطلب موافقة من المدير.

صدمت من جرأتها، شرحت لي أنها مطلقة وأنها بحاجة لرجل في حياتها، تفهمت ذلك وطلبت منها أن تزوره هي وليس العكس، وأنني لا أحب أن أدخل منزلي لأتفاجأ برجل غريب جالس بكل أريحية على أريكتي، وعدتني بعدم تكرار ذلك إلا إذا كنت أنا في رحلة.

تمنيت لو رحلت تلك الفتاة أو انتقلت مع زوجها ورحمتني من وجودها معي.

أعددت حقيبتي لرحلتي التالية إلى باريس عاصمة فرنسا، كنت متحمسة جدًا لزيارة باريس التي رأيت معالمها في أحد أفلامي الرومانسية المفضلة "Before Sunrise" وتمنيت لو التقي بفارس أحلامي هناك كما فعلت البطلة.

في الصباح بعد أن أقلني الباص مر بنا على منزل حفصة وأقلها معي، سعدت برؤيتها وسألتها عن وجهتها، قالت لي باريس، فرحت جدا كما فرحت هي الأخرى وبدأنا في وضع خطط للتنزه واستغلال الوقت بأفضل صورة.

طاقم الرحلة جميعهم سعداء بتلك الرحلة وكان من بينهم فتاة تونسية اسمها "ألفة" ومشرفة الرحلة سيدة فلبينية كبيرة في السن اسمها تيريزا، كان يلقبها بعض الفتيات بماما تيريزا، تلك الرحلة كانت أولى رحلاتي معها، بعد أن تعارفنا جميعًا وانتقلنا للطائرة، كنت أعمل مع حفصة وتيريزا في الدرجة الأولى، يا لها من رحلة، وجود أصدقاء معي في الرحلة يخفف من ساعات السفر الطويلة والمملة.

بعد أن انتهينا من تقديم الوجبات، جلسنا لنتناول الفطور، كنت أستمتع بتناول رقائق البسكوت التي نقدمها لركاب الدرجة الأولى، جلست تيريزا تحكي لي عن طليقها المصري وحكت لي عن استغلاله لها ونذالته وعدم

رجولته معها، حيث تزوجها لفترة ما حتى يتثنى له أن يقيم معها وأن تخدمه في نفس الوقت ثم تخلص منها بعد أن دبر أموره..

حكت لنا عن ابنتها التي لم تر والدها منذ سنين وكيف أنها رغم كبر سنها تحاول الاستمرار في العمل كي تصرف على أبنائها، تأسفت لحالها، ابتسمت وقالت كلنا نتعلم من أخطائنا، كانت طيبة القلب وحنونة، أحببتها وأحببت عملي معها، بدأنا نحكي لها أنا وحفصة عن مغامراتنا عندما سكنا معا، ثم اتفقنا على الخروج سويا عند وصولنا.

كان معنا "شين لي" فتاة كورية جميلة، الكوريات هن الأجمل من بين الآسيويات، سألتها عن خططها في باريس، أجابتني أنها تنتوي شراء حقيبة من "لوفيتون" وبما أن تلك الحقائب باهظة الثمن، فسألتها لماذا لا تشتري من الصين حقيبة تقليد والتي لا يستطيع أحد التفرقة بينها وبين الأصلية، ذهلت من إجابتها حين قالت لي أنها ورثت حقيبة لويفيتون الأصلية من جدتها والآن حان دورها كي تبتاع حقيبة جديدة وتتركها لأحفادها، يتعاملون مع الحقيبة اللويفيتون كأنها ثروة تورث تمامًا مثلما نفعل نحن مع العقارات والذهب.

وصلنا للمطار وبعد أن حملنا حقائبنا ركبنا الترام الداخلي والذي أوصلنا للفندق القريب جدًا من مطار" شارل ديجول" الطقس بارد ولكن شغفنا باستكشاف البلد لم يجعل البرودة حاجزًا، كان الوقت متأخرًا فقررنا العودة للمطار والتنزه داخل السوق الحرة وشراء بعض الجبن والخبز للعشاء، ثم عدنا حيث تجمعنا في غرفة ماما تيريزا التي ضايفتنا بمشروبات ساخنة كما لو كنت أزور منزل جدتي.

في الصباح تجمعنا في منطقة الاستقبال حيث حملنا خريطة عن كيفية استخدام المترو للذهاب إلى" برج إيفيل " أول مكان نزوره، الطقس كان باردًا جدًا، حمدًا لله كنا مستعدين، استقللنا المترو الذي أوصلنا إلى محطة تبعد خطوات عن برج إيفيل، فوجئنا بطابور طويل لقطع التذاكر، ابتعنا مشروبات ساخنة وبقسماط فرنسي لذيذ وتناولناه أثناء انتظارنا، بعد ساعة تقريبا استطعنا الدخول حيث استقللنا المصعد لأعلى شرفة في البرج، المنظر أكثر من ساحر، والهواء شديد كدنا نطير من أعلى البرج من شدته.

بعد أن هبطنا قررنا زيارة متحف اللوفر وتوجهنا لأقرب محطة باص وابتعنا تذاكر مخفضة صالحة للاستخدام طوال اليوم، رغم برودة الجو كانت الشمس تظهر أحيانًا بين السحب المتراكمة فتحفزنا لاستكمال نزهتنا، وصلنا المتحف الذي كان مزدحمًا بالزوار، لا أستطيع وصف جمال التماثيل واللوحات البديعة، المتحف كبير جدًا ومتعدد الغرف، انتقلنا بينها بحماس للتعرف على هذا التاريخ العريق، بعد أن انتهينا من جولتنا، قررنا أن نأخذ جولة بالباص في مدينة باريس، بالفعل حملنا الباص وتنقل بنا من مكان لآخر، يا لها من بلدة رائعة الجمال، لقد عشقتها من أول زيارة.

قررنا أن نتناول غداءنا في أحد المطاعم القريبة، وبالفعل وجدنا مطعم تونسي بدا صغيرا مما يوحي أنه ليس مكلف، مشكلة المطاعم في باريس أنها غالية جدا، استمتعنا بالغداء كثيرا ولكن كمية الأكل كانت قليلة، أعتقد هذه سياسة المحل حتى يحفز الزبون على طلب أطباق أخرى.

لكننا قررنا أن نكتفي بذلك وأن ننطلق للفندق لنستريح قليلًا ولنستعد لاستكشاف شارع الشانزيليزيه الشهير.

(٣٤) السحر في باريس

اجتمعنا مرة أخرى وذهبنا جميعًا إلى محطة المترو الذي كانت وسيلة مواصلاتنا الرئيسية، وصلنا لمحطة " جورج الخامس" القريبة من ميدان "شارل ديجول " المتواجد على رأس شارع الشانزيليزيه حيث يوجد مجسم " قوس النصر" الذي تحمل جدرانه الداخلية أسماء قادة البلدة العسكريين تخليدًا لانتصارات الجيوش الإمبراطورية الفرنسية.

بدا الشارع الذي يزدان بالأشجار المنيرة بنجوم من الإضاءات الصغيرة وكأنه ممشى بين النجوم في الفضاء في درب التبانة، شارع كبير على يمينه ويساره كبار محلات الموضة العالمية وبين كل بضعة محلات توجد مقاهٍ ومطاعم لها جلسات خارجية وداخلية، يا إلهي ما كل هذا الجمال، سيرنا ذهابًا وإيابًا لتفقد المحلات الكبرى وطريقة عرضها لبضاعتها التي تكلف آلاف الجنيهات.

على اليمين محل كبير مكتوب عليه " LIDO" يعتبر من الملاهي الليلية المعروفة والذي يقدم فيه العروض الراقصة الغنائية مثل " مولان روج" كان يقف بالخارج طابور طويل من الناس منتظرين الدخول للعرض، مما جعلنا نلغي فكرة الدخول بعد أن كنا اتفقنا على مشاهدة أحد العروض، فكرة الانتظار مملة جدًا، لذا قررنا التمشية بين المحلات وتفقد أحدث صيحات الموضة.

شعرنا بالجوع فقررنا تناول العشاء بأحد المقاهي المطلة على الشارع، كان بداخل المحل ممثل مصري وزوجته المذيعة، لم نهتم كثيرًا بوجودهم مثلما فعل بعض العرب الذين تهافتوا على أخذ الصور معهم، كان يظهر على وجوههم الامتعاض من كثرة المعجبين، شعرت بالأسى لحالهم، أين خصوصيتهم في الاستمتاع ببعض الوقت بدون إزعاج الناس.

بعد أن استمتعنا بجلستنا الجميلة وبنسمات الهواء الباردة الممتزجة ببخار الشاي المتصاعد من بين أيدينا، قررنا العودة للفندق، قد كان يومًا طويلًا ومزدحمًا وممتعًا.

في صباح اليوم التالي استأذنت حفصة لزيارة أصدقائها في فرنسا وقررت أنا أن أزور ديزني لاند التي لطالما حلمت بها، هبطت للفندق وجدت "أنور" زميلنا التونسي، كان يسأل موظفة الاستقبال على محطة المترو القريبة من ديزني، انضممت له، بما أن طريقنا واحد، بالفعل انطلقنا للمترو الذي استغرق ساعة وربع حتى وصلنا لمحطة ديزني.

أمام البوابة الكبيرة لملاهي ديزني استرجعت وقتها ذكريات الطفولة، كم كنت عاشقة لتلك الشخصيات الكرتونية التي كنت أتسمر أمام شاشة التلفاز لمتابعتها.

ثلاث ساعات من المتعة المتواصلة حتى بدأ الجوع يهاجمنا، قررنا تناول ساندويتشات النقانق بالمستردة التي رأينا الكثيرين حولنا يلتهمونها بنهم مما جعلنا نعتقد أنها لذيذة، نسينا تماما أن النقانق قد تكون من لحم الخنزير،

تذكرت ذلك بعد أن التهمناها، لم أخبر أنور شيئًا فلقد تمت الجريمة ولا داعي للبكاء على اللبن المسكوب.

سارعنا لحضور العرض الراقص حيث تخرج جميع الشخصيات الكارتونية في تشكيلات ومجموعات بديعة على عربات ضخمة أسطورية، يقدمن رقصات ممتعة وعروضًا راقصة منظمة بدقة، العرض مذهل من كل الجوانب، الأزياء والإضاءة والديكور والصوت لدرجة شعرت أنني بداخل إحدى أفلام ديزني الخرافية الرائعة.

يوم طويل قضيناه بين الألعاب كما لو كنا أطفالًا، أخذت عهدًا على نفسي أن أعود مرة أخرى وأنا مصطحبة عائلتي وأخواتي وأبنائهم، أعتقد هذه الرحلة هي رحلة العمر التي نحقق فيها أحلام طفولتنا المتأخرة.

قبل أن نعود للفندق طلبت من أنور أن نأخذ جولة بالباص في وسط المدينة الساحرة وبالفعل ذهبنا مرة أخرى إلى برج إيفيل ولكن هذه المرة تمشينا على كوبري مقابل له حتى وصلنا لساحة كبيرة بها نافورة ضخمة تتوسط بحيرة وحولها مساحات شاسعة مصممة للتنزه يزدحم فيها الناس من كل مكان، المكان كان يعج بالفنانين سواء العازفين أو الرسامين أو الراقصين، يا لها من متعة أن تكون حرًا وتفعل ما تشاء وقتما تشاء دون أن تحسب حسابًا للناس.

من روعة تلك البلدة كتب الشاعر نزار قباني قصيدة «معها... في باريس» والتي أتذكر منها هذان البيتان:

كلُّ التماثيل في باريسَ تعرفُنا

وباعةُ الورد، والأكشَاكُ، والمَطَرُ

حتّى النوافيرُ في (الكونكُورد) تذكُرُنا

ما كنتُ أعرفُ أن الماءَ يَفْتكِرُ

قررنا تناول الشاي في مقهى صغير هناك، جلسنا وجاء النادل ليأخذ طلبنا وإذ به مصري، سألني عن جنسيتي وخمن أنني مصرية وأن أنور أيضا مصري ثم بدأ يسخر من المغرب العربي والذي امتلأت فرنسا من أبنائه المستغلين، قاطعته قبل أن يزيد من إساءته وأوضحت له أن أنور من تونس، اعتذر وانصرف.

كان أنور لطيفًا لم يحتد أو حتى يتعكر مزاجه ضحكنا على الموقف، ثم انصرفنا مباشرة بعد انتهائنا من شرب الشاي الأخضر، ثم أخبرته بقصة "دعاء " زميلتنا عندما كانت بالمترو في باريس وقابلت شابًا من المغرب العربي الذي دعاها لاحتساء القهوة والتعرف على بعض، وبكل غباء وافقت وخلال سيرهما سألته عن مهنته فأجابها أنه سراق، اعتقدت أنه يمزح، وأثناء سيرهما وفي أحد الشوارع وبعد أن تأكد أنه لا يوجد أحد أخرج الشاب سلاحًا أبيض ووجهه لها وطلب منها محفظتها، أعطته إياها ثم هرب.

عدنا للفندق بعد أن تجادلنا مع سيدة فرنسية وقحة، مسؤولة عن بيع التذاكر، عندما سألناها عن موعد المترو ردت بكل وقاحة " ألا تعرفون كيف تقرأون، إنه مكتوب على التذكرة"

وجدت كثيرًا من شعب تلك البلدة وقحين في ردودهم، تجاهلناها وانطلقنا للفندق، كان يوم طويل وممتع، جهزت حقيبتي وخلدت للنوم استعدادًا لرحلة العودة في الصباح الباكر والتي كانت أقصر في عدد الساعات، استمتعت فيها بطرائف حفصة التي حكتها لنا وقصص ماما تيريزا مع طليقها المصري وبعض حكاوي الزملاء عن الشركة.

عدت للمنزل وقد نسيت أن هناك شريكة لا تعرف عن النظافة شيئًا، على الباب تمنيت ألا تكون بالمنزل وأن أنعم بوقت راحتي بدون أن تزعجني.

(٣٥) علقة موت

عودًا حميدًا لمنزل تشاركني فيه شخصية عجيبة في كل شيء، وجدت المنزل مرتبًا حمدت الله على ذلك، قابلتني نيرفين ببشاشة فشعرت أن هناك طلبًا ما خلف تلك الطريقة لاستمالتي.

أخبرتني أنها تريد إعداد غداء لنا، لم أهتم ولكن أثناء إعدادها للغداء رأيتها تبصق في نفس حوض المطبخ الذي نغسل فيه الخضار شعرت بالقرف الشديد وقررت عدم تناول أي شيء مما تطهيه.

جلسنا على الطاولة بعد أن حضرت منى زميلتنا بعد أن دعتها نيرفين حيث وضعت نيرفين صينية بها دجاجة وبدأت تقطعها بصعوبة والواضح جدًا أنها مازالت نيئة وتقطر دمًا، كدت أن أتقيأ في وجهها، أخبرتها أن الدجاجة نيئة، فتابعت تقطيعها ثم وضعت قطعًا من الدجاج في الدم المتسرب منها وكأنه صوص وأكلتها، لم أقوَ على مشاهدة هذا المشهد المقرف، هذه الفتاة قادرة على أكل لحوم البشر.

طلبنا بيتزا أنا ومنى واستمتعنا بمشاهدة فيلم رعب في منزلها ثم عدت للمنزل، وجدت نيرفين في انتظاري ومعها رجل آخر غير زوجها الذي عرفتني عليه سابقًا، سألتها من هذا فأخبرتني أنها طلقت زوجها وتعرفت على هذا الشخص المصري وأنهما تزوجا عرفيًا أيضًا.

أذهلتني تلك الفتاة ببجاحتها واستهتارها، سألتها عن فترة العدة، بالطبع لم تجد ما تقوله، نحن البشر نشرع لأنفسنا ما نريده ونجد الأعذار لأخطائنا،

طلبت منها عدم إحضار أحد للمنزل مرة أخرى وهددتها بإبلاغ الشركة، اعتذرت وخرجت مع زوجها المزعوم.

تم ترقيتي لمنصب مشرفة طاقم ضيافة وبناء عليه على البقاء مدة أسبوعين في الدوحة للتدريب على استعمال جهاز التحكم في البرامج الترفيهية ومتطلبات المنصب من إشراف على المضيفين الجدد في الدرجة السياحية في الطائرة الكبيرة مثل إيرباص والإشراف على طاقم الطائرة الصغيرة بأكمله في الطائرة الصغيرة

سعدت بالترقية ولكن في نفس الوقت كنت قلقة بسبب كتابة التقارير المطلوبة، أيًا كانت المشكلة أو الحدث صغيرًا أو كبيرًا مطلوب مننا أن نكتب تقريرًا عنه بالتفصيل وإرساله في وقت محدد بعد الرحلة مما يؤثر على وقت الراحة المتبقي.

خلال تواجدي هذا الأسبوع سعدت بعدم وجود نيرفين معظم الوقت، إلى أن حدث في مساء أحد الأيام، جاءت نيرفين من الخارج ووجهها متورم وعينها زرقاء وكأنها ضربت بشدة، سألتها عما حدث، أجابتني بكل برود :ضربني زوجي، سألتها عن السبب فقالت إنها نسيت الحليب على النار حتى فار مما أثار غضبه فضربها، لم أصدق كلمة مما قالته ولكني استأت لها، كيف تقبل أن يهدر كرامتها هكذا.

نصحتها بأن تحرر محضرًا في قسم الشرطة ضد زوجها، لكنها رفضت بشدة، استشعرت أنها فعلت مصيبة ما وكانت هذه هي النتيجة، نصحتها بالذهاب

إلى المستشفى نظرًا لأن وجهها متورم بشدة وعرضت عليها أن أقلها للمستشفى فوافقت.

بعد أن انتهينا جاءني اتصال من صديقتي "رينا" الهندية والتي كانت تعمل في قسم رعاية المضيفات، هذا القسم الذي يقوم بالإشراف على ملفات المضيفات ومتابعة حالتهم الصحية وعدد أيام المرضي ومهام كثيرة أخرى، أخبرتني أن زميلتي " بشرى " السورية التي كانت هي ولينا وصبا من أوائل من تعرفت عليهن عند وصولنا للدوحة، قالت لي إنها خلال خروجها من المكتب بعد عودتها من رحلة " الخرطوم" صدمتها سيارة وهي تعبر الشارع وأنها في الطريق إلى مستشفى حمد.

هرعت لباب الطوارئ، وجدتها غارقة في دمائها والممرضات ينقلنها من سيارة الإسعاف إلى سرير المستشفى المتحرك أمامي، انهرت، لم أقوَ على الوقوف فجلست على الأرض وسبقتني دموعي، ظللت أدعو الله أن تكون إصابتها خفيفة، ساعتين وصل خلالها مدير قسم الضيافة وسألني عما حدث فأخبرته بما أعرف.

لا أعلم كم مر من الوقت إلى أن جاء أحد الأطباء وأخبر مديرنا أنها في غيبوبة تامة وأنهم أجروا لها جراحة لوقف النزيف الداخلي وطلب منا جميعًا أن نرحل، وأن نعاود زيارتها في أوقات الزيارة المسموحة.

هاتفت رينا وأخبرتها بما قاله الطبيب، أخبرتني أنها ستخبر أهلها في الصباح، كان الوقت متأخرًا جدًا، ذهبت للمنزل والحزن قد تمكن مني، صليت ودعوت

لها كثيرًا، تمنيت لو أن دعواتنا تمنع الأقدار، البعض يقول إنها تفعل ذلك ولكني لست متأكدة.

ظللت أزور بشرى على مدار سنة كاملة، كنت أذهب ومعي المصحف وأجلس بجوارها أقرأ بعض الآيات وأحدثها كما لو كانت تسمعني، أحضرت الشركة أهلها وتكفلوا بإقامتهم خلال فترة علاجها والتي استغرقت سنة تقريبًا إلى أن تلقيت مكالمة من والدتها تخبرني أن بشرى استعادت وعيها ولكن قدرتها على الحركة والحديث محدودة، لقد تأثر مخها من النزيف وأصبحت من ذوي الاحتياجات الخاصة، يا الله في لحظة تتحول حياتنا من حال لحال، لا أحد يأمن تلك الحياة التي تذهلنا بتقلباتها العنيفة والتي تذكرنا دائمًا بضعفنا.

قبل الحادث كانت تستعد بشرى للارتباط بحبيبها الذي ما إن دخلت الغيبوبة حتى غاب هو الآخر عن حياتها، كنت متوقعة ذلك، ليس بجديد أن يتخلى رجل عن حبيبته خاصة أنها تحولت من معطاءة إلى محتاجة، الرجل أناني يأخذ فقط وقليل منهم يعطي.

ما أذهلني أن بشرى أخبرتني عند زيارتي لها بعد أن استعادت وعيها أنها كانت تسمعني وأنا أقرأ لها القرآن، وأنها ميزت صوتي، شيء عجيب حقا، كيف لشخص في غيبوبة تامة لمدة سنة أن يدرك ما يحدث حوله، سبحان الله.

الشركة قدمت لبشرى وظيفة مكتبية، لتعويضها عن إصابتها، لا أعلم أين هي الآن ولكني أتمنى أن تكون سعيدة أينما حلت وأن يعوضها الله عن إصابتها خيرًا.

طلبت من ماري أن تنقل نيرفين من السكن بعد أن كثر عدد زوارها وأزواجها، لم أقوَ على تحملها، الحمد لله تم نقلها واستعدت حياتي الهادئة مرة أخرى.

(٣٦) بونجورنو بيلا

قررت تعلم قيادة السيارة أثناء فترة تواجدي بالدوحة واشتركت بالفعل في إحدى مدارس القيادة في الدوحة وحصلت على الرخصة أخيرًا، الآن أستطيع أن أستأجر سيارة وألا أتقيد بباص الشركة الذي كان يضيع من وقتي الكثير بسبب مروره على الزملاء ليقلهم في الطريق.

استأجرت سيارة صغيرة وكنت سعيدة جدًا بها ولم يعد يشغلني أن أجد تاكسي كي أقضي حاجياتي، أخيرًا أستطيع الخروج في منتصف الليل لأزور الكورنيش الذي كان منفسي الوحيد في ليالي الوحدة القاتلة.

في جدول رحلاتي للشهر الجديد، أول رحلة إلى إيطاليا، أخيرًا سأزور إيطاليا، لطالما سمعت عن تشابه الإيطاليين بالمصريين من حيث طريقة الحديث والعصبية، سعدت جدًا لأنها المرة الأولى لزيارتها، أخيرًا سيتسنى لي أن أتذوق البيتزا الإيطالية (على أبوها) كما نصف أي شيء أصلي أو جيد الصنع.

بعد أن تجهزت للرحلة التي من المخطط لها أن تقلع الساعة ١٢ مساء، حملت حقيبتي وذهبت إلى المبنى الفني وإذ بي أفاجأ أن الرحلة تأخرت وسيتم الإقلاع الساعة ٣ فجرًا، حمدت الله أن معي سيارتي، عدت مسرعة للبيت كي أنال قسطًا من النوم، لطالما كرهت الرحلات الليلية.

النوم قليلًا لا يساعد على أي شيء سوى أنه يعكر المزاج، تجهزت مرة أخرى والتقيت ببقية الطاقم وتوجهنا للطائرة التي هبطت لتوها واضطررنا أن

ننتظر نزول الركاب وصعود فريق التنظيف، خلال انتظارنا عرفنا الكابتن بنفسه هو ومساعده، أخبرنا عن مدة الرحلة وغيرها من المعلومات، ثم سأل عن خططنا عند وصولنا إلى روما.

لم يكن لدي أي خطط، اتفقنا أن نجتمع في استراحة المضيفين التي لم أسمع عنها من قبل، أخبرني الكابتن أن الفنادق بدأت تخصص غرفة لتجمع أطقم الضيافة والطيارين فيها، وبذلك نتعرف على زملاء المهنة التابعين لشركات أخرى، حيث يوجد بتلك الغرفة مشروبات ساخنة وباردة إلى جانب ميكروييف لتسخين الأطعمة الجاهزة، سعدت بذلك وقررت المرور على تلك الاستراحة بعد وصولنا روما بالسلامة.

عند صعودنا للطائرة بدأت مهامي كمشرفة للطائرة في تجهيز البرنامج الترفيهي الذي سيتم عرضه خلال الرحلة والتأكد من أن جميع الطاقم قام بعمله، إلى جانب استلام قائمة الركاب والتأكد من وجود الطلبات الخاصة والتأكد من استلام الوجبات وبالطبع استقبال الركاب وتأمينهم وتأكيد تأمين الطائرة للكابتن، والكثير من المهمات الكثيرة خاصة أنها رحلتي الأولى كمشرفة وقد كنت متوترة وخائفة من حدوث أي خطأ.

بعد أن أقلعنا وانتهينا من تقديم الخدمات، فوجئت بأحد الركاب يطلب مني مساعدته بإحضار طبيب لأنه يشعر بعدم القدرة على التنفس الطبيعي، عن طريق كشف أسماء الركاب توصلت إلى طبيب وطلبت منه مساعدتنا في تحديد مشكلة الراكب الطبية، ثم أحضرت أنبوبة أكسجين وطلبت من زميلتي أن تجلس بجوار الراكب المريض لمتابعة حالته، لم تكن حالته تستدعي الهبوط الاضطراري، هذا ما أبلغني به الطبيب وبالتالي مررت

المعلومة للكابتن الذي قام باتصالاته وإعطاء بيانات الراكب وتفاصيل حالته الصحية، للوحدة الطبية الجوية والمسؤولة عن تحديد حالة المريض واتخاذ قرار الهبوط من عدمه.

الحالة كانت مستقرة ووصلنا بحمد الله، كان بانتظارنا طبيب لاستقبال الحالة المريضة والتعامل معها فورًا، ثم انتهينا من تفتيش الطائرة وحملنا حقائبنا وغادرنا أخيرًا، شعرت بأن وظيفتي متعبة وفكرة تحمل مسؤولية طائرة بركابها ليست بالهينة أبدًا.

وصلنا الساعة ٩ صباحًا، ما إن دخلت الغرفة حتى شعرت بالتعب الشديد، بدلت ثيابي واستسلمت للنوم، فجأة سمعت طرقًا على باب غرفتي فانتفضت من مكاني، من يا ترى !

نسيت أن أعلق لافتة ممنوع الإزعاج وبالتالي يمر موظفو تنظيف الغرف للقيام بعملهم، اعتذرت من الموظفة ووضعت اللافتة ودخلت لأستكمل نومي الذي طار وحاولت أن أسترجعه ولكنه قرر الرحيل.

إذن فليكن، فتحت نافذة غرفتي وجدتها تطل على مبنى قديم يشبه مباني وسط البلد في القاهرة، كان للمبنى شرفات وطبعا نحن المصريين نعشق الشرفات حيث جلسات السهر وشرب الشاي وقزقزة اللب ونحن نراقب السائرين.

لا أعلم لماذا ظللت منتبهة لتلك الشرفة المقابلة لي والتي خرج منها شاب مرتديًا فانلة بيضاء وبنطلونًا رياضيًا حاملًا معه كوبًا من المشروب الساخن، هيئ لي أنه شاي، شعرت لوهلة أنني في مصر وليست روما، لحظات وبدأت

الموسيقى تصدح من شرفته، نظر لي ورفع كوب الشاي وقال لي" بونجورنو بيلا "

وددت أن أقول له بونجورين يا عسل ولكنني خجلت واكتفيت بابتسامة لطيفة وإماءة من رأسي.

استعددت للخروج، حملت معي كارت الفندق ومحفظتي وخرجت، الجو كان رائعًا، الفندق لديه خدمة توصيل النزلاء إلى أقرب مول للتبضع، أمام باب الفندق كان يجلس سائق الباص الذي بادر بمغازلتي، كما لو كنت في أحد شوارع القاهرة العامرة بالمتحرشين، كان حاملًا كوبًا من الشاي، قربه مني مرددًا كلمات فهمت منها أنه يعرض على أن أشرب الشاي، سألته بالإنجليزية عن وقت إقلاع الباص، أشار لساعته ثم. أجاب ٥ دقائق

صعدت للباص حيث أقلني للمول مع بعض النزلاء، ثم أشار إلى الساعة وقال فيما معناه سأعود الساعة ٣ ظهرًا.

دلفت بداخل المول الذي يشبه " مول مدينة الرحاب " بالقاهرة، مول صغير عبارة عن دور واحد به سوبر ماركت كبير وبعض محلات الأحذية والملابس، لم أكترث كثيرًا بشراء أي شيء وددت أن استكشف الشوارع وأتعرف على روما، لذا قررت أن أخرج من المول وأسير بين الشوارع على أن أعود في الموعد ولكني كالعادة فقدت الطريق وكانت تجربة لن أنساها.

(٣٧) التوهان الجميل

عندما خرجت من المول في روما قررت أن أعش مغامرة جديدة في بلدة لا أعرف فيها أحدًا، إنها لمتعة أن أسير في مكان جديد بدون تخطيط، حيث أجدني أستمتع بمغامرة اكتشاف المكان واكتشاف ما يستهويني أيضًا.

عن المغامرة يقول باولو خوليو: «إذا كنت تعتقد أن المغامرة خطرة .. فجرب الروتين فهو قاتل».

ويقول - أنيس منصور: «لا تخف من المغامرة، فالهواة هم الذين بنوا سفينة نوح والمحترفون هم الذين بنوا السفينة تيتانيك».

الشوارع تشبه إلى حد كبير شوارع مدينة الإسكندرية التي تتميز بمرتفعات ومنحدرات، وجدت تشابهًا كبيرًا بين البلدين كما كان يقول الكثيرون، حتى في طريقة حوار الإيطاليين بأصواتهم العالية ولغة الجسد وحركات اليدين أثناء الحديث.

تعبت من السير بين الشوارع وقررت تناول الغذاء، أخيرًا سأعرف طعم البيتزا الحقيقي، على قمة أحد الشوارع وجدت مطعمًا صغيرًا، جلست على إحدى طاولاته وتفحصت قائمة الطعام المكتوبة بالإيطالي فقط.

اقترب مني النادل الذي كان وسيمًا حقًا، وسألني بالإنجليزية عن طلبي، سعدت أنه يتحدث لغة أفهمها، طلبت منه أن يقدم لي أفضل نوع بيتزا لديه، ابتسم وذهب وفي خلال ثوانٍ أحضر سلة خبز منوع، رائحته اللذيذة أثارت

لعابي ثم وضع أمامي صحنًا صغيرًا وصب فيه القليل من زيت الزيتون ثم أضاف عليه خل البلسميك وبعضًا من الجبنة المبشورة، أغمست الخبز في تلك الخلطة وتذوقتها، كم كانت لذيذة.

تركني النادل الوسيم أستمتع بتلك المقبلات الشهية وذهب لإحضار طبق البيتزا الساخنة والتي يعلوها طبقة من الجبن المذاب التي لم أتمالك نفسي أمامها، وبدأت في تقطيعها بأصابعي وتناولتها بنهم شديد، سألني إن كان من الممكن أن ينضم لي فوافقت، خلع مريلة الخدمة واستأذن لأخذ راحة من العمل وجلس مقابلًا لي ثم بدأ يحدثني عن الأطباق الإيطالية الشهية التي يجب أن أجربها، ثم تطرقنا لأماكن السياحة التي يجب أن أزورها، سألني عن بلدتي وأخبرني أن هناك مصريين كثر يعملون في روما وميلانو وتطرقنا للحديث عن الأديان وما يعرفه عن الإسلام وغيره من الديانات.

استمتعت بجلستنا وعجبني فكرة أنه رغم أنه يعمل بذلك المطعم إلا أنه مصرح له بتناول غذائه مثله مثل أي زبون، لم أجد تلك النظرة الطبقية والتي ينظرها الناس لمن يقدمون الخدمات في المطاعم كما يحدث في بلداننا العربية، لا أعلم من أين جئنا بتلك الطبقية والعنصرية.

شكرته على خدمته لي ودفعت ثمن وجبتي اللذيذة، قبل أن أذهب قدم لي قطعة من الشوكولاتة وطلب مني زيارته إذا عاودت زيارة روما مرة أخرى وقد كان، أصبحت زبونة دائمة لديه حيث نتشاطر وجبتنا وحكاوينا ثم أرحل في انسجام مع علاقتنا الطيبة.

حاولت العودة لمكان المول ولكني فشلت، لم أتذكر اسم المول، أخرجت كارت الفندق الذي فوجئت أنه أبيض تماما ولا يحمل اسم الفندق، يا إلهي ماذا أنا فاعلة ؟ أنا حتى لا أتذكر اسم الفندق.

ظللت أسير في الشوارع وبدأت الشمس تغيب، كنت على وشك البكاء، جلست على الرصيف وأنا أفكر كيف أذهب لقسم الشرطة، اقترب مني رجل أربعيني على دراجة بخارية، ثم وقف بجواري وتحدث معي بلغته الإيطالية وبالطبع لم أفهم شيئًا، رددت له كلمة فندق وأخرجت له المفتاح، ثم شعرت أنني غبية، قد يعتقد أنني أدعوه للذهاب معي للفندق.

لكن بدا وكأنه فهم أنني تائهة، أخرج الخوذة ووضعها على رأسي وأشار لي للركوب خلفه، لم أتردد، ركبت خلفه وتشبثت بالجاكيت الذي كان يرتديه، ثم انطلق، كنت سعيدة رغم خوفي، لا أعلم أعتقد إنها الإثارة التي تزيد من حماسي، وقف أمام مبنى وأشار عليه فأشرت له أنه ليس هو ثم مررنا على ٤ فنادق إلى أن رأيت لافتة الفندق الذي أقطنه وأمامه الباص الذي ركبته صباحًا، أشرت له عليه فأخذني للباب، أخيرًا وصلت، كم سعدت جدًا برحلتي تلك، أخرجت محفظتي لأعطي هذا الرجل الشهم نقودًا مقابل خدمته فرفض بشدة، شكرته ثانية، سلم عليَّ ثم قبل يدي وانطلق في طريقه.

نظر لي سائق الباص ثم قال شيئًا فهمت أنه يلومني عن تأخري بالمول، توجهت إلى غرفة استراحة طاقم الضيافة التي كانت مكتظة بعدد كبير من الزملاء من شركات طيران أخرى، كانوا يتسامرون وقد أحضر بعضهم زجاجات الخمر وآخرون أحضروا أنواعًا مختلفة من البسكويت والكيك، دخان السجائر كثيف فشعرت بالاختناق، ألقيت عليهم التحية، جلست لفترة

قصيرة تعرفت فيها على الموجودين ولكن لم أهتم كثيرًا بالبقاء فاستأذنت ورحلت.

عدت لغرفتي وأنا في حالة تعب وإرهاق لكن سعادتي بمغامرتي الصغيرة طغت على تعبي، كالعادة صليت صلاتي قصرًا، وغصت خلال دقائق في نوم عميق، حيث كنت أعاود مغامرتي بالخوذة والدراجة، أفقت على رنين الهاتف، كانت فتاة الاستقبال تخبرني أن موعد سفرنا قد تغير، مما يعني بقاءنا فترة أطول، سعدت جدًا بذلك، فأنا ما زلت أود استكشاف البلد واستكمال مغامراتي بها.

(٣٨) إمتى هنتجوز

في الصباح قررت أن أستغل الوقت في استكشاف المزارات السياحية، انطلقت من الفندق وأنا حريصة على حمل كارت الفندق الذي يحتوي على بيانات الاتصال وخريطة للمكان، استقللت باص الفندق إلى وسط البلد، ثم توجهت لنافورة " تريفي " التي تسمى أيضًا نافورة الأمنيات، موقعها المميز وسط الميدان جعلها تبدو مثل معبد صغير مزدحم بكثير من الناس، بجانبي فتاة استدارت وحملت في يدها قطعة نقود معدنية وضعتها أمام فمها ثم قبلتها وألقتها في النافورة، الفضول كالعادة غلبني، سألتها ماذا تفعل فأخبرتني بلكنتها البريطانية أنه عندما تلقي في هذه النافورة قطعة نقدية وتتمنين أمنية، سوف تتحقق.

لم أصدق ذلك ولكني فعلت الشيء نفسه ثم نظرت في قاع النافورة وجدتها ممتلئة بالنقود، يا إلهي، وددت أن أنزل أجمع تلك النقود التي أظنها تكفي لسداد ديوني وقتها.

كان الطقس أكثر من رائع، تمشيت قليلًا، إلى أن وجدت محلًا صغيرًا يبيع المعجنات الشهية، ابتعت كورواسو بالجبن وكوب من الشاي ثم جلست على سلالم بدت لي مكانًا جيدًا للجلوس، وجدت كثيرًا غيري يجلسون عليها، انضمت لي نفس الفتاة البريطانية وجلست بجواري كما لو كانت تبحث عن أحد تتحاور معه.

رحبت بها وعزمت عليها بقطعة كورواسو، شكرتني وبدأت تعرفني على نفسها، قالت أن اسمها ماريا وتعمل مهندسة معمارية وجاءت خصيصًا من أجل الاستمتاع بزيارة المباني الأثرية البديعة في روما وخاصة الفاتيكان، ثم أشارت على السلالم التي نجلس عليها وقالت لي إن هذه السلالم مزار سياحي ويطلق عليها " السلالم الإسبانية" والتي تصب في ميدان كبير يتوسّطه دوّار القارب الذي يرمز لحادثة غرق روما القديمة عندما فاض نهر التيبر وجرفت مياهه القارب إلى هناك.

سعدت بتلك المعلومات التي لم أكن أعرفها، حدثتني عن قناعتها أن الحياة بدون سفر مثل الموت، أخبرتها عن رحلاتي وعملي بالضيافة، دعتني للتجول معها ولزيارة الفاتيكان وبالطبع قبلت، وبالفعل خلال ١٠ دقائق أصبحنا أمام بوابة الفاتيكان والتي تعد أصغر دولة في العالم.

سور عظيم يضم العديد من الكنائس البديعة أهمها كاتدرائية " القديس بطرس " المقر الرسمي للبابا، بالطبع ماريا قامت بدور المرشد السياحي لي خاصة أنها مهتمة بتاريخ الهندسة المعمارية في الفاتيكان، كنت مشدوهة من جمال البنايات والتماثيل البديعة.

أنهينا جولتنا ورحلت ماريا بعد أن تبادلنا عناوين الإيميل لمراسلة بعضنا البعض، يحيط بالكاتدرائية مطاعم ومحلات تبيع الهدايا التذكارية، دخلت أحدها لشراء ماجنيت يحمل شكل النافورة لأضمه لمجموعة الماجنيت التي أجمعها من كل الدول التي أزورها.

بداخل المحل لفت انتباهي صوت مألوف لفتاة عربية تتحدث، تتبعت مصدر الصوت وفوجئت بها، إنها "لينا" صديقتي السورية التي تركتنا بعد شهور قليلة من التدريب، ربتُ على كتفها فنظرت لي وصرخت باسمي، احتضنتها بشدة اشتياقي لها، يا إلهي، إن هذا العالم صغير جدًا.

سلمت على محمد زوج لينا الذي حدثتني عنه مرارًا، سألتها ماذا تفعل هنا فقالت لي إنها تعمل بشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية وأن لديهم يوم راحة في روما، سعادتي فاقت الوصف، جلسنا في أحد المطاعم القريبة نتسامر ونتذكر قصصنا وحكاوينا سويا، كم اشتقت لها ولجمال روحها.

سألتها عن الحب الذي جعلها تترك العالم لتعود إليه فأجابتني إنها سعيدة مع محمد وأنه منذ أن تركت الدوحة من أجله وهو لا يتوانى عن إسعادها بشتى الطرق، جلسنا ساعات لم أشعر بها، كانت حكاوينا وأغانينا تملأ الفراغ حولنا، ذكّرنا محمد بأن الوقت تأخر وعلينا العودة للفندق قبل أن يسود الظلام.

عانقتها دون كلام، لا يوجد كلام يوصف مدى حبي واشتياقي لها وحزني على وداعها، لدرجة أنني نسيت أن أطلب رقم هاتفها أو حتى عنوانها البريدي وندمت كثيرًا على ذلك، أتساءل دائمًا كيف حالها الآن وأين أصبحت بعد كل تلك الأحداث، أتمنى أن تكوني بخير يا صديقتي العزيزة.

حملت ذكرياتي وذهبت لأقرب محطة مترو، ساعدتني الخريطة في تحديد مسار المترو كي أصل للفندق بدون أن أفقد الطريق، ابتعت بعضًا من الفراولة التي أغرتني بجمالها كي أتسلى بها في غرفتي لاحقًا.

عدت لغرفتي محملة بذكريات جميلة وطاقة إيجابية تحيطني، لكن بالطبع ظللت أفكر إلى متى سأظل وحيدة أتنقل بين المدن. للأسف لا نملك الأقدار ولكن ماذا عليَّ أن أفعل لأجد شخصًا يقدرني ويحبني وأحبه مثل لينا ومحمد.

في منتصف الليل تجمعنا في البهو وانطلقنا للطائرة، رحلة متعبة خاصة أن الطائرة كانت ممتلئة، انتهينا من تقديم الخدمات وجلست أكتب تقريري بالتفصيل عما حدث أثناء قدومنا لروما مع الحالة المريضة، ثم بدأت أفكاري تملأ رأسي عن الوحدة والبقاء بين السحاب بدون خليل يشاطرني حياتي، ماذا أنا فاعلة بحياتي وإلى متى سأظل هكذا بين السماء والأرض.

تذكرت قول الدكتور مصفى محمود والذي استشعرته بقوة: «أنا وحيد بل أنا الوحدة نفسها».

عدت لمنزلي وحاولت أن أتناسى كل أفكاري الكئيبة دون جدوى، اتفقت مع صديقاتي أن نتقابل في مقهى صغير على الكورنيش حيث كنا دائمًا نجلس هناك ونتحاور عن حياتنا ورحلاتنا، قصصت لهن عن لقائي مع لينا ووجدتهن جميعًا يسألن نفس السؤال، متى سنتزوج ويصبح لنا أولاد وعائلة صغيرة نسعد بها.. ولكن للأسف لا توجد إجابة.

(٣٩) الثلاثي المرح

لم أكن يومًا من هؤلاء الذين يكنزون المال، أؤمن أننا نعيش مرة واحدة ولذلك لم أحفظ مالًا لتقلبات الحياة، أعيش اليوم بيومه، أغدق على أحبتي بالهدايا غير عابئة بما سيحدث غدًا، قد أكون غبية أو ساذجة بتفكيري هذا وأدركت لاحقًا أن الدنيا مصالح، لكنني لم أندم يومًا على ما فعلت، أنا راضية جدًا بذلك ويكفيني عطاء الله.

دروس الغربة طويلة ومؤلمة، ليس بالضرورة أن تكون الغربة سفرًا لبلد بعيد، كثير من الناس يشعرون بالغربة وهم في منازلهم بين أهاليهم، الغربة هي ألا تجد أي قاسم مشترك مع من حولك سوى رابطة الدم، الغربة أن يحسدك الجميع على أشياء قد تبدو لهم رائعة وتعرف أنت أنها ليست كذلك، الغربة أن تحاور نفسك فقط لأنك تعلم جيدًا أن لا أحد سينصت لك، الغربة هي أن تظل تسأل نفسك لم قدمت لهذا العالم البائس مثلما أفعل كل يوم.

«النّاس تحسدك دائماً على شيءٍ لا يستحقّ الحسد؛ لأنّ متاعهم هو سقوط متاعك، حتّى على الغربة يحسدونك، كأنّما التشرّد مكسب وعليك أن تدفع ضريبته نقداً وحقداً».**أحلام مستغانمي**

كنت بنيت علاقة صداقة مع جيراني الرومانيات "ألكس وأدي وأنجيلا "، كثيرًا ما تناولنا الفطور والغذاء سويا وتشاركنا جلسات السمر، ألكس كانت على علاقة بشاب مصري وكانت تحبه جدًا، رجوت الله ألا يتلاعب بمشاعرها ولكن للأسف كان حقيرًا معها، كانت المسكينة تحلم بالزواج منه مثل أي

حبيبين، شعرت بالحزن عليها، لا أعلم لماذا يتفنن الرجل العربي وخاصة المصري في استغلال قلوب الفتيات وكسرهن بكل حقارة!

اهتزت ثقة ألكس بنفسها رغم أنها آية في الجمال، مما دفعها لإجراء عملية تكبير لصدرها، بعد أن تعافت سألتها عن إحساسها بأكياس السيليكون بداخل جسمها فأجابتني أنها تشعر كأنه يوجد حجر ثقيل على صدرها وأن الألم فظيع جدًا ولكنها أيضا قالت أنه يستحق العناء، فلقد أصبحت مثل مارلين مونرو بعد أن تعافت وبدأت ترتدي ملابس تظهر جمال جسدها وتظهر صدرها الجديد، لم تكن ألكس الوحيدة التي خضعت لعملية التكبير، كان هناك ٥ فتيات أخريات أقدمن على عمل العملية بعد أن تمت الموافقة على إعطائهن قروضًا شخصية، نظرًا لأن العملية مكلفة، وجميعهن تزوجن برجال أعمال، هل تعتقدون أن هناك علاقة بين صدورهن المزيفة وزواجهن !!.

أما "أدي" فكانت تحب شابًا لبنانيًا مسلمًا قد كان يحدثها كثيرًا عن الإسلام، كنا نتحاور كثيرًا عن الفرق بين الإسلام وما يفعله الكثير من المسلمين، سألتها عن نيتها في اعتناق الإسلام فأجابتني بأنها مهتمة جدًا بمعرفة المزيد وأنها تشعر في قلبها أن هذا هو الدين الحق.

حذرتها من فكرة أن تسلم فقط لتتزوج من حبيبها ولكنها أسعدتني بإجابتها عندما قالت إنها حتى لو تركته ستظل تقرأ عن الدين وأنه لا علاقة له بذلك، علمتها الصلاة وأحضرت لها تفسيرًا للقرآن بالإنجليزية وفي إحدى المرات أثناء نقاشنا عن تعدد الطوائف وعن قناعتي أنه لا يوجد فرق بينهم وأن الدين لله وكل شخص حر في قناعاته طالما لا يفرضها على الآخر، أخبرتني أن خطيبها شيعي المذهب، قلت لها لا يهم سنة أو شيعة، ما يهم أنك موحدة

بالله وأن محمد رسول الله، وافقتني ثم طلبت مني أن أعلمها نطق الشهادة لأنها قررت أن تسلم عن قناعة تامة.

سعدت بها وأهديتها إسدالًا للصلاة ومصحفًا باللغة الإنجليزية، تزوجت أدي من حبيبها ورحلت إلى رومانيا ومازلنا على تواصل حتى الآن.

أما أنجيلا فقد كانت الأكثر مرحًا، في جلسات السمر كانت تتفنن في إلقاء النكات الجريئة وتقليد مدرائنا والركاب المستفزين، كنت استمتع جدًا بوجودها، الرومانيات في العموم حلوات وأنجيلا كانت حلاوتها زيادة بسبب خفة دمها، كانت كارهة لقوانين الشركة وحانقة عليها، أعتقد لأنها تعرضت لمواقف سخيفة من الإدارة. إلى أن ذهبت في رحلة إلى برلين ولم تعد، تركت الزي على سرير الفندق وكتبت رسالة فيها ما لذ وطاب من الشتائم لإدارة الشركة ورحلت، ضحكت من قلبي على طريقتها في الانتقام، ولكن فوجئنا جميعًا بعودتها للدوحة وهي متزوجة من طيار قطري زميل لنا وقد أسلمت وارتدت عباءة الخليجيات.

قصص الفتيات كثيرة ولكن الشيء الوحيد المشترك أن كلهن يبحثن عن الحبيب، لم تنته القصص بعد وما زالت الحياة تفاجئنا بمقادير لا نعلمها، أحمد الله على معرفتي بهؤلاء الفتيات الجميلات اللاتي غيرن فكري عن فتيات الغرب واللاتي علمنني أن الحياة مليئة بالجمال وبالمفاجآت وبالأشخاص المميزين وأتمنى أن أكون قد تركت أثرًا طيبًا في قلوبهن مثلما تركن في قلبي وذاكرتي.

(٤٠) ٣ صرخات

عند عودتي من روما وجدت أول رحلة في جدول رحلاتي الجديد إلى " بكين " عاصمة الجمهورية الصينية، لطالما سمعت عن متعة التسوق بها، سعدت بأنني أخيرًا سأزور بلد المليار مواطن.

حزمت حقيبتي واستعددت للرحلة، كان كل شيء على ما يرام ما عدا شيء واحد فقط، أن الرحلة طويلة جدًا ٩ ساعات بداخل بطن الطائر الكبير، ليس ذلك فحسب، الرحلة ستقلع في العاشرة مساء، ذلك يعني أنني سأظل في مصارعة حرة مع النوم.

حمدت الله على وجود مضيفات صينيات معنا، لأنه يسهل التواصل مع الركاب غير الناطقين بالعربية أو الإنجليزية.

لاحظت خلال الرحلة طباع الصينيين الحادة، والتي تميل للوقاحة، حتى مع بعضهم البعض لاحظت جفاء في معاملتهم غريب، ما أذهلني فعلًا وكدت أموت من الضحك بسببه هو موقف حدث أثناء تفقدي للكابينة بعد الانتهاء من تقديم الوجبات، حينما فوجئت بسيدة صينية تصرخ في رجل يجلس خلفها.

اقتربت من المكان وشممت رائحة عفنة مصدرها قدم هذا الرجل الذي خلع حذاءه وحاول أن يأخذ راحته في جلسته فرفع قدمه بالجورب ذي الرائحة العفنة على يد كرسي السيدة التي صرخت في وجهه وأمرته بارتداء حذائه على الفور، شعر الرجل بالخجل وبالفعل ارتدى حذاءه، الموقف غريب ولكن

عجبني ما فعلته تلك السيدة، على الأقل رحمتنا من تلك الرائحة المميتة وجعلتني أضحك من قلبي.

كانت الساعات تمر ببطء شديد وأنا أصارع النوم، تمنيت لو أستطيع أن أفعل كما تفعل الفتيات الأخريات، كن يحملن بطانية ويدخلن الحمام ويأنسن ببعض النوم، لا أعلم كيف في هذا المكان يستطعن تحمل فكرة الجلوس والنوم أيضًا.

أخيرًا وصلنا للمطار، خرج الركاب وقمنا بتفتيش الطائرة وتأمينها، ولكن قبل أن نخرج لاحظت أحد الزملاء يأخذ زجاجات الخمر الصغيرة معه ليتناولها في الفندق، لم أرد أن أُعلم الجميع بما حدث، لذا انتظرت إلى أن ركبنا الباص وجلست بجواره وأخبرته أنه ممنوع إحضار أي شيء من الطائرة وأنه لو تم الإبلاغ عنه سيكون في خبر كان.

اعتذر عما فعل وسألني إن كنت سأكتب تقريرًا عن ذلك، فأجبته بالطبع لا، رأيت شعورًا بالارتياح ارتسم على ملامحه ثم قال لي: للأسف زملاؤنا ينتعشون ويسعدون بكتابة تقارير تتسبب في أذية الآخرين، كما نطلق عليها " خوازيق" أخبرته أنني لست من محبي "الخوازيق" وأنني لن أخبر أحدًا ولكن عليه ألا يفعل ذلك ثانية.

وصلنا للفندق ويا له من فندق رائع، غرف النوم عبارة عن بانوراما بالزجاج تكشف المنطقة بأكملها، كان لدي يومين كاملين ببكين، سألت عن زيارة سور الصين العظيم واتضح أنه يجب أن أحجز مسبقًا، ففعلت مع بعض من الزملاء الذين اهتموا بزيارة السور، كما اتفقنا على تناول العشاء لاحقًا.

كان الوقت مازال مبكرًا على العشاء، لذلك قررت التريض خاصة أن الجيم في الفندق متميز واختتمت جلستي الرياضية بحمام ساونا منعش، ثم قررت الخروج لتفقد المكان، على باب الفندق وجدت زميلي الصيني "تشي" سألته عن أقرب مكان للتسوق فنصحني بالذهاب بباص الفندق إلى حديقة كبيرة وهناك يوجد الباعة الذين يحملون صورًا لبضائعهم.

انطلقت إلى الحديقة التي كانت خلابة من حيث تناسق الأشجار والنظافة، اصطف فيها الباعة المتجولون يروجون لبضائعهم، منهم من كان يشوي الذرة وآخرون يبيعون غزل البنات الملون، كما لو كنت في الحديقة الدولية بالقاهرة، ثم وجدت بعض الأشخاص حاملين صور لشنط وأحذية وساعات من أحدث صيحات الموضة وماركات معروفة، سألت سيدة كانت تعرض صورًا بضاعتها عن مكان البضاعة فأشارت لي أن أتبعها وبالفعل تبعتها.

على مسيرة شارعين من المكان دخلنا عمارة سكنية وفي الدور الأرضي دخلنا غرفة ضيقة جدًا مثل الصندوق وبها سلم، صعدنا لأعلى فوجدت نفسي في غرفة صغيرة ممتلئة بتشكيلة من الحقائب العالية الجودة والمماثلة تمامًا لما تصنعه المحلات العالمية، أكاد أجزم أن لا أحد يستطيع معرفة الفرق بينها وبين الحقائب الأصلية.

طريقة بيع البضاعة أخافني كما لو كانت مخدرات، ماذا لو كانت تلك السيدة مجنونة وقامت بقتلي ودفني بالغرفة، لن يعرف أحد، بعد نقاش وفصال ابتعت حقيبتين وساعة وخرجت مسرعة من هذا الصندوق المكدس بالبضاعة.

عدت للفندق والتقيت زملائي في البهو لتناول العشاء كما اتفقنا، وكانت تجربة لن أنساها أبدًا.

انضم لنا "تشي" الذي اقترح أن نتناول أطباقًا صينية في مطعم معروف بمذاق مميز، في المطعم يتم طهي الطعام أمامنا على الطاولة حيث يوجد الموقد أسفل منتصف الطاولة، طلبنا جميعًا طبق ثمار البحر المطهوة بالشطة، سألني تشي إن كنت أمانع في إضافة بعض الضفادع، فرفضت وطلبت من الطباخ بوضع طبق منفصل لي بدون ضفادع، شعرت بالقرف بعض الشيء.

قال لي تشي ماذا ستفعلين لو طلبنا طبق " ال٣ صرخات" سألته ما هذا الطبق، فقال إنه عبارة عن طبق فئران حية وصغيرة جدًا، يصرخ الفأر صرخته الأولى عندما نمسكه بالعصيان، ثم يطلق صرخته الثانية عند غمره في زيت مغلي، وأخيرًا يطلق صرخته الثالثة والأخيرة عندما نلتقمه ونمضغه، لم أستطع المقاومة، تقيأت في صندوق الزبالة وشعرت بالأسى لتلك الكائنات الضعيفة والتي يتفنن الإنسان في تعذيبها.

(٤١) سور الصين المتعب

الشعوب الآسيوية كانت الأغرب بالنسبة لي خاصة في قدرتهم على أكل كل المخلوقات المتواجدة معنا على الكرة الأرضية، والتفنن في طهوها والاستمتاع والتلذذ بها أيضًا.

بعد أن انتهينا من العشاء، اقترح علينا تشي أن نذهب معه لمقابلة أصدقائه في أحد مقاهي الكاريوكي، وجدتها فكرة لطيفة، خاصة أنني لم أجربها من قبل، بالفعل ذهبنا للمقهى والذي كان مقسمًا لغرف عدة وكل غرفة مجهزة بجهاز كاريوكي ومايك وشاشة كبيرة تعرض عليها كلمات الأغاني المختارة.

بدأ كل منا بغناء أغنيته المفضلة واتفقنا من يخطئ في الغناء يدفع ثمن المشاريب، استمتعت كثيرًا بتلك الأمسية الجديدة من نوعها، ثم عدنا للفندق حيث ارتميت منهكة على السرير وغرقت في بحر النوم.

في الصباح انطلقنا في طريقنا لزيارة أهم المعالم السياحية بالصين وكانت البداية في متحف " المدينة المحرمة Forbidden City" والتي كانت مقرًا للإمبراطور وأصبحت من أهم المعالم الأثرية حيث يوجد بها حوالي مليون تحفة فنية، تجولت بداخل المتحف الجميل ولكني شعرت بالملل، لم أهتم كثيرًا بقراءة تاريخ الإمبراطورية الصينية، فلقد آمنت أن التاريخ لا ينقل الحقائق إنما يوثق ما يريده أولي الأمر والسلطة، سواء سلطة سياسية أو دينية، ومعظمها قصص مفبركة لتزيين تاريخ شخص ما أو مرحلة ما.

بالنسبة لي تاريخ لم أشهده هو قصص للتسلية قد أستفيد منها في حياتي إن كانت ذات مغزى إنساني.

انتقلنا بعد المتحف إلى " معبد السماء" حيث يتم تقديم قرابين للآلهة، المعبد عبارة عن ٣ بنايات متشابهة أو هكذا بدت لي، شاهدت أناسًا يحملون شموعًا على شكل ورود ثم يضعونها في حوض كبير أمام أحد المباني وهم في حالة خشوع، فتذكرت زائري الحسين في مصر، الذين يحملون الورود والمال ليضعوها بداخل المسجد

لم نجلس كثيرًا، ربع ساعة كانت كافية، ثم توجهنا إلى سور الصين العظيم، وما إن وصلنا حتى قررنا تناول الفطور كي يساعدنا على تسلق السور، العجيب أن الفطور ايضا نودلز، اما انا فاكتفيت بالشاي الأخضر بالياسمين، إنهم يتفننون في صنع الشاي الأخضر بمختلف النكهات والألوان.

بجوار السور وجدت محلات صغيرة على الجانبين تقدم لوحات نحاسية ينقشون عليها اسم الزائر، دليل أنه زار سور الصين، ابتعت واحدة،، ثم انطلقت أتسلق السلالم العمودية والمرهقة جدًا، كلما صعدت كلما كان المنظر أحلى، ولكني لم أقوَ على تسلق السلالم بأكملها، قررت أن أعود أدراجي وما الفائدة العظمى من تسلقي سلالم متعبة ثم نزولي منها، هكذا أقنعت نفسي بالهبوط والبقاء في الساحة إلى أن يجتمع بقية الزملاء.

ولكني استمتعت بمشاهدة الناس وهم يفعلون ما فعلت ويقررون العودة في منتصف الطريق، لست وحدي إذا، فكرة المشاركة في الفشل لطيفة وتقلل إحساس الخيبة، مر بجواري ٣ سيدات يتحدثن العربية، شككت أنهن

مصريات، تأكدت من ذلك عندما صاحت إحداهن قائلة: يا لهوي كل دي سلالم هنطلعها، ضحكت على كلامها وتوقعت أنها لن تفكر حتى في الصعود وبالفعل وجدتها قادمة لتجلس بجواري حتى تنتهي زميلاتها من تسلق السور، بدأت تحكي لي بدون مقدمات عن ألم قدمها والروماتويد في محاولة لتبرير عدم تسلقها وجلوسها بجواري.

ابتعت لها كوب من الشاي لتشاطرني استمتاعي بجلستي، اهتممت أن أعرف كيف تتحدث الصينية، فلقد أدهشتني بمحاورتها لأحد الباعة وهي تفاصل معه في شراء اللوحة النحاسية، علمت أنها متزوجة من مهندس صيني وأنها مقيمة في شنجهاي.

غريبة فكرة القسمة والنصيب، مين يقول أن سيدة من مصر تتزوج رجلًا من الصين ولكن لماذا أتعجب، صديقتي حفصة المغربية تزوجت من رجل باكستاني بعد قصة حب، ولكني ما زلت لا أفهم فكرة الزواج هل هو فعلًا قسمة ونصيب ومقدر، أم نحن نختار نصيبنا ونغير من مقاديرنا، هل من لم تجد زوجًا يحتويها ويملأ قلبها وحياتها حبًا وعطفًا هذا نصيبها أم أنها فشلت في البحث عنه. سيظل السؤال دون إجابة

انتهينا من جولتنا اللطيفة ثم توجهنا إلى مطعم شعبي مجاور للفندق لتناول العشاء قبل أن أستسلم للنوم.

رحلة العودة كانت مرهقة جدًا بسبب طول ساعات الرحلة وطلبات الركاب التي لا تنتهي.

عدت للمنزل وأنا متعبة للغاية وجائعة أيضًا، كنت وصلت لمرحلة عدم تناول أي طعام على الطائرة، فلقد سئمت من الرحلات ومن أكل الطائرة، صنعت لنفسي ساندويتش ثم هاتفت أهلي كما اعتدت بعد كل رحلة.

(٤٢) رمضان جانا

أول يوم رمضان له طعم خاص وشعور روحاني لا يكتمل بدون لمة العائلة، أعترف أن رمضان مع العائلة في بيتنا لم ولن يكون له مثيل، حتى ذكريات الطفولة في هذا الشهر الكريم لها سحرها الخاص المرتبط بفوازير رمضان وبرامج الكاميرا الخفية والمسلسلات وأغانيها التي حفظناها عن ظهر قلب، تسميع القرآن وصلاة التراويح بالمسجد المجاور لمنزلنا.

أول يوم رمضان كنت في الطريق إلى " كوالالامبور" عاصمة ماليزيا، الرحلة مدتها ٧ ساعات، حيث أقلعنا في منتصف الليل وبعد ٣ ساعات أعلن الكابتن وقت الإمساك، قضينا الأربع ساعات المتبقية في الحديث عن ذكريات رمضان وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم.

وصلنا للمطار وكان من أجمل المطارات التي زرتها في العالم، بداخل المطار فروع لمحلات كبرى ومطاعم كما يوجد مكتبة كبيرة، وبما إني عاشقة لقراءة الروايات الأدبية ابتعت رواية "Memories of Gisha " ثم استقللنا القطار الصغير الذي يحمل المسافرين إلى أماكن استلام الحقائب، وبعد أن استلمناها توجهنا لأحد الأتوبيسات الكبيرة الذي أقلنا للفندق بعد أكثر من ساعتين قيادة، استسلمنا خلالهم للنوم واستيقظنا مع اقترابنا من بوابة الفندق.

الفندق رائع والغرف شبيهه بقصور ألف ليلة وليلة، انبهرت بجمال الفندق والغرف والمرافق، سمعت أذان صلاة العصر مما أسعدني جدًا، لأن هذا يعني

أنه يوجد مسجد قريب، اكتشفت بعد ذلك أننا في منطقة قريبة من أبراج كوالالمبور والتي يطلق عليها " Twin Towers " وأن المسجد بجوار الأبراج.

علامة اتجاه قبلة الصلاة مرسومة على سقف الغرفة، شعرت بالألفة مع المكان ولكن التعب قد جاوز حده معي فقررت النوم على أن أستيقظ لاحقًا لأكسر صيامي، بالفعل استيقظت على صوت أذان المغرب، قررت الصلاة في المسجد القريب وتفقد المنطقة وتناول فطوري في أي مكان قريب.

ارتديت عباءتي السوداء والطرحة والتي خصصتها لصلاة التراويح وهبطت لبهو الفندق، سألت موظفة الاستقبال عن مكان أقرب مسجد، وصفت لي الطريق وكانت بشوشة ومهذبة جدًا، اكتشفت فيما بعد أن غالبية الشعب الماليزي يتمتع بالأخلاق الكريمة والأدب والبشاشة، كم أحببت هذا الشعب وهذا البلد الجميل.

توجهت للمسجد وكانت الصلاة قد بدأت، فدلفت للداخل وانضممت للمصليات، شعرت بالخشوع مع صوت الإمام البديع ولا أعلم لماذا بكيت بشدة، ربما لافتقادي شعور الدفء العائلي في أول يوم رمضان، أو لعله صوت القارئ الجميل الذي مس قلبي ووجداني، انتهينا من الصلاة وبدأت السيدات بالسلام على بعضهم البعض، سعدت جدا بتلك الحميمية التي نفتقدها في حياتنا، ثم دعتني إحداهن لتناول الفطور بالخارج.

خرجت معها فوجدت أمام باب المسجد قد تم فرش السجاد وتوزيع الوجبات في أطباق وفرشها على الأرض وجميع المصلين اجتمعوا للفطور كما يحدث في الحرم، جلست وأنا سعيدة بتجربتي لمائدة الرحمن في ماليزيا وصليت

على رسول الله الذي علمنا مكارم الأخلاق وحثنا على الخير في كل مكان وزمان.

لم يعجبني طعم الأكل نظرًا لأنه يفتقد للبهارات، الوجبات شبيهة بوجبات المرضى، ارز سادة ومعه قطع من اللحم المسلوق وأكواب زبادي وتمر التي اكتفيت بها ولكني بقيت جالسة مستمتعة بصحبة الخيرين.

بعد أن انتهينا من الفطور تم جمع الأطباق وتنظيف المكان ثم بدأت حلقة ذكر انضممت لها، ظللنا نسبح للرحمن ثم أتممنا صلاة العشاء والتراويح ثم انصرفنا، في طريقنا للخارج اقتربت مني سيدة عربية وسألتني على مكان باب للدخول للبرجين، فأخبرتها أنني زائرة جديدة ولا أعلم شيئًا عن المكان.

عرفتني بنفسها، اسمها آمال من الكويت وجاءت ماليزيا في منحة دراسية، سعدت بالتعرف عليها وعندما عرضت على الانضمام لها لتفقد البرجين لم أمانع، بالأدوار السفلى للبرجين محلات عدة للملابس ومطاعم وكافيهات، شعرت أنهم أشبه بمول كبير، كنت ما زلت جائعة فعرضت عليها أن أعزمها في أحد المقاهي وتناول مشروب.

جلسنا في مقاعد مرصوصة امام محل يبيع انواع متعددة من الحلويات منها كعكة القرفة التي ابتعتها لنا، استمتعنا بمذاقها الجميل وقصصت لها عن عملي بالطيران، تعجبت أنني مضيفة وأنني أصلي في المسجد، ثم اعتذرت لي عن استغرابها، لكني متفهمة الصورة النمطية التي صورت المضيفات بفتيات منفتحات غير متدينات وأن حياتهم كلها لهو ولعب، ولكني أوضحت

لها أن كل مهنة فيها من مختلف الشخصيات وأن كل شخص له قناعاته ولا يهم ما يعتقده الآخرون.

انتهت جولتنا بداخل البرجين، ودعتها بعد أن اتفقنا أن نفطر سويا في اليوم التالي، خرجت من البرجين وقررت اكتشاف المنطقة حول الفندق والمزدحمة بالمقاهي العربية، لفت نظري مقهى ذو شكل مميز وأغنية عمرو دياب تصدح عبر الميكروفونات، قررت أن أجلس بالمقهى رغم أن جو البلد حار ورطب لكن ذلك المقهى كان به مراوح تنثر رذاذ مياه باردة منعشة.

بعد أن جلست اقترب مني أحد الأشخاص الذي اعتقدت أنه النادل، عرفني بنفسه، محمد من مصر وصاحب المقهى، كان يعمل مهندسًا معماريًا ولكنه يعشق الأعمال الحرة، حدثني عن والدته وإخوته واشتياقه لمصر، ثم دعاني لطلب أي شيء على حساب الكافية، شكرته على كرمه واستمتعت بقطع الآيس كريم اللذيذة ثم انصرفت بعد أن دعاني أن أزوره في اليوم التالي وأن أدعو أصدقائي معي.

طريقة لطيفة للترويج للمقهى والتي بالفعل أصبحت مزارًا لكل زملائنا خاصة محبي الشيشة، عدت لغرفتي وأنا في حالة من الراحة والهدوء النفسي، أنهيت يومي بصلاة القيام وقراءة ما تيسر من القرآن، ثم استسلمت للنوم بكل أريحية.

(٤٣) حظه دكر

في الصباح قررت أن أذهب لأحد المولات الذي أخبرني عنه زملائي في الرحلة، حيث تباع البضائع بسعر الجملة وأيضا تقليد للماركات الكبرى، بالفعل ذهبت هناك وعجبني كثيرًا أحد محال الأحذية الذي قررت شراء حذاء معروض في الفاترينة ولكني فوجئت أنه لا يوجد لديهم مقاس أكبر من ٣٨، تعجبت كثيرًا وهل كل شعب ماليزيا أقدامهم صغيرة، مما جعلني اتفقد المارين من أهل البلد واكتشفت أنني عملاقة بالنسبة لهم.

لم أبتع شيئًا، ولكني استمتعت بجلسة عناية بشعري، ثم عدت للفندق خاصة أن الجو حار جدًا مما جعلني أشعر بالعطش وبالتعب خاصة مع الصيام، استمتعت بحمام ساخن بعد الساونا، ثم نلت قسطًا من النوم إلى أن أيقظني صوت الأذان، فتجهزت وتوجهت للمسجد لتأدية صلاة المغرب ثم التقيت بآمال التي كانت تنتظرني بالداخل وبعد أن انتهينا من الصلاة انطلقنا لتناول الفطور

وصلنا لمطعم عربي بدا مزدحمًا بعض الشيء، استقبلتنا فتاة عربية حلوة الملامح وأجلستنا في طاولة مميزة، سألناها عن بلدها فأخبرتنا " ميرا" أنها عراقية وأن صاحب المطعم والدها وأنهم مستقرون في ماليزيا منذ سنوات كثيرة، كانت في غاية الأدب، اقترحت أن تختار طبق اليوم لنا والذي كان كسكسي باللحم بالطريقة المغربية، تلذذت به فأنا من محبي المطبخ المغربي وآمال كانت أول مرة تجرب الأكل المغربي والذي أعجبها بشدة.

امتلأ المكان بزبائن من شتى الجنسيات العربية ولكن التزمت "ميرا " بخدمتنا نحن، بعد أن تناولنا فطورنا، سألناها أن تنضم لنا ونشرب شاي مغربي سويا، استأذنت من والدها الذي جاء يرحب بنا مشكورا، استمتعت بقصص ميرا وآمال عن الكويت والعراق متناسين تماما أن يومًا ما كانت بين بلديهما حرب.

بعد تلك الجلسة الجميلة ودعتهم ثم ذهبت للقهوة العربية وأخذت معي روايتي الجديدة، جلست أقرأها إلى أن جاء " محمد" صاحب المقهى الذي قابلته بالأمس، طلبت منه كأس آيس كريم للتقليل من الشعور بالحر والرطوبة.

استمتعت بقراءة بعض الصفحات من الرواية ثم انضم لي الكابتن ومساعده بعد أن لمحاني أثناء سيرهما، الكابتن "روبرت" البريطاني كان خفيف الدم وصريحًا بطريقة عجيبة، جلس يقص لنا عن أمسيته التي قضاها في أحد البارات القريبة من الفندق، تعجبت من أن البارات مفتوحة خلال شهر رمضان ولكن أخبرني احمد أن تلك البلدة فيها من التناقضات الكثير.

استطرد روبرت في سرد قصته قائلًا، أنه بعد أن استلطف إحدى الفتيات ودعاها لشرب كأس نبيذ معه، اتفق معها أن تعود معه للفندق فوافقت، ثم ضحك وقهقه وهو يقول أنه بعد أن قبّلها واستعد لمضاجعتها اكتشف أنها ذكر، لم أتمالك نفسي، ضحكت من قلبي، لم أقو على التعليق ولكن أحمد نظر لي وقال لي هذا هو المعنى الدقيق لكلمة "حظه دكر"

انتهينا من جلستنا اللطيفة وقررنا العودة للفندق لننال قسطًا من الراحة قبل الانطلاق للعودة للدوحة، على باب الفندق كانت تقف فتيات، بدين لي فتيات دعارة وكانت المفاجأة أنهن متحولات جنسيًا، صاح الكابتن وقال هكذا خدعوني بمظهرهن الأنثوي، أخبره أحمد أنه يمكن التمييز بينهم من الصوت ومن وجود تفاحة آدم، فقال له الكابتن أي تمييز لقد كنت سكران يا عزيزي.

ذهبت لغرفتي واستسلمت للنوم، لم تكن رحلة العودة متعبة كما توقعت، أعددت مشروبي المفضل (تمر وحليب) كي أشق به صيامي على الطائرة والذي عجب الجميع وأصبح مشروبًا معتادًا على الطائرة في رمضان.

عدت لمنزلي بالدوحة متعبة قليلًا، دعتني "منى " جارتي لتناول الفطور معها بالفعل بدلت ملابسي وساعدتها في تحضير الفطور ثم جلسنا نتبادل القصص والحكاوي عن بقية الفتيات وما يحدث بالشركة، أخبرتني منى أن "فينا" إحدى المشرفات كانت في رحلة في الهند وأصابتها سكتة قلبية وتوفت في غرفتها في الفندق، جزعت للخبر خاصة أنها كانت لطيفة جدًا، انتهت الأمسية وعدت لغرفتي وأنا حاملة في قلبي هم الموت وحيدة.

«لا تبحث عن ضريحنا في الأرض بعد وفاتنا، فضريحنا قلوب العارفين».**جلال الدين الرومي**

(٤٤) السحالي تراقبني

وفاة "فينا" جعلني أفكر في الموت كثيرًا، كيف ستكون نهايتي! لا أستطيع تخيل نفسي أموت في الطائرة أو غرقًا أو حرقًا أو صعقًا، لا أعلم سبب الرفض، هل لقسوة الموتة نفسها أم رجاء أن يكون الموت رؤوفًا بحالي أكثر من الحياة.

أخاف من فكرة أن أهرم ولا أجد من يرعاني، لطالما نصحني الناس بالزواج من أي شخص مناسب وإنجاب اطفال كي يرعونني عند الكبر ويدعون لي بعد مماتي ولكني بنظرة أعمق من نظرتهم. وجدت أمهات وآباء ماتوا كمدًا بسبب جحود أبنائهم، ومنهم من تمنى الموت للخلاص من الوحدة والمرض بعد أن انطلق أبناؤهم لينهلوا من خيرات الدنيا متناسين صلة الرحم والرحمة بوالديهم،

ظلت تلك الأفكار مسيطرة على، لم أنجُ منها سوى بالخلود للنوم...

في الصباح مرت عليَّ زميلتي ألفة " التونسية" ودعتني لتناول الفطور معها ومع صديقتها، كنت في حاجة للخروج من أفكاري الكئيبة، لذلك وافقت وذهبنا لمقهى وسط البلد وانضمت لنا "آمال" فتاة قطرية تتمتع بجمال لافت، حتى حديثها وصوتها ناعم جدًا بشكل ملحوظ، كانت ظريفة وخفيفة الدم.

اكتشفت بعد فترة وأثناء وجودي معها في السيارة صورة لها وهي مرتدية غطرة وعقالًا وثوبًا، وقتها صارحتني أنها ولدت تحمل أعضاء أنثوية

وذكورية معا وأنها تعاني من فقدان للهوية الجنسية، وأن طبيبها المعالج أوصى لها بإجراء عملية تحول كامل.

لم أكن مرحبة بتلك الصداقة، أعتقد لو قابلتها الآن لاختلف الأمر، في المساء وبعد عودتي للمنزل استعددت لرحلتي إلى جزر السيشلز والتي لطالما سمعت عن جمالها.

الطائرة كانت ممتلئة بالركاب العرب مما جعل ساعات الطيران تقفز سريعًا ولم أنتبه سوى لصوت الكابتن وهو يخبرنا بالاستعداد للهبوط.

وصلنا للجزيرة واستلمنا مفاتيح الغرف، صُدمت من بدائية الغرف، عبارة عن حصير مفروش على الأرض وسرير صغير، ولكن ما أثار الرعب بداخلي هو وجود سحالي كثيرة في سقف الغرفة، اتصلت بالاستقبال لأخبرهم عن السحالي فأخبرني أنه من الصعب التخلص منها وأنها غير مؤذية، حاولت التأقلم مع وجود السحالي خاصة أنني شعرت أنها جميعهًا ما إن رأتني حتى تسمرت في مكانها تراقبني، حرصت على غلق حقيبتي لضمان عدم سفر إحداهن معي.

كما اتفقت مع زملائي التقينا أمام باب الفندق واتجهنا إلى الشاطئ، فعلًا " لؤلؤة المحيط الهندي" كما يلقبونها، منظر البحر ورمالها البيضاء ومياهها الشفافة خلاب، انطلقنا بالمركب إلى عرض البحر حيث قفز كل من في المركب لعمل " سنوركلينج" ورؤية الأسماك والشُعب المرجانية، ترددت في البداية ولكن صاحب المركب اقنعني أن السمك يخاف ولا يقترب من الغاطسين، ارتديت النظارات وقفزت، كان منظر الشُعب المرجانية رائعًا ثم

فجأة وجدت سمكة كبيرة بجناحين تشبه الطائر متجهة نحوي، جزعت وسبحت بأقصى سرعة وخرجت من المياه، ضحك الجميع على هلعي غير المبرر لهم.

بعد عودتنا استعددت للعشاء وقررت التمشية على الشاطئ إلى أن يجتمع الباقين، أثناء تمشيتي اقترب مني شاب إفريقي وهمس قائلاً بالفرنسية : هاش فالتفت له لأستوعب ما قاله، مد يده بلفافة وقال لي ١٠ دولارات، أشرت له بالرفض، رغم أن الجزر إفريقية إلا أن الشعب يتحدث الفرنسية، اجتمع بقية الفريق وذهبنا لتناول العشاء في مطعم قريب من الفندق.

جلست بجواري نيكول الرومانية وأمامنا جلس الكابتن ومساعده، أثناء تناولنا العشاء شعرت بقدم تحسس على قدمي فانتفضت ثم نظرت لنيكول التي مسكت بيدي وهمست في أذني قائلة: إن الكابتن تحسس قدمها هي الأخرى، وأنه قد يكون سكران.

تجاهلناه وحملنا أطباقنا وغيرنا جلستنا متحججين برؤية البحر والاستمتاع بالمنظر، انتهينا من العشاء وانصرفنا لغرفنا متعبين خاصة أن رحلة العودة ستكون في الصباح الباكر، حاولت النوم وسط السحالي لم أستطع، هبطت للاستقبال وجدت حفلًا ترفيهيًا على الشاطئ، هاتفت نيكول التي لم تستطع النوم وانضمت لي، أخبرتني بأن الكابتن اتصل بها وطلب منها الذهاب لغرفته فوبختته، وكنت متأكدة أنه سيفعل ذلك، كثير منهم لا يحمل ذرة احترام للنفس.

استمتعنا بمسابقة الكاريوكي والرقص والوثب وغيرها، حتى حان موعد الذهاب، في الطائرة كنت أعاني أنا ونيكول من النعاس، بعد أن أنهينا الخدمة اتفقنا أن تأخذ كل منا ربع ساعة راحة نغلق فيها أعيننا، حتى جاء "آلان" زميلنا الفلبيني الشاذ جنسيًا، يطلب مني كوبًا من المكسرات ليقدمه لرفيقه الذي كان معنا في الرحلة، سألته عن رفيقه أخبرني أنه رجل أردني وأن علاقتهما دامت سنتين ولقد تعلق به وأحبه لدرجة أنه أحب أبناءه أيضا، صُدمت عندما أخبرني أن رفيقه وزوجته وأبناءه معنا بالرحلة، تملكني الفضول فأخبرته أنني أريد أن أرحب بهم، حمل المكسرات وسيرت خلفه إلى مكان جلوسهم وارتبك رفيقه عندما رآني، رحبت بزوجته وأبنائه الأبرياء ثم عدت مكاني، شعرت بوخزة في قلبي، هذا الرجل لم يستحِ أن يخون زوجته مع رجل آخر ولم يستحِ أن يقدمه لها على أنهما أصدقاء، هذا العالم ممتلئ بأنواع بشعة من البشر.

وصلنا أخيرًا، في طريقي للمنزل وفي إحدى الإشارات المرورية غفوت ثم أفقت على صوت كلاكس السيارات خلفي، حاولت أن أبقى متيقظة إلى أن وصلت أخيرًا لمنزلي، أعتقد أنني لم أقوَ على تبديل ملابسي، فنمت بها.

(٤٥) طعمية ملوكي

أصبح النوم صديقي الحميم بعد العودة من رحلاتي المتعبة، عند عودتي من جزر السيشل وغفوت بلبس العمل، صحوت مع أذان الفجر، بدلت ثيابي وصليت وبكيت، كنت أبكي من التعب والوحدة ولقد تكالبت كل أسباب الحزن في قلبي، كنت قد مللت السفر وتعبت جسديًا من كثرة السفر والتعرض لضغط الطائرة ولفصول السنة في نفس اليوم، الذي أبدأه في بلد أختمه في بلدة أخرى، تعبت من رؤيتي أصدقائي الواحدة تلو الأخرى يتركن العمل ويبدأن حياتهن في بيوت أزواجهن وما زلت أنا محلك سر، أيامي أصبحت متشابهة ولا أشعر بالشغف الذي كان يملأ قلبي ويجعلني مقبلة على الحياة.

وجدت رسالة على هاتفي من المكتب، اتصلت بالمكتب فأخبروني أن عندي موعدًا في السفارة الأمريكية كي أحصل على الفيزا ويتسنى لي زيارة بلاد العم سام.

في السفارة وأنا بانتظار دوري سمعت المقابلة التي أجراها الموظف المسؤول مع أحد الخليجيين، لفت انتباهي أن الموظف الأمريكي يتحدث مع الرجل باللكنة الخليجية، ثم جاء دوري وسألني نفس الموظف بلكنة مصرية عن سبب طلبي للفيزا، تعجبت من قدرته على الحديث بلكنات مختلفة، فقال لي أنه درس في مصر سنتين وأنه بالخبرة أصبح متمرسًا، حصلت على الفيزا خلال يومين، وقد وضعت رحلة نيويورك في جدولي وكانت من ضمن

الرحلات الجميلة لأنها مقسمة إلى مرحلتين، الرحلة الأولى نذهب إلى جينيف بسويسرا، نمكث فيها يومًا ثم نستكمل الرحلة إلى نيويورك.

اجتمعنا بداخل بطن الطائر الجديد إيرباص٣٣٠ والتي كانت حديثة جدًا، طائرة جميلة ومجهزة بأحدث الأجهزة الترفيهية، كما أنه يوجد بها أماكن استراحة خاصة للطاقم، لقد وقعت في حبها من الوهلة الأولى، نعم هناك طائرات أجد نفسي مرتاحة نفسيًا بداخلها وأخرى تجعلني أكره حياتي من كثرة ما بها من أعطال وروائح سيئة وضيقًا في المساحة.

خلال رحلتنا إلى جينيفا، كان معنا ممثل فلسطيني معروف في المسلسلات الخليجية وبالطبع لا أعرفه، أنا لست من محبي المسلسلات، أعتقد المسلسل الوحيد الذي ارتبطت به وما زلت أعشقه هو مسلسل “ Friends “

خلال مروري بأغراض السوق الحرة، اشترى مني تقريبًا كل العطور، حسبته سوف يأخذها هدايا لأهله، ولكنه قدمها هدايا لكل الطاقم.

لا أعلم لماذا، فنحن لسنا إعلاميين لنكتب عن كرمه ولا حتى نعرفه شخصيًا، شكرته على الهدية وسعدت بها، انتقلنا من الطائرة للفندق عبر طرقات عبارة عن مرتفعات ومنخفضات وأشجار من الجانبين، منظر ساحر، سعدت بالفندق خاصة أنه يطل على منظر ساحر، جينيفا الجميلة عبارة عن تحفة فنية، سبحان الخالق

لم يكن لدينا الوقت الكثير لذا قررنا أن نخرج مباشرة، توجهنا بالسيارة إلى وسط البلد، كان الجوع قد تملك منا فقررنا شراء ساندوتشات، وجدنا محلًا تركيًا يبيع ساندويتشات طعمية، طلبت واحدًا وكلفني ٥ يورو، هذه الطعمية

التي لا تزيد على جنيه في مصر دفعت ثمنها ٤٠ جنيهًا، يا لها من طعمية ملوكي.

لا أنكر أن طعمها كان شهيًا ولكن في الأخير هي طعمية، ابتاع زملائي نفس الشيء بسبب رائحتها الشهية، ثم بدأنا في السير في طرقات الشوارع الواسعة والجميلة، على أحد المرتفعات كان يوجد مقهى يطل على جبال يكسوها اللون الأخضر، قررنا الجلوس هناك والاستمتاع بكوب من الكاكاو المصنوع بالشكولاتة السويسرية الرائعة.

حدثنا الكابتن عن بلدته إيران، كان يتحدث عن قوة بلدته وانفتاحها قبل قدوم الخوميني، ثم تحدثنا عن مدى سطوة الدول التي تخضع لحكم إسلامي ومدى تعاسة من يعيش فيها، مثل السعودية وأفغانستان وباكستان وإيران، كنت متفقة معه ولكني ذكرت أيضا أن هناك دولًا أخرى مسلمة ولكن تتمتع بالرقي والحداثة والانفتاح وتقبل الآخر مثل ماليزيا وتركيا رغم أنها دولة علمانية ولا تخضع لقوانين وتشريعات الدول الإسلامية ولكن حاكمها مسلم.

الحوار كان شيقًا، خاصة أن بيننا غير مسلمين اهتموا بالمناقشة اهتمام الخليج بتغطية المرأة وبوضع قوانين للتنزه في المولات والشوارع واحترام العادات العربية الشرقية، في حين في دول الغرب لا تجد تلك المطالب للمسلمين بخلع ملابسهم أو تغيير شكلهم للتوافق مع عادات الغرب وكانوا محقين، نحن نريد أن نعيش بحرية في بلدانهم ونريد أن نقيدهم في بلداننا، المعني الحقيقي للتناقض الفكري.

أثناء نقاشنا طرحت ما قدمته فرنسا من قانون يحظر ارتداء النقاب، وهذا أيضًا تناقض مع ما يدعونه من تقبل للآخر، ووافقني الكل على ذلك، ولكن يظل الغرب أفضل منا بكثير في تقبل الآخر.

انتهى نقاشنا وخرجنا لنستكمل جولتنا، توقفنا أمام محل شوكولاتة ودخلنا لنتبضع منه، كانت المرة الأولى لي أن أتذوق الشوكولاتة الداكنة، يا ألهي ما ألذها، ابتعت لوحين من الشوكولاتة الداكنة بالبرتقال وقد التهمتهم قبل وصولنا للفندق.

لم يتبق لنا الكثير من الوقت، حزمت حقيبتي وجلست افكر في حياتي ثم قمت بصلاة العشاء والنوم استعدادًا لرحلة نيويورك في الصباح الباكر.

(٤٦) حرامية في أمريكا

كانت رحلة نيويورك لطيفة، ركاب مسالمون لا يزعجوننا بطلبات سخيفة كما اعتدنا، من ضمن واجباتي تقييم أحد المضيفين الجدد، عادة يُطلب مننا كمشرفين تقييم بعض الزملاء الجدد، وبالطبع يوجد بعض المشرفين الذين ينتهزون فرصة التقييم ليمارسوا عقد نقصهم في التسلط على زملائنا الجدد والتحقير منهم وإثارة الرعب في نفوسهم، أحمد الله أنني لم أكن منهم.

بعد وصولنا وعند مرورنا من الجوازات، استوقف موظف الجوازات زميلنا "محمد" الباكستاني والمشرف على الطائرة وطلبوا منه أن يتبعهم إلى مكتب ضابط الجوازات، أعطاني محمد أوراق الرحلة وطلب مني مغادرة المطار مع بقية الطاقم لأنه معتاد على تلك الإجراءات التي عادة تستغرق ٤ ساعات علي الأقل، نظرًا لأن هناك تشابهًا بين اسمه واسم أحد المطلوبين أمنيًا.

انطلقنا للفندق وخلال الطريق اتصلت بالمكتب لأخبرهم بما حدث مع محمد، عند وصولي وبعد أن نمت قليلًا واطمأننت أن محمد قد وصل الفندق، قررت الخروج وشراء عشاء من أي مطعم مجاور للفندق وأتعرف على المنطقة.

الشوارع كانت هادئة جدًا والحركة قليلة، المباني متشابهة ومتناسقة، لمحت سوبر ماركت كبيرًا فذهبت لأتفقده وتفاجأت برخص الأسعار مما دفعني لشراء الكثير من الأغراض، ثم مررت على مطعم " تاكو" وهي أكلة مكسيكية لذيذة، طلبت العشاء وحملت أمتعتي التي بدت كثيرة ثم خرجت من المول.

في الطريق للفندق اقترب مني رجل أربعيني عارضًا على مساعدته في حمل أغراضي كان لبقًا ومهذبًا، بالفعل حمل معي الأكياس وتحاورنا قليلًا ثم قص لي بعض النكات إلى أن وصلنا للفندق.

شكرت الرجل وتوجهت لغرفتي الصغيرة جدًا، الفندق عامة كان متواضعًا جدًا، قنوات التليفزيون محلية فقط ولكني استمتعت بها لأنني من عشاق برامج التوك شو خاصتهم.

في الصباح اجتمعت مع محمد وتينا وماريا لزيارة تمثال الحرية كما خططنا خلال الرحلة وفي البداية تمشينا خلال الشوارع المزدحمة والتي ملأتها الحياة مع سطوع الشمس، استقللنا الباص إلى مرفأ للمراكب، اكتشفت وقتها أن تمثال الحرية الذي قامت فرنسا بإهدائه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يقع على جزيرة "الحرية".

استقللنا القارب المزدحم بعدد كبير من اليهود ثم انطلق بنا إلى جزيرة الحرية الصغيرة وبعد أن التقطنا ما يكفينا من الصور، جلسنا في أحد المقاهي وطلبنا ساندويتشات للفطور، وأثناء جلوسنا لتناول الفطور وإذ بطائر كبير انقض على يد ماريا وخطف منها الفطيرة ثم طار.

ارتعبت من عدم خوف الطيور من الاقتراب منا، جلست بداخل الكافتيريا وتناولت فطوري بسلام، ثم حملنا أنفسنا وتوجهنا إلى شارع برودواي الكبير والذي ازدان باليافطات الكبيرة، كثير من الناس على الرصيف يقومون بالدعاية لشركاتهم، جذبني تجمع لبعض الناس حول شخص يقوم بألعاب سحرية فانضممت لهم، كان ممتعًا للغاية وثم انتقلت لآخر يعزف على الجيتار

ويتغنى بأغانٍ كلاسيكية جميلة، ثم رأيت يافطة مسرح برودواي، يا إلهي هل أنا أحلم ! أنا بالفعل هنا في مدينة الأحلام.

تمنيت لو بقيت في هذا البلد الجميل مدة أطول، للأسف لم يكن هناك عرضًا مسرحيًا في ذلك التوقيت لذا قررنا أن نستكمل جولتنا حتى نهاية الشارع والذي تلألأت فيه أضواء المحلات الكبيرة، وصلنا إلى محل ماكدونالد وقررنا أن نجربه، ذهلني كبر المحل المزدحم جدًا، على الطاولات شاشات إلكترونية لكي يتسنى للأطفال اللعب عليها وأيضا ليتسنى للأمهات مشاهدة برامجهم المفضلة، فكرة ذكية لاستقطاب العملاء، لاحظت أيضا أحجام الناس الكبيرة، اعتقد السبب أن هذا المحل من أرخص محلات الأطعمة الجاهزة ويقدم مناخًا مغريًا للبقاء به فترات طويلة، وطبعًا لا ننسى البطاطس المقلية اللذيذة خاصتهم.

بعد أن التهمنا بعض الساندويتشات التي لم يتجاوز الواحد منها الـ ٥ سنتات، استكملنا طريقنا لأقرب محطة حتى يتثنى لنا العودة للفندق، عند عودتي للغرفة لم أجد الآي باد خاصتي، اتصلت بخدمة الغرف وأبلغت عن اختفائه، وعدوني بالتحقق من الأمر، كنت متأكدة انني تركته بجوار السرير، معنى ذلك أن خدمة الغرف مسؤولة عن اختفائه، للأسف لم تتم إعادته ولا الاعتراف بسرقته، رغم أنني تركت شكوى رسمية قبل رحيلنا.

كانت رحلة العودة متعبة جدًا وكلما عانيت في الرحلة كلما فكرت في الاستقالة والهبوط على الأرض، لا أعلم متى سأكون جريئة بما يكفي لأتخذ قرار الاستقالة ولكني كنت بالفعل بدأت أفكر في ذلك كثيرًا.

(٤٧) مين هيروح النار

في الدوحة لم يكن لدي الكثير لأفعله، كان الملل يتملكني، حتى جلسات النميمة مع الفتيات أصبحت مملة، أصبحت غير عابئة بمن خان من ومن تزوج بمن ولا بأخبار تفنيش زملائي ولا أسباب تفنيشهم السخيفة، الشيء الوحيد الذي كنت أقاوم به الملل هو الروايات الادبية، أعتقد لأنها تحملني لعالم خيالي وقصص أخرى مثيرة غير قصتي الواقعية المملة.

أصبحت الرحلات غير ممتعة لتكرار السفر لنفس البلاد لذا كنت أسعد جدًا بتدشين رحلات لبلاد جديدة، مما يحمسني لزيارة المكان، ومنها "سنغافورة " التي وجدتها في جدولي، أخيرًا سأزور بلدًا جديدًا بعد شهور من تكرار نفس الرحلات.

في الصباح وقبل التحرك للطائرة تم إجراء فحص طبي سريع للتأكد من عدم تناولنا الخمور قبل الرحلة، نظرًا لأنه تم تقديم تقرير بقيام زملائنا بالعمل تحت تأثير الخمر مما تسبب في تفنيشهم، لذا أصبح الفحص شبه دوري ليس فقط على طاقم الضيافة، أيضا الطيارين يخضعون لنفس الفحص.

بعد تأمين الركاب، بدأنا في الإقلاع وكعادتي بدأت في قراءة الشهادة، نظرًا لأن أخطر مراحل الطيران هما الإقلاع والهبوط، كان يجلس بجواري " إلياس" شاب سوري مسيحي، بعد أن قرأت الشهادة، سألني لماذا تعتقدون أنكم فقط الفرق الناجية من النار، سألته من نحن، أجابني المسلمين، صراحة سؤاله أربكني، ولكني جاوبته بما أنا مقتنعة به، قلت له أنا لست مقتنعة بتلك

الأقاويل، وأنه لا أحد يحمل صك الحكم على الناس وتحديد من في الجنة ومن في النار.

تفاجأ بإجابتي ولكنه استطرد قائلًا ولكني أشرب الخمر، هل تعتقدين أن شارب الخمر ممكن أن ينجو من النار، صراحة لم أجد جوابًا مناسبًا، ولكني ذكرت له أن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا الشرك به، وأوضحت له أنه طالما يؤمن بوجود خالق فهذا الأهم، كل البشر خطاؤون ولكن مهم جدًا عدم انتهاك حق الآخر، أنت حر في نفسك ولكن لا تملك أن تجبر غيرك على فكرك ومعتقدك والتوبة عن ارتكاب المعاصي.

كان حوارنا متقطعًا ولكن لطيفًا أن نناقش أفكارنا ونعطي فرصة للتعرف على فكر مختلف، التفكير في حد ذاته إنجاز، لم أعمل كثيرًا في هذه الرحلة نظرًا لشعوري بألم في ظهري وازداد مع حركتي داخل الطائرة مما أدى لجلوسي طوال الرحلة.

وصلنا للمطار بحمد الله وقد ذهلت من روعة المطار، أعتقد أنه أشبه بمول كبير أو فندق ٧ نجوم، لدرجة أنه يوجد محلات مساج وقاعة سينما وحمام سباحة أيضا، ما هذا الجمال والروعة، ابتعت رواية جديدة من المكتبة التي بداخل المطار وحملنا حقائبنا وتوجهنا للفندق والذي توقعت أن يكون فندقًا فخمًا، ولكن للأسف الفندق كان سيئًا جدًا، ما أن وصلت حتى بدأت أسعل بدون توقف، طلب إلياس من الفندق إحضار دكتور للكشف علي.

الدكتور أخبرني أنني مصابة بنزلة شعبية حادة ويجب أن أظل في راحة مدة يومين وبناء عليه لن أقوم برحلة العودة في اليوم التالي، سعدت بذلك كنت

فعلًا متعبة ومحتاجة راحة، تم إبلاغ المكتب لإرسال زميلة كي تغطي مكاني في رحلة العودة.

ازداد على المرض، صرت أبكي بشدة بسبب الشعور بالوحدة وقلة الحيلة والغربة، حلت على حالة من الكآبة جعلتني تمنيت الموت، الأدوية ساعدتني على النوم قليلًا.

في المساء خرجت للتمشية قليلًا كما نصحني الدكتور لتخفيف آلام ظهري، أذهلني نظافة الشوارع والنظام واحترام النظام، ثم وجدت علامة على عمود النور ومكتوب أسفلها أن مضغ العلكة في الشارع ممنوع، تعجبت جدا من اللافتة، كان بجوار الفندق مقهى صغير، جلست بالمقهى وتذكرت أنني لم أتناول أي شيء منذ الصباح، رأيت صينية معروض عليها قطع السوشي فقررت أن أجربه وكانت أول مرة أجرب فيها السوشي. الذي عشقته لاحقًا.

سألت النادل عن موضوع العلكة وفقال لي ممنوع حمل العلكة أو مضغها أو رميها في الشارع وأن من يفعل ذلك يدفع غرامة فورية قدرها ٥٠٠ دولار سنغافوري، هذا يفسر نظافة الشوارع والنظام الدقيق في كل شيء.

بجوار المقهى وجدت سوبر ماركت يبيع فواكه طازجة عجبني شكل فاكهة لم أراها من قبل فتذوقتها ووقعت في غرامها إنها " المانجوستين"، ما ألذها، حملت معي ٢ كيلو لغرفتي الرواية التي إبتعتها من السوق الحرة، حيث أنني مغرمة بقراءة الروايات الأدبية وأنا أنهل من تلك الفاكهة حتى استسلمت للنوم.

في صباح اليوم التالي بعد أن رحل زملائي للدوحة ووصل الطاقم الجديد، اتصل بي "أحمد" مساعد الطيار للاطمئنان على وللتأكد من أنني سأنضم لهم في العودة التي من المقرر أن تكون بعد يوم راحة.

إتفق معي أن نذهب لتناول الغذاء سويا وللتعرف على البلدة فرحبت بذلك، شعوري بالوهن خف قليلًا ولكن صوتي مازال متأثرًا بمرضي، كنت أفكر فيما قاله أحد المشايخ في أن المرض والوهن هو ابتلاء كي يعوضنا اللّٰه عنه في الآخرة بالجنة، وبين ما قاله عند إصابة فنانة معروفة بمرض السرطان أن إصابتها هو غضب من اللّٰه عليها.

لا أعلم كيف يفكر هذا الشيخ، وأين الدليل على هذا الهراء الذي ينشره باسم الدين، عادت تلك التساؤلات تزعجني فقررت النوم حتى موعد الغداء لعلي أصبح بخير

(٤٨) بانجي جامب

لا أحب الشعور بالمرض وعادة أقاومه بالخروج والتمشية لذلك لم أتردد في أن أنضم لأحمد وبقية الطاقم لزيارة جزيرة " سانتوزا " وهي مدينة سياحية متكاملة ما أذهلني هو الأكواريوم الذي يحتوي على مختلف الأحياء البحرية، استمتعت كثيرا بجولتنا فالطقس والمكان مريح للنفس مما أثر في إيجابيا.

بعد أن انتهينا من جولتنا توجهنا إلى شارع " أورشارد" المشهور بالمحلات الكبرى وقاعات السينما والمطاعم، لم أقوى على المشي فانتظرتهم في أحد المقاهي، كنت أتمعن في سكان البلدة، كثير منهم من الصين والهند، لاحظت مدى جفائهم في التعامل، فرق كبير بين الماليزيين والسنغافوريين رغم أن البلدين أصول شعوبهم تعود للصين والهند ولكن فرق كبير بينهم.

فترة جلوسي كانت كافية لأستعيد نشاطي، قررنا تناول الغذاء فاقترحت عليهم تجربة السوشي وبالفعل دخلنا مطعم يقدم السوشي في بوفيه مفتوح.

بعد أن استمتعنا بغذائنا توجهنا إلى منطقة المارينا وهي عبارة عن ميناء للسفن يشبه كثيراً كورنيش النيل في مصر، خاصة السفن التي تقدم العشاء على موسيقى وعروض راقصة، الطقس رائع مما حفزني على التمشية على طول المارينا، في أحد أركانها وجدت لعبة" البانجي جامب" التي ذكرتني بمن يقفزون من أعلى الجبال وهم مربوطون بحبل، بدت لي ممتعة جدا ولكن

في حالتي تلك كنت سأتقيأ ما أكلت، لذا اكتفيت بمشاهدة الناس وهم يصرخون من المتعة والخوف معا.

انتهت جولتنا وانتهى يومي بابتلاع أقراص الدواء والاستسلام للنوم.

في الصباح لم أكن بحال جيد ولكني مضطرة للعودة إلى الدوحة، على الأقل أستطيع أن أمرض براحتي في منزلي، بعد الإقلاع بدأت أرتعش وارتفعت درجة حرارتي، ساعدني " أشلي " مشرف الرحلة على الجلوس على أحد مقاعد الدرجة الأولى وأعطاني حبوب لخفض الحرارة وبطانية كي أرتاح، ظللت نائمة إلى أن وصلنا للدوحة، لم أقو على قيادة سيارتي فتركتها هناك وأوصلني الباص للمنزل.

اتصلت بي " رينا" صديقتي من مكتب الرعاية بالمضيفات لتطمئن على ومن صوتي شعرت أنني مريضة جدا، فمرت على واصطحبتني للمستشفى، حيث تم حقني ببعض الأدوية وإعطائي إجازة يومين، وكانا أصعب يومين في حياتي.

فكرة أن أمرض وأنا وحيدة ولا أحد يعتني بي صعبة جدًا، لولا "رينا" واهتمامها بي لما استطعت أن أتحسن، رينا كانت من أقرب الشخصيات إلى قلبي، تعلمت منها الكثير، رينا هندوسية الديانة، تزوجت بعد قصة حب جميلة وابتلاها رب العالمين بعدم القدرة على الحمل، لذا قررت التبني، تبنت طفلين وربتهما كما لو كانا ابنيها.

رينا غير المسلمة وجدت في خُلقها كل معاني الإسلام، من المودة والرحمة والحنان والأخلاق الكريمة، علمتني العطاء والتواضع، كانت تتعرض لإساءات

عدة من زملائها الحقودين نظرًا لأنها نشيطة جدًا وتؤدي عملها بإتقان، لدرجة أن إحدى الزميلات كانت تشتكي أن ابنتها مريضة وكانت منهارة، حاولت رينا تهدئتها فقالت لها زميلتنا بكل حقارة " ما أدراكي أنت عن شعور الأم الحقيقي"، رد حقير وسخيف ولكن لم ترد عليها رينا التزمت الصمت، شاهدتها تبكي في الحمام بعد هذا الحوار العقيم، واسيتها وأخبرتها أن الحقد والغل يفعل الكثير بقلوب الناس وذلك يظهر على أقوالهم وأفعالهم.

أحيانا نقابل أُناس يتركون في أرواحنا أثرًا طيبًا وفي حياتنا ذكرى جميلة، كانت رينا من هؤلاء الأشخاص وسأظل شاكرة لها اهتمامها ورعايتها لي مدى الحياة.

انتابني إحساس بالحاجة إلى زيارة بيت اللّه، في خلال إجازتي المرضية مررت على مكتب سفريات وسألت عن كيفية أداء عمرة بدون محرم، كان الرجل متفهمًا ووعدني بضمي لمجموعة يطلق عليها "صحبة صالحة" حيث يتم وضع مجموعة سيدات فوق سن الـ٤٥ في فوج بدون محرم ويتم السفر بالباص وليس بالطائرة لأن الإجراءات في المطار أصعب من العبور البري وأنه بعد الحصول على الفيزا سيؤكد موعد السفر.

عدت للمنزل حيث زارتني نجوى واخبرتها بموضوع العمرة، فقررت أن تقوم بالعمرة هي الأخرى ولكن مع والدتها وأخيها، ثم صدمتني بما حدث مع زميلتنا المغربية "منى" والتي تم ترحيلها من البلد بسبب حملها بدون زواج، كانت منى على علاقة بطيار قطري زميل لنا وأثناء إحدى رحلات العودة للدوحة حدث لها نزيف مما أدى لاستدعاء طبيب فور الهبوط والذي أكد بحملها، وبناء عليه تم وقف صديقها حتى ينتهي التحقيق والذي انتهى

بترحيلها، وبالطبع ولأننا مجتمع عربي مشوه، عاد الطيار لعمله ودفعت وحدها ثمن خطيئتهما.

غادرت نجوى منزلي وبقيت أنا في صراع داخلي مع ما يحدث في مجتمعنا من ظلم للمرأة باسم الدين والعادات والتقاليد، ليتني هاجرت لكندا كما فعلت حفصة.

(٤٩) ليالي الأنس في فيينا

بعد انتهاء إجازتي المرضية وفي ساعات الصباح الأولى كنت في طريقي للطائرة مع زملائي متجهين إلى" فيينا " عاصمة النمسا، التي لطالما سمعت عن ليالي الأنس بها من أسمهان، كانت معي" حنان "فتاة مصرية وجهها جميل، تبدو عشرينية ولكن من حديثي معها اكتشفت أنها تخطت ٣٥ سنة، جميل أن لا يظهر علينا علامات الزمن المهددة لعرش أنوثتنا، كنت سعيدة بوجودها.

لم تكن الرحلة طويلة ولا متعبة، قضيناها في الثرثرة على أحوال مصر وقصص الفتيات المصريات في الشركة وعن الدوحة وكيف نقضي أوقات فراغنا، أحيانا الثرثرة غير الهادفة تكون فعلًا ممتعة ومفيدة في الانشغال عن الأفكار الكئيبة التي تلح على عقلي كثيرًا.

كان معنا راكب مهم من عائلة كبيرة في الدوحة، اشتكى لي من عطل في الشاشة الخاصة بمقعده وازداد حنقه بسبب عدم وجود مقعد خالٍ لأنقله إليه، طلب أن يكتب شكوى عن رداءة الأجهزة، أعطيته الملف الخاص بالشكاوى، رغم حنقه كان مهذبًا جدًا، فحاولت أن أساعده على قتل الوقت، أعطيته بعض المجلات وقررت أن أعيره ال آي باد خاصتي ليتسلى خلال الرحلة، شكرني بشده، عادة لا أهتم بشكاوى من لا يحترمون طاقم الضيافة وأتجاهلهم ولكن الأدب والرقي في التعامل يفرض علينا أن نقدم أفضل خدمة برضاء نفس.

أتذكر في أحد الرحلات كان معنا راكب خليجي يتعامل بحقارة وتعالٍ مع الطاقم، طلب كأسًا من الشاي من زميلتنا أنجيلا الفلبينية والتي بصقت في الكوب قبل أن تضع فيه الشاي وقدمته له وشاهدته وهو يحتسيه وعلى وجهها ابتسامة كلها تشفٍ، كان هذا أفضل انتقام في نظرها، علمت لاحقا أن في أي مكان يقدم خدمات سواء أطعمة أو مشروبات يجب أن تكون ظريفًا مع العاملين وإلا سيقومون بإضافة ما لذ وطاب من البصق والقاذورات في طلبك ويقدمونها لك بابتسامة كبيرة، لذلك أنصحكم توخي الحذر.

وصلنا فيينا وقررنا أن ننام قليلا قبل الانطلاق، وقبل أن أنعس رن هاتف غرفتي فأجبت، وكان "محمد" الراكب القطري الذي كان معنا، اعتذر لي أنه نسى أن يعطيني ال آي باد وأصر أن يعيده لي ودعاني على العشاء ليشكرني على خدمتي المتميزة، حاولت الاعتذار ولكنه صمم فقبلت.

في بهو الفندق تقابلنا أنا وحنان وبقية أفراد الطاقم واستقللنا الباص لنقوم بجولة في المدينة والتي استغرقت ساعة ونصف، منظر البقر الذي كنت أشاهده في إعلانات الألبان وهو يسير في الحقول المنظمة بالمسطرة أبهرني، حتى منازل الفلاحين أعجبتني، تعطي شعور بالدفء، استمتعنا جدا بالجولة التي انتهت أمام مدخل أحد الشوارع الكبرى والذي قررنا أن نتمشى فيه حتى نهايته.

على جانبي الشارع مبدعون من عازفين وراقصين ورسامين وكل منهم يجتهد في عرض أعماله وأمامه قبعة أو كوب كي يضع فيها المارة بعض النقود، هكذا هي الشحاذة في ألمانيا.

تنقلت بين الفنانين المبدعين الشحاذين لأستمتع بعروضهم، حتى انتهى الزملاء من التبضع ثم عدنا للفندق،

استعددت للعشاء والتقيت حنان ببهو الفندق بعد أن طلبت منها مرافقتي لمقابلة محمد، التقينا بالسائق الذي أخبرني "محمد" أنه سيقلني من الفندق، السائق مصري الجنسية، حدثنا في الطريق عن عمله في فيينا وعن أبنائه، ثم أثنى على "محمد" و أخبرنا أنه من كبار رجال الاعمال وأنه رجل خلوق جدًا وكريم مع كل العاملين عنده.

أمام مطعم شرقي التقينا" محمد" الذي استقبلنا بكل أدب، ثم دلفنا بالداخل وكان قد حجز طاولة مميزة لنا بجوار النافذة وأمام التخت الشرقي والذي أمتعنا بعزف أغاني قديمة لكبار المغنيين، المطعم جميل ويعطي إحساسًا بالأصالة العربية، طلب لنا محمد عدة أطباق على ذوقه، أخبرني أنه زبون بهذا المطعم ويعلم أفضل الأطباق التي يجب علينا تذوقها.

طلب قنينة نبيذ وتناولها بأكملها وحده بعد أن رفضنا أن نشاركه، أخبرنا عن أعماله في ألمانيا وسفرياته المتعددة وعلاقاته المتنوعة من الشرق للغرب، خلال تناولنا العشاء استمتعنا برقص شرقي جميل من راقصة بدت عربية، ثم تغنى مطرب بأغاني ام كلثوم بصوته الرائع، كنت فعلا مستمتعة بجلستنا خاصة أن محمد تفنن في إلقاء نكات كثيرة عن الخليجيين لم أتوقع منه أن يخبرنا بها.

حدثنا عن حبه لفيينا وللسفر وعن استثماراته في أوروبا وفرنسا، سألته لماذا لم يستقر في أوروبا فأخبرني أنه لا يفكر أبداً في الاستقرار بالخارج ولكن في

نفس الوقت يستمتع بزيارة بلدان العالم، حسدته على حياته التي بدت لي ممتعة جدا وأخبرته بذلك فقال رغم كل ذلك أنه ليس سعيدا، لم أرد أن أثقل عليه بسؤالي عن اسباب تعاسته والتي قد لا افهمها أو أستوعبها لذا شكرته على عزومته لنا ورحلنا خاصة أنني لاحظت تأثير النبيذ عليه.

سبحان الله لا أحد مرتاح الكل ينقصه شيء، مهما بدت لنا حياة الاخرين ممتعة ومكتملة، يقينا نحن لا نرى الصورة كاملة وخلف كل ابتسامة قصة حزينة.

(٥٠) البندقية

في صباح اليوم التالي كنت مع حنان في طريقنا إلى زيارة فينيسيا " البندقية"، رحلة القطار ممتعة للغاية استغرقت قرابه ٣ ساعات، تنقلنا فيها من دولة إلى دولة بدون تعقيدات وتأشيرات، لا أعلم لماذا نحن المتفاخرون بعروبتنا لم نسعى لإيجاد اتحاد عربي يسمح للعرب الترحال بين الدول العربية بدون جواز سفر، يكفي لغتك العربية أن تكون جواز سفرك بين حدود الوطن العربي الذي يتشدق به حكامنا،

أخبرتني حنان عن قصة حبها مع دكتور القلب المصري المعروف، حين قابلته للمرة الأولى عندما مرضت والدتها واستدعت حالتها إجراء جراحة عاجلة بالقلب، وكان هذا الدكتور هو الجراح الذي أنقذ قلب والدتها واحتل قلبها هي، بدأ يغزل شباكه حولها إلى أن وقعت في حبه، رغم أنه متزوج ورغم أنه في بلدة أخرى، ولكن الحب اعمى.

تزوجت حنان من الدكتور سرًا، وأصبح لقاؤهما عابرًا في بلدان العالم التي تسافرها، فهو يشعر بالأمان بعيدًا عن مصر، بعيد عن زوجته الاولى، حتى لا تكتشف خيانته لها، أحبته حنان رغم أنه ماديا لا يصرف عليها ولا حتى إبتاع لها شقة زوجية متحججا بعدم استقرارهم في مصر بالإضافة إلى طلبه منها بعدم الحمل رغم رغبتها الشديدة في أن ترزق بطفل.

سألتها هل هي سعيدة بهذه العلاقة، هل هذا كافيًا بالنسبة لها، فأجابتني أنها تحبه وأنه يحاول جاهدًا أن يلبي طلباتها، سألتها ما هي طلباتها، صمتت قليلًا

ثم تبدلت تعابير وجهها، أعتقد أنها أيقنت أنه لا يقدم لها شيئًا وأنها تنازلت عن كل شيء.

حزنت على حنان وعلى حياتها المهدورة مع شخص لا يكلف نفسه حتى الاعتراف بزواجه منها امام العالم، شخص آثر أن يغزو جسدها بدون مقابل ولا أي دليل يعبر عن حبه لها.

وصلنا فينيسيا وبمجرد هبوطنا من القطار نفذت إلى أنفي رائحة زفارة السمك، لكن المنظر البديع للمباني وهي غارقة في المياه كفيل بأن ينسيني تلك الرائحة.

استأجرنا قارب جندول لنقوم بجولة بين المباني القديمة، النقوشات على المباني تعود لزمن بعيد، والمنظر بديع كما لو كنا في أحد الأفلام الرومانسية، تمنيت لو صادفت فارسي أحلامي على أحد قوارب الجندول، كم أنا واهمة، لقد تأثرت كثيرًا بتلك الأفلام غير الواقعية.

تبضعنا قليلا من محلات التذكارات ثم تناولنا غدائنا في أحد المطاعم المطلة على المرفأ الرئيسي والقريب من القطار، مازالت رائحة السمك تزعجني لذا ما إن انتهينا من الغداء حتى انصرفنا لنلحق بالقطار للعودة إلى فيينا التي وصلناها مساء

تمشينا قليلا في نفس الشارع الذي إفترش فيه المبدعين أغراضهم خاصة أنه قريب من الفندق، من جمال الشتاء في ألمانيا أنهم يشوون "أبو فروة" ويبيعونها ساخنه مثلما نفعل نحن بالذرة المشوية، اشتريت بعض منها ودفأت بها يدي.

عدنا للفندق بعد أن أشتد البرد وهنأت بنوم عميق بفضل الدفاية المتواجدة في الغرفة، كانت رحلة العودة متعبة للغاية، ركاب كثيرون وطلبات لا تنتهي وشكاوى لا حصر لها، كما لو كانت رحلة عقاب.

لم أهنأ بفترة راحة خلال الرحلة وما زاد من بؤس الرحلة هو إصابة أحد الركاب بسكتة قلبية قبل الهبوط مباشرة، ارتعدت من الخوف، لا أستطيع أن أشاهد أحدًا يموت، دعوت الله أن ينجيه، قام اثنان من زملائنا بعمل تنفس صناعي لإنعاش عضلة القلب كما تعلمنا في التدريب على الإسعافات الأولية، حمدًا لله كانت الإسعاف في انتظارنا عند الهبوط وتم نقل الراكب المصاب لإجراء الإسعافات اللازمة.

تبادلت مع حنان أرقام التليفون لنبقى على تواصل ولكن مع السفر كان من الصعب التلاقي، تأثرت بشدة عندما سمعت أنها كانت حامل وأثناء إحدى الرحلات حدث لها إجهاض، كم مؤلم أن تفقد حلمًا لطالما تمنيته.

سعدت عندما علمت منها أنها طلقت هذا الأناني، كنت على يقين أنه لا يستحق حبها، لكنني وجدتها غير حزينة على عمرها الذي ضاع معه وتقبلت ما حدث وتعايشت معه، رغم أن إجهاضها قطع آخر أمل لها في الحمل.

أتعجب ممن يريدون أن ينجبوا أطفالًا في عالم موحش وبائس مثل عالمنا، الأنانية والسعي للاستمتاع بشعور الأمومة والأبوة جعل الناس لا يفكرون في قدر أطفالهم ولا في حياتهم إن قدموا لعالم ينتصر فيه الشر على الخير ويقتل الأخ أخاه، كنت أتمنى أن أرزق بطفل ولكني كلما نظرت حولي حمدت الله على أنني لم أفعل.

(٥١) لبيك اللهم

عند عودتي من فيينا أخبرني موظف مكتب العمرة بحصولي على تأشيرة العمرة وأنه سيتم السفر برًا وحدد لي موعد السفر بعد أسبوع، مما يعني أنني سأقضي آخر ١٠ أيام من رمضان في مكة، سجدت شكرًا لله على منحي تلك الفرصة.

بعد حصولي على الإجازة بدأت أستعد للعمرة، لم أشتر ثوبًا أبيض كما تفعل السيدات في مصر، لا أعلم لماذا أبيض، الأبيض سهل أن يتسخ كما أنه يذكرني بالممرضات، لا أعلم من اختار هذا اللون ولماذا تبعهم كثير من الناس دون تفكير!

في يوم السفر بعد صلاة التراويح، حملت حقيبتي وتوجهت لمكان التجمع، لم اكن أعلم أن رحلتنا ستمتد لأكثر من ١٢ ساعة، بداخل الباص تعرفت على أسرة فلسطينية صغيرة ام وبناتها المتقاربات من سني، استمتعت بصحبتهم جدًا.

نظرا لجلوسنا فترة طويلة. ، تضخمت قدمي قليلًا وشعرنا جميعًا بالتعب والإرهاق، بعد وصولنا بحمد الله تم تسكيننا في فندق أعتقد أنه لا يتعدى نجمة واحدة ولكن كله يهون.

شاركتني الغرفة "ليلى" سيدة مصرية من سن والدتي، كانت نشيطة جدًا، بعد وصولنا مباشرة أمسكتني من يدي كأنني ابنتها وذهبنا للحرم، نصحتني أن اول دعوة عندما أشاهد الكعبة مستجابة، ظللت أفكر ما هي الدعوة الأهم،

عندما اقتربنا من الحرم ورأيت الكعبة سألت الله أن أكون مستجابة الدعوة حتى أدعو براحتي لاحقًا.

سمعت الناس يصفون شعورهم الروحاني عند رؤيتهم للكعبة وتخيلتني سأفعل نفس الشيء ولكن ما حدث كان العكس تماما، لم أشعر بروحانية ولا بأي شيء، وجدتها مجرد مبنى ومغطى بستائر، خفت أن أكون من هؤلاء الذين منعهم الله من متعة الشعور بالقرب في بيته الحرام.

بدأنا في الطواف وخيل لي أنني أسمع صوت تصدية الكفوف كما لو كنت في عصر قريش، أغمضت عيني وحاولت أن أركز في دعائي وبدأ قلبي يخشع، انهمرت دموعي وأنا أدعو لكل أحبتي ولنفسي، ناولتني "ليلي" كتيب لكي أقرأ منه الأدعية فرفضت، أخبرتها أن الدعاء يجب أن يكون من القلب، أنهيت العمرة وأنا في غاية الارتياح النفسي، هذا المكان يشع طاقة إيجابية جبارة، قادرة أن تغسل أرواحنا المتعبة.

بعد أن اعتمرت لأحبتي الذين رحلوا مرضت وارتفعت حرارتي وحمدًا لله أنني كنت بصحبة الأسرة الفلسطينية، حملوني لأقرب مستشفى حيث كانت حرارتي ٤٠، تم مداواتي وعدنا للدوحة وقد اكتسبت صداقتهم التي أعتز بها بشدة، وأصبح منزلهم ملاذي في الدوحة، اعتبرتهم أهلي كما شعرت أنني ابنتهم، كم هو جميل أن يرزقنا الله بمحبة الخيرين.

عند عودتي كنت ما زلت مريضة، كثرت أيام مرضي، لا أعلم هل بسبب الطيران وتأثيره على، أم تأثير الوحدة وما تفعله بأرواحنا فتجعلنا نذبل بسرعة ونفقد حب الحياة ومتعتها.

مع بداية الشهر وبعد أن استعدت لياقتي وصحتي استلمت جدول رحلاتي الذي سعدت بوجود أكثر من بلدة جديدة لم أزورها من قبل، استعددت لرحلتي الأولى إلى "لاجوس" أكبر مدينة في أفريقيا بعد القاهرة.

أخبرت نجوى بجدول رحلاتي الجديد، فنصحتني بتبديل رحلة لاجوس بأي رحلة أخرى لما حدث هناك مع طاقم إحدى شركات الطيران الخليجية، سألتها عما حدث فأخبرتني أن البلدة غير آمنه وأن حوادث السرقة والقتل تحدث يوميا، ثم أخبرتني أنه عند وصول طاقم الرحلة إلى لاجوس وخلال تنقلهم بالباص من المطار للفندق، خرج عليهم بلطجية وأخذوا كل شيء معهم حتى ملابسهم وتركوهم يعودون للفندق بملابسهم الداخلية فقط، لم أصدق القصة ولكنها جعلتني قلقة.

تجهزت لرحلتي والتقيت بزملائي في المكتب الفني لنتوجه للطائرة، لكن قبل ذهابنا اجتمع بنا الكابتن وحذرنا من الخروج من الفندق، حيث أن الشركة أصدرت أمر بعدم الخروج من الفندق لخطورة البلدة ووضعها الأمني السيئ جدًا، وقتها صدقت رواية نجوى ودعوت الله أن تمر على خير.

(٥٢) كرشة لاجوس

خلال رحله " لاجوس" كنت قلقة بسبب ما سمعت عن المشاكل الأمنية في البلدة، كان كابتن " إبراهيم" الكويتي، من الشخصيات المثقفة والغنية بالأفكار، خلال الرحلة وبعد انتهاء الخدمة جلست في كابينة القيادة لاحتساء الشاي والتعرف اكثر على الكابتن الذي حدثني عن تاريخ القارة السمراء والتي أنتمي لها ولا أعلم عنها الكثير حدثني عن لاجوس واقتصادها وكيف أن خيراتها ليست لأهلها كما هو الحال في بلدان كثيرة منها بلدي.

كنت دائما أتطلع للنقاش في أحوال الدنيا ومعرفة تجارب الأخرين، لم تكن الرحلة متعبة ولكن الغريب أن معظم الركاب من لبنان، كما لو كنا ذاهبين إلى بيروت وعندما سألت الكابتن عن ذلك أخبرني أنهم يقومون بأعمال حرة هناك وأن منهم من يقوم بغسيل أموال وأخرون يبدأون استثماراتهم هناك لأنها رخيصة، ولكن كيف يستثمرون هناك والبلد غير آمنة حتى للسير في الشارع.

عند وصولنا للمطار رافقتنا سيارتين أمن واحدة تسبقنا والاخرى خلفنا، إلى أن وصلنا للفندق والذي كان مكتظا بالناس، استلمنا مفاتيح الغرف وطُلب منا التوقيع على استمارة عدم تحمل الفندق اي مسؤولية من جهتهم في حالة خروجنا منه خلال إقامتنا القصيرة والتي لا تتعدى الـ ٣٦ ساعة.

اتفقنا جميعًا على أن نتناول العشاء في مطعم الفندق، حملت أغراضي وتوجهت لغرفتي، صدمني وجود موظف أمن يحمل معه سلاح آلي في كل طابق، لهذه الدرجة البلدة غير آمنه، كيف يعيش أهل البلد إذن!

ارتعبت، خشيت أن يتسلل أحدهم من النافذة لداخل غرفتي، دخلت الغرفة ووضعت أغراضي وتأكدت من أن كل النوافذ مغلقة والستائر مسدلة ثم وضعت كرسيًا خلف باب الغرفة تحسبا لأي شيء قد يحدث، وكالعادة تركت الضوء والتلفاز يعمل حتى أستطيع أن انام قليلا.

في المساء هبطت لبهو الفندق واجتمع الفريق ثم ذهبنا لتناول العشاء على حمام السباحة، المكان فعلا لطيف والفرقة التي تمتعنا بغنائها من إفريقيا يتمتعون بالبشرة السمراء الساحرة وأجسادهم الممشوقة، أعتقد مهما خضعت السيدات لعمليات تجميل لمؤخراتهن لن تكون في مثل انوثة وجمال مؤخرة هؤلاء الإفريقيات الجميلات، حتى بشرتهن اللامعة أبهرتني، سبحان الله الذي خلق الجمال في كل شيء.

في البوفيه فوجئت بالكرشة والتي تطبخها أمي وتستغرق يومين في تنظيفها، طبعا نعلم جيدًا رائحتها السيئة وضرورة تنظيفها جيدًا ولكنها كانت شهية جدًا ورائحتها أيضا تثير اللعاب، تذوقت قطعة فعجبتني، استمتعنا بها كثيرًا، حيث أغريت زملائي بتذوقها فانهالوا عليها وأعتقد نحن من نسفنا الطنجرة بأكملها.

كانت الجلسة لطيفة وأسوار الفندق عالية تفصل بيننا وبين العوام والمحتاجين، لا أعلم لماذا دائمًا أفسد اللحظات اللطيفة بالتفكير في العوام من الناس، ظللت أفكر في كم الطعام في البوفيه والذي قد يكفي قرية كاملة ويسد جوع محتاجين كثيرين.

انتهى اليوم بنوم متقطع وأنوار مضاءة وأفكار كئيبة عن الدنيا والابتلاء والعدل والظلم والتي تهاجمني كثيرًا مؤخرًا.

في اليوم التالي صباحا، نزلت لبهو الفندق، اقترب مني شخص لبناني وعرفني بنفسه وبأنه يعلم أننا طاقم طيران، خفت منه ولكنه اخبرني أنه يبحث عن الكابتن الذي يعرفه شخصيا، وأنه ينتظره في البهو منذ وقت قليل، تناولت كرواسو وكأس شاي معه بعد أن انضم إلينا الكابتن ثم ذهبنا لنجلس عند حمام السباحة،

كان هناك بقية الطاقم يسبحون ويستمتعون بالطقس الحار وصوت الموسيقى ينعش الروح، مر الوقت ونحن نتسامر ونتشارك خبراتنا العملية والحياتية وبعد أن تناولنا الغذاء، دعانا الكابتن لتناول الشاي بغرفته وبالطبع وافقنا جميعًا، كان يحمل معه بعض الأفلام اخترنا أحدها وجلسنا نشاهده على اللاب توب.

شعرت بالنعاس فاستأذنت وذهبت لغرفتي وفي الطريق وجدت الحارس جالس وبدا متعباً، فسألته عن عمله هناك، وعدد الساعات، كان لطيفا جدا، أخبرني أنه يجب أن يجلس في مكانه ويأمن الطابق بأكمله لمدة ١٢ ساعة متواصلة، تشاركت معه بعض من الفاكهة التي كنت أحملها معي، ثم توجهت لغرفتي، لم تكن ليلتي مثيرة بالأحداث وأحمد الله على ذلك.

في رحلة العودة كانت الطائرة شبه فارغة مما اسعدني بشدة، فلقد مللت روتين الخدمة من تأمين الطائرة وتقديم الوجبات وجمع البطاطين والسماعات، ثم تأمين الركاب مرة أخرى ثم الجلوس طويلا والتفكير في

حياتي المملة، لا أعلم هل أصبح حلمي بالطيران سبب تعاستي أم هذه هي الحياة ولا شيء يبقى كما كان، حيث نفقد حماسنا وتبهت أحلامنا.

(٥٣) محبوبتي السمراء

لم أعلم أنني سأقع في غرام القارة السمراء، عن عودتي من لاجوس وبعد ساعات الراحة المحدودة استعددت لرحلتي إلى "نيروبي " عاصمة كينيا، خلال الرحلة ما لمسته من الركاب هو مدى جمال أرواحهم وأخلاقهم الحميدة، على عكس ما تصوره لنا الميديا من جفاء وتشدد وعصبية.

أيضا لاحظت أن الجميع كان يتحدث الإنجليزية بجدارة، كما لو كانت لغتهم الاولى، سعدت عندما علمت أن بقية الطاقم لم يزر نيروبي من قبل، وهذا يعني أننا سنكتشف البلدة سويًا نظرًا لأن مدة إقامتنا قصيرة، قررنا الخروج مباشرة وخاصة أننا وصلنا في الصباح مما يعطينا الفرصة لعمل جولة السفاري التي سمعنا عنها من الكابتن، بالفعل بدلنا ملابسنا واستقللنا باص خاص من الفندق إلى منطقة السفاري (ناشونال بارك) والتي لم تكن بعيدة عن وسط البلد.

تم تقسيمنا مجموعتين كل مجموعة استقلت سيارة جيب بها سائق وحارس يحمل معه بندقية، تم إنذارنا بعدم فتح النوافذ أو الخروج من السيارة خلال جولتنا نظرا لأن السفاري داخل أدغال مفتوحة فيها كل ما نتخيله من الحيوانات البرية.

و رغم مرضي بالفوبيا من الحيوانات إلا أن وجودي داخل سيارة كان مطمئن لي بعض الشيء، بدأنا جولتنا والتي شعرت خلالها بمدى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، رأيت تجسيد للآية الكريمة التي تصف الحيوانات أنهم

شعوب أمثالنا، رأيت الفيل الصغير ملتصق بأمه في جمال ووداعة وملك الغابة يداعب أنثاه وهي تتدلل عليه، رأيت الزرافة تتباهي بجمالها وهي تخطو بدلال امام السيارة ناظرة لنا من أعلى باحتقار، شعرت أنها تسألنا ماذا تفعلون في أرضي أيها المتطفلون.

كم كان جميلا أن أشاهد الحمار الوحشي وهو يتعارك ويظهر لنا وحشيته كي نصدق أنه اسم على مسمى، ثم متعت نظري من جمال الغزلان والتي ظهرت كما لو كانت مجموعة من النسوة مجتمعين يتباهون بجمالهن الأخاذ أمام بعضهن البعض.

بعد أن انتهينا من جولتنا بالسيارة تم اصطحابنا لمشاهدة أنواع الطيور الكثيرة، سبحان الله كم لا نهائي من أشكال وألوان العصافير والببغاوات في غاية الروعة، وقف أصدقائي لالتقاط بعض الصور، حيث وضع الحارس بعض من حبوب الغذاء على رؤوسهم وأكتافهم فوقفت عليهم العصافير لتلتقط طعامها، منظر بديع ولكني طبعا لم أجرأ على الاقتراب حتى من مكان تواجد الطيور والعصافير.

لا أعلم لماذا ابتلاني الله بهذا المرض، كم وددت أن أتجرأ وأحمل جروًا صغيرًا أو قطة جميلة وديعة، بعض الناس يعتقدون أن هذا دلالا ماسخا مني ولكن للأسف ما لا يعلمونه أنني إن اقتربت من أي حيوان أصاب بالتشنج وعدم قدرة على التنفس، ويتملكني رعب شديد، أسأل الله أن يشفيني كي أتمكن من تربية جرو صغير يملأ حياتي وقلبي.

بعد أن انتهينا من جولتنا، عدنا للفندق كي ننال قسطا من النوم على أن نجتمع على العشاء، لم أكن متعبة لدرجة النوم فقررت أن أتجول في شوارع نيروبي، حيث أنها بلدة آمنة وفعلًا جميلة وطقسها خريفي جميل، لذا قررت أن أسير بلا هدف لأكتشف البلدة وأتعرف على أهلها.

خلال سيري بين الشوارع وجدت صالون لتصفيف الشعر للسيدات فقررت أن أجرب الكوافير هناك وكيف يعتنون بشعورهن المجعدة خاصة أن شعري كيرلي ولكن ليس بنفس الكثافة مثل الأفارقة، دلفت الصالون الصغير حجما والمكتظ بالسيدات، سعدت جدا بوجودي داخل مكان يحمل روح البلد.

لم يكترث الناس لوجودي كثيرًا وكان البعض يرمقونني بنظرات مختلسة، بالطبع مثل أي صالون سيدات تكثر الحكاوي والنميمة، حيتني المصففة التي أخضعتني لخطوات العناية بالشعر المعروفة، خلال تلك الخطوات كانت تحدثني عن البلد وعن أفضل الأماكن التي يجب على زيارتها ثم أوصتني بزيارة مطعم " كرنفال" المعروف بطريقته المميزة في تقديم الأطباق، ومثل أي مصفف أحضرت لي علبة من الزيت الخاص وأوصتني بشرائه واستخدامه وأنه جيد جدا لنمو الشعر ومعالجته.

في المساء وبعد أن ارتحت قليلا التقيت بالطاقم وأخبرتهم عن المطعم التي نصحتني به المصففة، فوجدت الكابتن كان قد حجز لنا في نفس المطعم.

المطعم مصمم على شكل كهف كبير وبداخله الكراسي والطاولات من الخوص وموسيقى أفريقية منعشة تبث عبر السماعات، وضع النادل الأطباق امامنا وفي وسط الطاولة وضع علم أحمر مثبت على شمعة، وأخبرنا أن وضع

العلم عموديًا يعني أننا نطلب الطعام ووضعه أفقيًا يعني اننا اكتفينا، وتبدأ الخدمة بمرور النادل ومعه أنواع مختلفة من اللحوم المشوية، منها الغزال والنعام والتمساح والجمل وغيرها، ولقد جربتهم جميعًا ولكني لم أستصغ لحم التمساح الذي يشبه الدجاج في مذاقه.

بعد أن أقمنا مجزرة والتهمنا اللحوم كما لو كنا أسود جائعة، عدنا للفندق وكنت في حالة تعب وإعياء شديد، وبعد قليل من الوقت تقيأت كل ما أكلته، أعتقد أن معدتي أصيبت بصدمة من تزاحم اللحوم المتنوعة بها، ارتحت كثيرًا بعدها واستسلمت لنوم عميق.

كانت رحلة العودة خفيفة ولطيفة، خاصة أن عدد الركاب قليل جدًا، سألت زملائي عن أخبار معدتهم فأجابوني أنهم جميعا تقيأوا ما أكلوا مباشرة بعد عودتنا، أعتقد فكرة خلط اللحوم خاطئة جدا وأن معدتنا غير مهيأة لهضم هذا الكم من الدهون واللحوم، أو قد يكون لحم التمساح خصيصًا السبب في ذلك، لأن بقية اللحوم يتناولها الناس بدون مشاكل.

(٥٤) لم تتم دعوتي

خلال سنوات عملي توطدت علاقتي بصديقة مصرية إسكندرانية تعرفت عليها في إحدى الرحلات ثم صرنا أصدقاء واعتدت على مقابلتها وزيارتها كلما توافق وجودنا معا في الدوحة، أحببتها كما لو كانت أختي، وتشاطرنا قصص كثيرة ورحلات ممتعة أيضا ٤ سنوات من الصداقة الجميلة.

تعرفت هي على شاب فلسطيني وأحبته، كنت سمعت عن علاقاته المتعددة ولكني لم أخبرها، لعله يكون صادقا معها وبالفعل تقدم لخطبتها.

في أحد الأيام وجدت رسالة من خطيبها على إيميلي ولم أكن سعيدة بها، اعتقد أنه كان يجرب حظه معي، كانت بصحبتي وقتها صديقة مشتركة، أقسمت عليها إلا تخبرها بتلك الرسالة ومسحت تلك الرسالة فورًا وقررت بعدها أن أتلافى مقابلتها في وجود خطيبها والذي كان قلما يتركها تخرج معنا بمفردها.

خلال إجازتي السنوية التي كنت أقضيها مع أهلي في مصر، حادثتني صديقتي لتشتكي من خطيبها هدأتها واتفقنا على أن نتقابل لاحقا، بعد أسبوع من محادثتنا تلك توجهت لصالون التجميل المجاور لمنزلي يملكه رجل فلسطيني والذي اتضح لي بالصدفة أنه أحد أقارب خطيب صديقتي وخلال تصفيف شعري تجاذبنا أطراف الحديث وعلمت منه أن صديقتي أقامت حفل زفافها من يومين... نعم لم تدعوني لزفافها.

صدمت ووددت أن أعاتبها ولكن أعاتبها على ماذا، لا يوجد كلمات تصف شعوري بالحزن، ورغم شعوري بالغصة إلا أنني هاتفتها وباركت لها.

علمت من أصدقائنا المشتركين لاحقا أنها لم تدعني لزفافها بسبب زوجها وهو الذي فرض عليها عدم دعوتي..

تعلمت من علاقاتي أنه لا يوجد ما نلقبه بالصديق الوفي، معظم من نعرفهم سنجد وفائهم أينما تصب مصلحتهم، كونت علاقات صداقة أو كنت أحسبها كذلك ولكني في كل مرة أكتشف أنها علاقات مصالح لا أكثر ولكن للأسف لم تكن مصلحتي أنا.

لم تعلمني أمي أن أجعل مصلحتي فوق كل شيء ولم ترشدني لطريق استغلال الغير لتحقيق ما أبتغيه، لم تعلمني أن أفكر في نفسي فقط، ودائما الومها على ذلك.

لعل الغربة غيرت من طباع الناس فجعلتهم أكثر شراسة وبحث عن الفرص واقتناصها بدون حدود أخلاقية أو إنسانية، لا أعلم، ولكني على يقين أن الإنسان يحمل من الشر بداخله ما يعجز الشيطان عن حمله.

(٥٥) سأظل أحلق في احلامي

زيارة أي مكان لأول مرة تكون تجربة لا تنسى تحمل الكثير من مشاعر الحماس والإثارة والفضول، لكن مع تكرار زيارة نفس المكان نجد انفسنا قد مللنا من المكان ونبحث عن شيء جديد، وتظل في ذاكرتنا المرة الأولى، اعتقد أن هذه هي طبيعة البشر، التمسك بذكرى أول مرة مثل أول زواج، أول حب، أول وظيفة، أول رحلة، أول مقابلة عمل وأول مرتب وأول رحلة ومع الوقت وتكرار الحدث يصيبنا الملل ونفقد الحماس وهذا ما قد أصابني، فقدت شغفي بعملي، فقدت حماسي بالسفر، تحولت الرحلات إلى روتين ممل ومتعب.

كنت أتطلع لدورات التدريب لأنها تكسر الروتين، أصبح وجودي في الطائرة ليس حلما ولكن صار عبئا، اكتشفت أن أيام حياتي سُرقت مني وضاعت بين السحاب، ساعات طويلة قضيتها وأنا أحلق حالمة أن يوما ما سأجد ما أبحث عنه، ونسيت أنني لا أبحث سوى عن وهم، وهم الحب الحقيقي الدائم والسعادة الأبدية وحلم فارس الأحلام الذي سيشرق قلبي بحبه ووهم إيجاد وظيفة ممتعة بدون متاعب.

بعد أن كثرت فترات مرضي وأنا وحيدة لا أحد يداويني وبعد أن تيقنت أننا نتغير مع الزمن وأن أحلامنا تتغير وأن ما كنت اجده من متعة في العمل بين السحب أصبح متعبًا وشاقًا، قرأت كثيرًا عن شعور بعض الناس بالإرتياح عند تركهم عملهم الممل وبحثهم عن شيء أخر يبعث في ارواحهم الحياة مرة

أخرى، شيء يثير اهتمامهم ويحفز فضولهم، فقررت أنني في حاجة لفعل نفس الشيء.

نحن لسنا شجر ثابت في مكان ما لا نستطيع تغيير واقعنا، نحن بشر وعلينا البحث دائما عن الحياة التي نريدها، قد نخطئ في اختياراتنا ولكن على الأقل نسعى للتغيير ونتعلم من أخطائنا ونظل نبحث عن أنفسنا.

قررت الاستقالة والبحث عن شيء اخر أجد فيه متعتي، ٨ سنوات من التحليق بين السحب كافي، لن أتعلم شيء جديد ولن أحقق شيئًا أكبر وعلى أن أخوض تجربة مختلفة أكتشف فيها نفسي وقدراتي وأتعلم فيها شيء جديد يثير شغفي.

بدون أن أتناقش مع أحد وكعادتي اتخذت قراري ونفذته، كتبت استقالتي وقلبي يرجف خوفًا من الفشل والندم ولكني كنت على يقين أني في حاجة للمخاطرة، قدمت استقالتي كما ينص العقد مع شهر إنذار، اجتمع بي المدير متسائلًا عن سبب الاستقالة كإجراء روتيني وأجبت بنفس الإجابات الروتينية أيضا.

خلال هذا الشهر استمتعت اكثر برحلاتي المكررة لا أعلم السبب، قد يكون حالة الارتياح من إخلاء مسؤوليتي أو لأنني على أعتاب مغامرة جديدة ومتحفزة لخوضها، لم أكن بذكاء الآخرين الذين يؤمّنون وضعهم بوظيفة أخرى قبل ترك وظيفتهم ولكني كنت على يقين بأنني في حاجة للتغيير.

اختفى الخيط الأبيض من السماء واختفت أحلامي بين السحب، نظرت إلى يدي وجدتني أرتدي الإسوار الذي أهدوني به زملائي في آخر رحلة لي، كانت

رحلة قصيرة إلى مدينة "مسقط " عاصمة عُمان، في طريق العودة وبعد أن انتهينا من الخدمة القصيرة جدا نظرا لأن مدة الرحلة ٤٥ دقيقة فقط، فوجئت بطلب الكابتن للاجتماع قبل الهبوط في مقدمة الطائرة لمناقشة شيء ما.

بالفعل وبعد أن انتهينا من تأمين الركاب استعدادا للهبوط، اجتمعنا في مطبخ الدرجة الأولى وفوجئت بالكابتن والفتيات يقدمن لي هدية مغلفة ابتاعوها من عربة السوق الحرة الموجودة على الطائرة، متمنيين لي التوفيق في مستقبلي وفي تجاربي القادمة.

كم كنت فرحة وسعيدة بتلك اللفتة الرقيقة منهم، كانت الهدية هذا السوار الرقيق الذي أحتفظ به حتى الان وأسعد عند رؤيته وأتذكر به احلامي وآمالي التي تزاحمت بين السحاب في فترة ما من حياتي.

انتبهت إلى صوت النادل وهو يسألني عن طلبي، أعادني من السماء إلى الأرض وأنا حاملة في قلبي حنين لشبابي الذي تبخر بين السحب وفي عقلي ذكريات ترتسم على شفاهي الابتسامة عندما اتذكرها.

طلبت شايًا مغربيًا، ونظرت للسماء التي بعثت بنسمة خفيفة وكأنها تحييني وتخبرني أن هناك الكثير لأعرفه ولأكتشفه في هذه الحياة.

لم أندم على تركي للطيران ولكني اعلم أنني أشتاق للسفر فما زلت عاشقة له..

سأظل أحلق في سماء ذكرياتي وسيظل السحاب محراب أحلامي ودعواتي.

تمت

شكر

أود أن أشكر كل من ابتاع كتابي وانضم لرحلتي الخاصة جدًا.

وأوتجه بالشكر للزميل محمد غزالي الذي جمعني بالأعزاء أحمد مهنى وأحمد سلامة وأحمد البوهي متمنية لهم كل التوفيق.

وأخيرًا أتوجه بالشكر لكل من رسم ضحكة على شفاة طفل وكل من ربت على كتف مريض وكل من غلبت عليه إنسانيته وكان عونًا لمحتاج. أنتم بهجة الحياة.